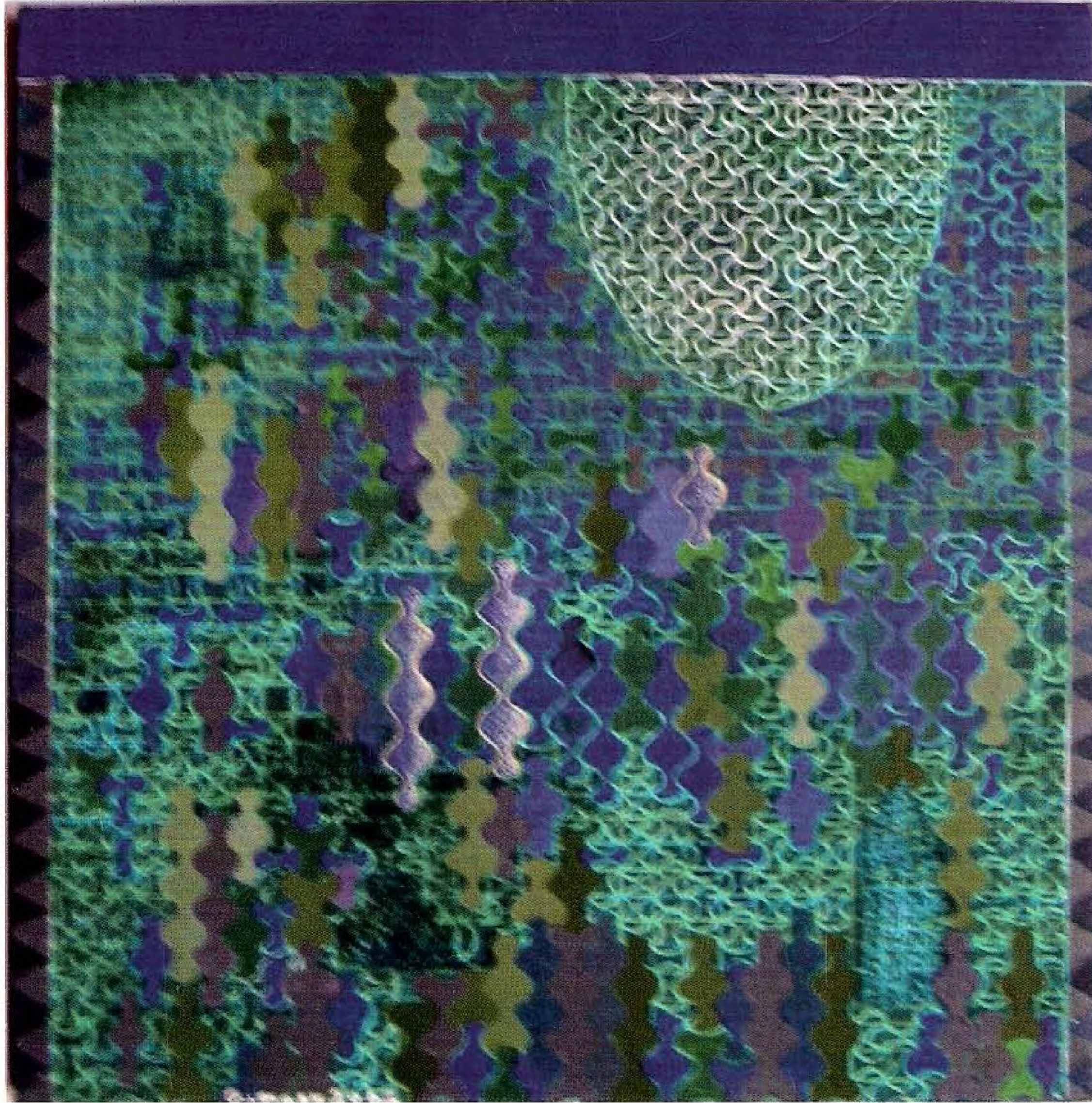




بروفيسير عبد الله الطيب

# مع أبي الطيب



الخرطوم عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٥ م



مع أبي الطيب



## وزارة الثقافة

السودان - الخرطوم (٢) - شارع المفتي - جوار البنك السوداني الفرنسي  
تلفون : ٨٣ ٤٩٧٤٠٥ - فاكس : ٨٣ ٤٩٧٤٠٢

كل الحقوق  
محفوظة

الطبعة الثالثة

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع : ٢٧٣/٢٠٠٤

نوحه الغلاف  
الدكتور حسين جمعان



دار الإصالة  
للصحافة والنشر والإنتاج الإعلامي

هاتف : ٨٣ ٧٦٣٥٧٩ - ٨٣ ٧٤٩٦٦٠ - فاكس : ٨٣ ٧٦٣٥٨٠ - ٨٣ ٧٤٩٦٥٦٩

رمز بريدي : (١١١١١) - ص ب : ٢٠٠٤ - الخرطوم - السودان

www.dar-alassalah.com - E mail: dar@dar-alassalah.com

بروفيسير عبد الله الطيب

مع أبي الطيب



## الاهراء

وَقَدْ سَرَّ نِي أَنْ كَسَانَ لِي مِنْ أَرْوَمِي  
خَلِيلٌ عَلَىهِ الْمَجْدُ حُرٌّ حُلَّاحِلٌ  
إِذَا مَا انْبَرَى لِلنَّقْدِ أَدْرَكَ لُبَّهُ  
خَفِيَّاتٍ مَا تَرْمِي إِلَيْهِ الْمَسَائِلُ  
وَإِنْ نَظَّمِ الشَّعْرَ الْحَدِيثَ سَمَاهُ  
إِلَى رُتَبٍ لَا يَرْتَفِيهِنَّ خَامِلُ  
وَإِنْ نَظَّمِ الشَّعْرَ الرَّصِينَ فَإِنَّهُ  
كَمَا صَالَ فُرْسَانُ الْبَلَاغَةِ صَائِلُ  
وَهَمَّتُ إِلَيْهِ الْحَادِثَاتُ فَصَدَّهَا  
كَرِيمُ السَّجَايَا وَالتَّلِيدُ الْمُنَاضِلُ  
أَخٌ لَكَ بَرٌّ وَالْإِخَاءُ وَسِيلَةٌ  
إِذَا طُلِبَتْ عِنْدَ الْإِلَهِ الْوَسَائِلُ  
إِلَى أَخِي الْكَرِيمِ الشَّاعِرِ الْفَحْلِ مُحَمَّدِ الْمَهْدِيِّ مُجْذُوبِ أَهْدَى هَذِهِ الْأَبْيَاتِ  
وَهَذَا الْكِتَابِ .

عبد الله الطيّب



بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله وبه نستعين وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه  
وسلّم تسليماً وبعد فربّما يصح أن يقال أكثرُ أسماء شعراء العرب دورانا  
بينهم امرؤ القيس وزهير وأبو الطيّب وعسى أن يكون معهم جرير . ثم في  
كل عصر يشتهر اسم فيغلب عليهم جميعاً ثم يختفى فينسى أو يكاد مثل البهاء  
زهير والوأياء الدمشقي وحافظ إبراهيم وإيليا أبي ماضي وهلم جرّاً . وبين  
طبقات العامة قد لا يعرف هؤلاء ولكن قد يعرف عنرة الفوارس لأنّه في  
القصاص الشعبيّ وحسان والبوصيريّ والبرعيّ لأنهم من مدّاح الرسول  
عليه الصلاة والسلام .

وقد اشتهر امرؤ القيس وجرير لعذوبة اللفظ وصفائه وحرارة النسيب  
وإبداع الصور ثم في شعرهما الحكمة والإنسانية . وقد اشتهر المتنبي  
زهير للحكمة والإنسانية وقوّة الأداء ثم عندهما من النسيب الصادق  
والصور المبدعات .

على أنّ العصر الحاضر ربّما خَسَّ بقدر زهير وأبي الطيّب لأنّهما من  
شعراء المديح، وخاصّة المتنبي لتكسّبه بذلك تكسّبا واختلافه بين الممدوحين  
وجوّهيه الأرض من أجل هذا الغرض . ولعلّه ممّا أفسد على الناس رأيهم في  
الحكم على شعر المدح عامة وشعراء المديح قاطبة حسبانيّهم أنّه من التسول  
وأنّ أصحابه متسولون . وهذا خطأ . إذ الشعر ديوان العرب كما الإذاعة  
والتلفزيون والصحافة وشتّى طرق الإعلام والدعاية هُنّ ديوان مجتمعتنا الحاضر .  
والمدح والهجاء كانا من أساليب الإعلام والدعاية المشروعة كما هما في هذا  
العصر .

والملوك ومن أشبههم كانوا يعلمون لهما ذلك فيرومون منهما ويتّقون ،  
كما يفعل أولو الأمر ومن أشبههم الآن إزاء الإذاعة والتلفزيون والصحافة



وشتى طرق الإعلام ، كلٌّ منهم بمنهج وأسلوبه وما يملك من وسائل الترغيب والترهيب . وكان الشاعر القديم ربّما مدح وهجا متكسبا كما يفعل أكثر القائلين بالإعلام فى زماننا وربّما فعل ذلك لا يريد كسبا فاجيز وعوقب ، أو أبه إليه أو تغوغل عنه أيّا من ذلك كان . وكان ربّما سَنَمَرَ الشاعر بين قبيلة وأخرى بشعره أو وفد على عظيم أو فضّل أو نفّر سيّدا وهلّم جرّا .

وكان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم شعراء يجاهدون معه ، ولقریش شعراء يقاتلون معهم . وكان لعلّ شعراء ولعاوية شعراء . وكذلك لعبد الملك وابن الزبير ، وبنى هاشم وبنى أميّة ، وآل على وآل العباس . وكان هارون الرشيد يقدّم منصورا النمريّ ومروان بن أبى حفصة لأفصاحهما بسياسة دولته فكانا عنده أثر من أبى نواس . وكانت لأبى العتاهية عنده منزلةٌ لأنّه كان ينشده شعر الزهد وكانت له قيمة سياسية شعبية . وكان زمان المأمون والمعتصم زمانُ الاعتزال . واصطنع رجاله تقدّم أصحاب التجديد فى فنّ الشعر . ونفق عندهم أبو تمام فقدّموه عند المعتصم . وكان المعتصم أميّا لعلّه لمّا سمع قصيدته :

« السّيفُ أصدقُ أنباء من الكتّابِ »

لم يفهم منها إلّا قليلا . وكان عبد الله بن طاهر أميرُ خراسان يفهم الشعر ويطرب له ، إلّا أنّ دقته الإدارية ، وتقليده لسمّة الخلافى استلزم أن يكون له مستشار فنى فى شخص أبى العميثل يمتحن الشعراء قبل أن يصلّوا إليه . ولم يُستثن أبو تمام نفسه من هذا الإجراء حين وفد عليه بيمين حته :

« أهْنَّ عَوَادِي يَوْسُفٍ وَصَوَاحِبُهُ »

وكان أمراء الطوائف من بعدُ يتنافسون على الشعراء . وربّما اختصّ أحدُهم شاعرا أو أكثر فأقاموا عنده لا يبرحون ، وربّما غاروا على الشعراء . فاحتبسوهم عندهم حتّى لا يمدحوا سواهم أو يهجوهم إذا صاروا إلى سواهم وقد كان الأمراء منهم بالشام من أشدّ الناس فعلا لهذا ولقد لقي أبو الطيّب

من ذلك عَنَتًا قبل أن يصير إلى سيف الدولة . وكان سيف الدولة من أكابر  
أمراء الطوائف في القرن الرابع ، وكانت أسرته بنو حمدان من كبريات الأسر  
المغامرة التي حظيت بالإمارة في ذلك العصر . وكان أبو الطيّب بعد إذ صار  
إليه كالموظف عنده ،

« أَسِيرُ إِلَى إِقْطَاعِهِ فِي ثِيَابِهِ  
عَلَى طَرَفِهِ فِي دَارِهِ بِحُسَامِهِ »

كان وزير دولته ووكيلَ وزرائه ( وضعه كان شيئاً من هذا النوع )  
للإعلام والدعاية ( بلغة العصر ) . واستمر في هذا المنصب تسع سنوات .  
وكادَ له منافسوه ، أبو فراسٍ والنَّشِيءُ والرِّفَاءُ ومن معهم عند فخامة الأمير  
كما يكيد الموظفون الكبار ومن أشبههم للموظفين الكبار ومن أشبههم في  
كلِّ جيلٍ . . « سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَلَكِنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » . . .  
وكان وزير الدعاية عند كافور أربع سنوات . . وكان وزير الدعاية والإعلام  
عند عضد الدولة مدى عام . . كان وزيراً زائراً مُفَوَّضاً من عند نفسه  
ذلك الحين القصير .

وكان مع الدعاية والإعلام عَمَلَى أَبِي الطَّيِّبِ واجبٌ آخر لا يُكَلِّفُهُ أكثر  
وزراء ووكلاء وزارات الدعاية والإعلام في عصرنا الحاضر . وذلك أن  
يبرز عمله بصورة فنية شعريّة تحمل طابعه الشخصي كما كانت كلُّ دولة  
خدمها في ذلك الزمان إمارة من إمارات الطوائف تحمل طابع أميرها الخاص  
الشخصي . . . سَمَتُ دولة آل حمدان بحلبَ غيرُه بالموصل . . . وسَمَتُ  
دولة آل الإخشيد بالفسطاط غيرُ سَمَتِ دولة آل بويه بأرجان أو بـشـيراز . . .  
غيرُ سَمَتِ بني عُبيد بالمغرب من بعدُ وبالفسطاط . قال ابن هانيء  
الأندلسي يمدح الأمير العبيدي :

« حَلَّ بِرَقَّادَةِ الْمَسِيحِ حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ  
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالَى وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ »

وكان أبو الطيّب من بين وزراء الإعلام في ذلك الزمان عَجَبًا . . .  
كان وزيراً له سياسته الخاصة ويخبر الناس أنه غير قادر على تنفيذها لأن  
الدولة التي تُغَدِّق عليه جوائزها ؛ سيف الدولة ، أو كافوراً ، أو بدر بن  
عمار — تسمع لمن يَكِيدون له وتعرقل عليه . وكان مع هذا يُمَجِّدُها شكراً  
لإغداقها عليه وتنبيهها على بهاؤها في ذات نفسها وتنويعها به . وقد يجمع جمعاً  
غريباً بين امتعاضه من العرقلة وتمجيده وتنويعه بالبهاء ، كقوله في كافور  
«يأيها الملكُ الغَياني بِتسمية في الشرق والغربِ عن نَعْتِ وتَلَقِيبِ  
أنتَ الحبيبُ ولكنِّي أَعُوذُ بِهِ من أنْ أَكُونَ مُحِبًّا مُحْبُوبًا»  
وفي البيت الأول تعريض كما ترى .

وكقوله في سيف الدولة :  
«أَهْمُ بِشَيْءٍ وَاللَّيَالِي كَأَنَّهَا تُطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ وَأُطَارِدُ  
وَحِيدٌ مِنَ الْخُلَائِنِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ  
خَلِيلِي إِنِّي لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ فَلِمَ مِنْهُمْ الدَّعْوَى وَمَنَّى الْقَصَائِدُ  
فَلَا تَعَجَّبَا إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ وَلَكِنْ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدٌ»  
وهذا في الدعاية غايةً كما ترى

وكان ممّا أعانته على هذا المذهب مزاجه وطموحه وأحوال عصره وما  
جربته من ذلك وكان قد خرج أول شبابه بدعوى ادعاها ولو قد نجح لكان  
سَبَقَ الفاطميين إلى إنشاء دولة فاطمية ولعلّه كان يدعى نسبا عَلَوِيًّا ، ولعلّه  
كان عَلَوِيًّا يَكْتُمُ نسبه . . . ومهما يكن من أمره فقد كان لا يرى إذ أذعنت  
نفسه إلى التماس السمو من طريق طويل شاق هو خدمة الأمراء بشعره ، أنه  
دون أحد منهم . . . إذ كانوا في جملة بين مغامر وابن مغامر ولعلّ  
أعرقهم لم يكن يزيد على أن كان حفيد مغامر مثل سيف الدولة أو عبداً لحفيد  
مغامر مثل كافور . . . أمّا أمثال ابن كَيْغَلْغَلْ فلم يكن يُقِيمُ لهم وزناً .  
وكان تنافس الأمراء إذ ذاك على الشعراء كتنافس ملوك أُرْبَا



وأمرائها على استقدام المصورين البارعين واستخدامهم وينبغي أن ننظر إلى قصيدة المدح لا على أنها تسول ولكن على أنها واجب أو عمل يطلب من الشاعر فينجزه كما قد كان المصورون في أرباباً يؤدي أحدهم واجبا أو ينجز عملا حين يطلب منه أن يرسم هذا الأمير أو تلك الأميرة . وكان من أعظم ما ينبغي في الرسم إبراز الأبهة والجمال ، وما كان كل أمير بذي أبهة ولا كل أميرة بحسنة . فتأمل . وكما كان شكسبير وأضرابه الروائيون يؤدي أحدهم واجبا أو ينجز عملا حين يطلب من فرقته تمثيل قصة لتسلية الملكة ورجال القصر واللوردات الكبار . ولأننا نعيش الآن في زمان نهضة أربابا والتاريخ الكبير لازال من صنع دولتها فإننا بحكم ذلك نقبل قصيدة روايات مولير وراسين وبين جونسون وشكسبير ، وصور فان دايك وجويا رنبرانت وروفاثيل على أنها من صميم الفن ، وننسى وجه الشبه بينهما وبين المدح والهجاء وقد فطن إلى نحو من ذلك ابن رشد في الدهر القديم حين شبهه المأساة بقصيدة المدح والملهاة بقصيدة الهجاء فما باعد كثير . وقد غلا الإنجليز في أمر شكسبير ويوشك الشعر المسرحي أن يكون من أضعف أنواع الشعر ، إلا ما يذكر من أشعار يونان في هذا المجرى لأن الشكل والأداء البياني كان يسيطر عليها أكثر من التشخيص وهو قد يحد جيداً من آفاق الخيال كما قد يلتوى بعواطف التعبير عن جادتها المباشرة إلى ضروب من مسالك التسلية العابرة والهنزل .

هذا والناظر في أصناف المديح في الشعر العربي يجدهن في جملةهن يتخلفن من عصر إلى عصر كما تختلف أساليب التمثيل وأساليب التصوير وأساليب الرقص وأصناف الأواني . ولقد نستطيع إن أقبلنا على ذلك أن ندرس أحوال المجتمعات العربية منذ أوائل عهدها إلى يومنا هذا من طريق دراسة الأصناف من أساليب قصائد المدح في جملةها من عصر إلى عصر كما يفعل الآن علماء الأحفار حين يستنبطون من أحوال الأمم السالقات بدراسة أصناف أساليب الجرار من عصر إلى عصر .

ثمَّ أساليبُ القصائد المادحة في العصر الواحد تختلف باختلاف الشعراء  
وباختلاف السياسات التي كانت تُهيمنُ على دُولِهِم أو ما هو بمنزلتها . ثمَّ  
الشاعر الواحد قد يعرِّضُ من أصناف الصور في قصائده باختلاف الممدوحين  
الذين يتناولهم فيها . . مثلاً جرير . . مدح عبد الملك فقال :

سَأَشْكُرُ إِنْ رَدَدْتَ عَلَيَّ رِيْشِي وَأَنْبَتَ الْقَوَادِمَ فِي جَنَاحِي  
أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْبَدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحِ  
دَعَوْتَ الْمُلْحِدِينَ أَبَا خُبَيْبٍ جِمَاحاً هَلْ شُفِيتَ مِنَ الْحِمَاحِ  
فَقَدْ وَجَدُوا الْخَلِيفَةَ هَبْرَزيّاً أَلَفَ الْعِصَى لَيْسَ مِنَ النَّوَاحِي  
وَمَا شَجَرَاتُ عَيْصِكَ فِي قُرَيْشٍ بَعِشَاتِ الْفُرُوعِ وَلَا ضَوَاحِي  
ومدح الحجاج فقال :

دعا الحجاجُ مثلَ دعاءِ نُوحٍ فَأَسْمَعَ ذَا الْمَعَارِجِ فَاسْتَجَابَا  
شياطينَ العراقِ شَفِيتَ مِنْهُمْ فَاْمُسُوا خِمَاضِعِينَ لَكَ الرُّقَابَا  
إِذَا أَخَذُوا وَكَيْدُهُمْ ضَعِيفٌ بِيَابَ يَمْكُرُونَ فَتَشَحَّتْ بِيَابَا  
وَأَشْمَطَ قَدْ تَرَدَّدَ فِي عِمَاهُ جَعَلْتَ لِشَيْبِ لَحِيَّتِهِ خِضَابَا  
جَعَلْتَ لِكُلِّ مُحْتَرَسٍ مَخُوفٍ رِجَالاً دَارِعِينَ بِهِ وَغَابَا  
كَأَنَّكَ قَدْ رَأَيْتَ مَقْدَمَاتِ بَصِينِ اسْتَانَ قَدْ رَفَعُوا الْقَبَابَا

ومدح عمر بن عبد العزيز فقال :

يَعُودُ الْفَضْلُ مِنْكَ عَلَيَّ قُرَيْشٍ وَتَدْفَعُ عَنْهُمْ الْكُرْبَ الشَّدَادَا  
وَتَدْعُو اللَّهَ مُجْتَهِداً لِيَرْضَى وَتَرْقُبُ فِي رَعِيَّتِكَ الْمَعَادَا  
إِلَى الْفَارُوقِ يَنْسَبُ ابْنُ لَيْلَى وَمُرُوانَ الَّذِي رَفَعَ الْعِمَادَا  
تَعُودُ صَالِحَ الْأَعْمَالِ إِنِّي رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَفْعُلُ مَا اسْتَعَادَا  
تَزَوَّدُ مِثْلَ زَادِ أَبِيكَ فِينَا فَنِعْمَ الزَّادُ زَادُ أَبِيكَ زَادَا  
وَمَا كَعْبُ بْنُ مَامَةَ وَابْنُ سَعْدَى بِأَجُودَ مِنْكَ يَا عُمَرَ الْجَوَادَا

فهذه صور ثلاث لملوك ثلاثة مختلفات باختلافهم شديداً الشبيه  
بشخصياتهم بحسب ما نقرأ في كتب التاريخ .

ولعلّه يكون من الدراسة الممتعة أن نعرض لشعر المدح في أمير بعينه  
في فترة بعينها لنجعل ذلك طريقة إلى فهم إمارته ومجتمعه . . . مثلاً مدائح  
الشعراء وما بمجراها في الحجاج وفي هارون والمأمون والمتوكل :  
«بِالْبِرِّ صُمْتُ وَأَنْتَ أَفْضَلُ صَيَّامٍ      وَبِسُنَّةِ اللَّهِ الرَّضِيَّةِ تَفْطِيرُ»  
وقد كان متعصباً لمذهب أهل السنة .

وفي المعتصم :  
«بِسُنَّةِ السَّيْفِ وَالْحَطَّيِّ مِنْ دَمِهِمْ      لَاسُنَّةَ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ مُخْتَضِبُ»  
وكان عصره يميل إلى الاعتزال .

وأن نعرض لمدائح كل شاعر لنعرف مدى قدرته على الخلق والإبداع  
بعرض الصور المختلفة كما هي مختلفات . .

هذا ، وقد كان أبو الطيّب فنّاناً ملهماً خارقاً القدرة البيانية . وقد  
أجمع النقاد أنّه هو وأبو تمام والبحرئى أشعرُ المُحمّدين . . . وهو أشعر  
الثلاثة بلا أدنى ريب لأنّ صاحبيه قد لحقهما غبار التاريخ فصارت أشباحهما  
على عظمها تهم بالاختفاء وأن يغمرهما النسيان . . . وهو لا زال شبيهه باهراً  
مضيئاً جداً . وقد نبغ واللغة مرّت عليها منذ عهد امرئ القيس قرون  
سته وشهدت أمثال جرير والفرزدق والنابغة وأبى نواس . . . وكان في  
دهرها الأَوَّلَ قائلها قد قال :

«هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ»

ومع هذا قد وجد أبو الطيّب المُتَرَدِّمَ بعد المُتَرَدِّمِ وفرض  
عبقريته فرضاً على اللغة العربية بما أضاف إليها من ثروة طائلة في محض  
أساليب البيان ممّا لا تزال حيويته تنبض إلى اليوم . . وقد قال :  
«مَاتَالِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ كُلُّهُمْ      شِعْرِي وَمَا سَمِعْتَ بِسِحْرِي بِأَبِلُ»



وإذا أتتكَ مَدَمَّتِي من ناقصٍ      فهي الشَّهَادَةُ لِي بأنِّي كَامِلٌ  
ولعلَّه صادق في بعض هذا .

وبينه وبين امرئ القيس مَشَابَهُ ، من حيث الشعور بوحشة الانفراد  
وتجشُّم الأسفار وبعد المطلب ، وحسرات الإخفاق ، وشدة التصميم . . .  
وكان فؤاده من الملوك كما قال :

«وَفُؤَادِي مِنَ الْمُلُوكِ وَإِنْ كَانِ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعْرَاءِ»

ثم بينهما فرق عظيم وهو أنَّ أبا الطيّب طلب الملك حبًّا فيه ولم ينشأ —  
كما نعلم — إلاَّ سُوقَةً يتيما أو كيتيم ، وامرؤ القيس فُرِضَ عليه الملكُ وطلبُ  
الثَّار بحكم الشرف القبليِّ العربيِّ ، وما زال دهره يجهدُ لو يجد سبيلا إلى أن  
يكون سُوقَةً بلا مسؤوليات فلا يستطيع :

«بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرَبَ دُونَهُ      وَأَيَقَنَ أَنَّا لَأَحَقَّانِ بِقَيْصَرَا  
فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكِ عَيْنَكَ إِنَّمَا      نَحَاوُلُ مُلْكَا أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذِرَا»  
وقد راضَ امرؤ القيس لُغَةً وحشيَّةً فأسلست وصفت له كلَّ صفاء  
وأصابَ أبو الطيّب غديرا منها راكدا فأثاره وأجرى فيه التيار . .

وقد حمل امرؤ القيس معه صحراء العرب : — (١)

تَطَاوَلَ اللَّيْلُ عَلَيْنَا دَمُونُ  
دَمُونُ إِنَّا مَعَشَرٌ يَمَانُونُ  
وإِنَّنَا لِقَوْمٌ مُّحِبُّونُ —

. . إلى قسطنطينية ومات عند عَسِيب وهو ينظر إلى الآل يخفق من دون  
حَوْرَان .

وقد حمل أبو الطيّب مُلتقاها بالسواد . . وقيل دون أن يبلغ حَظَّه من (٢)

الرى

وكان زهير شيخا حكيما . . قد سئم تكاليف الحياة .

لن يفتأ هؤلاء الثلاثة يُذَكَّرُونَ مادامت العريّة . وعسى أن يذكر معهم جرير لقوّ انفعاله وحرارة وجندانه :

« تَمُرُّونَ الدِّيَّارَ وَلَمْ تَعُوجُوا كَلَامُكُمْ عَلَى إِذْنِ حَرَامٍ »  
« أَتَذَكَّرُ إِذْ تُودِّعُنَا سُلَيْمَى بِمَمْرَعٍ بِشَامَةٍ سَقَى الْبَشَامُ »

وما فتنة العرب بأبي الطيّب ألف عام إلاّ لما علموا من أمر نبوغه وما أحسّوا من سحر إبداعه . قال الذهبي « ليس في العالم أحدٌ أشعرُ منه وأما مثله فقليل » وقال ابن رشيق « ملأ الدنيا وشغل الناس » وقال الثعالبي « وسافر كلامه في البدو والحضر وكادت الليالي تنشده والأيام تردده » . . وهذا من قوله :

« وما الدهرُ إلاّ من رُوءَاةٍ قَصَائِدِي إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدًا »  
وقد حام شكسبير حول هذا المعنى في عدد من كلماته فلم يجيء به محكما كما ههنا والله أعلم .

وقد كان معاصرو أبي الطيّب أولَ من فُتِنَ به وقد رام مماثلته بمحاكاته أو الأخذ منه جماعة كأبي فراس والسري فعجزوا ثم انتقلت الفتنة به إلى الجليل الذي تلاهم فرام مثل ذلك منهم جماعة فعجزوا كالشريف الرضي وأبي العلاء المعري ثم لم يزل يُفَسِّتُ به ويرومُ مثل شأنه أو التفوق عليه جماعة في كل عصر وجيل إلى زماننا هذا ولعلّ أحمدَ شوقي من أظهر ما يمثّل به في هذا الباب . . . وقد عجز رحمه الله على ما أوتيّه من فطرة . ولقد أوتي الشريف جزالة ورونقا ونُبُلَ أداء وشرفَ معان مع عزّة النفس وعِتْقِ الأرومة . . ومع ذلك لم يصنع رحمه الله من لحاق غبار أبي الطيّب كبيرَ شيء . وقد أوتي أبو العلاء فطنة وعلمًا وملكة وحذاقًا وكان لنفسه ناقدًا وبالشعر خبيرًا وبفضيلة أبي الطيّب وسبقه عارفًا إلاّ أنّه مع ذلك قد ابتلى فجاراه وباراه واستعان بالذكاء فأطال أبواب التأمل وشقّق المعاني وكانت فيه حلاوة فكاهة وبداهةُ سخريةٍ وله مقدرةٌ من جزالة وتصنيعٍ فأحسن وأبدع ما شاء ولكنه

بعدُ ما عدا أنه ألمَّ به غبار الذي يريد لحاقه فشَمِلَه فَخَيَّلَ لبعض النقاد، (٣)  
ولاسيَّما المستشرقون ، أنه رصيفه أو يزيد عليه .

ولعمري إنَّ أبا العلاء قد يصفو غاية الصفاء ويجود أحسن الجوده كما  
في عدد من قصائد سقط الزند وأبيات من البزوميات ولكنه تنقصه حيويَّةُ  
أبي الطيّب حتى نحو قوله :

«خَفَّفِ الوطءَ ما أَظنُّ أديم الأُرِّ ضِرِّ إلَّا مِن هذه الأَجْسَادِ»

وهو أمير شعره ، فيه أناة وتصنيع إذا قسته إلى قول أبي الطيّب :

«يُدَفَّنُ بعضُنا بعضاً ويمشى أوْخِرُنا على هامِ الأوَالِ»

والصفاء والموسيقا والتجويد والإحكام، كلُّ ذلك لا يرتفع بقدر الشعر  
كما ترتفع الحيويَّةُ ومن أجل الحيويَّةُ كان لبيدٌ دون امرئ القيس وطرفةُ  
وزهير بإجماع مع الذي أُوتِيَه من إحكام الصنعة وشدة الأسر .  
ولأبي تمام حكم رائعات أخاذات مثلُ قوله :

«وَكَيْفَ يَجُورُ عَنْ قَصْدِ لِسَانِي وَقَلْبِي رَائِحُ بَرِضَاكَ غَادِ

وَمِمَّا كَانَتْ الْحُكَمَاءُ قَالَتْ لِسَانُ الْمَرْءِ مِنْ خَدَمِ الْفُؤَادِ»

وهنا حيويَّة من فنٍّ . . .

ولكن ليست ههنا حيويَّةُ الشاعريَّةِ الدَّفُوقُ التي تُخْرِقُ حُجُبَ  
الأجيال مثل قول امرئ القيس .

«أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِ بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمَثَلِ»

وقول زهير :

«وَمَهْمَاتُكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخَفَّى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ»

وقول جرير :

«بِنَفْسِي مَنْ تَجَنَّبُهُ عَزِيزٌ عَلَى مَنْ زِيَارَتُهُ لِمَامٌ»



وقول أبي الطيّب :

«وشبّهُ الشّيءُ مُنْجَذِبٌ إليه وأشبههُنا بِدُنْيَانَا الطغَامُ»  
ومرادنا بالحيويّة عنصر الشّعْرِ المُنبِئ فيه عن صدق التجربة وعمق  
الانفعال معا .

وبين حيويّة الشاعريّة وحيويّة الفنّ فرق هو أنّ الأولى متّصلة بالكلام  
اتصالا مباشرا بحيث التجربة والانفعال طرَفٌ من مصدرها دالٌّ عليه مُشْعِرٌ  
بوجود شخصه، كدلالة صوت الطائر الصّدُوح على الطائر نفسه مثلا . .  
وهو المثل الذي مثّله أبو الطيّب ( أنا الصّائِحُ المَحْكِيُّ )

والثانية فيها نوع من الانفصام بين التجربة والانفعال والفنّان الذي هو  
مصدرهما . . . كأنّ الفنّانَ صانعٌ يعالج عمل شيء مصنوع فمهما يأت به  
ذا حيويّة أو حيّاً فإنه لا بُدَّ بعدُ أن يكون منفصلا عنه باثنا لاهمالة، على ما  
بينهما من صلة الصانع والمصنوع .

هذا ومن براعة أبي الطيّب أنّه قد استطاع أن يعالج في حيّز قصيدة  
المدح — ثمّ في غيرها من أصناف شعره — شتّى المشاكل الإنسانيّة ويعرّض  
لتحليل دقيقات العواطف مثلا . .

«أقيلَ سلامي حبّ ماخَفَ عنكم وأسكت كيما لا يكونَ جوابُ»

وقوله :

«واحتِمَالُ الآذَى ورؤية جانيهِ غداً تَضُوى به الأجسامُ»  
ويصور ألوان العباد والبلاد ولا يغفل في جميع ذلك عن نعت الطبيعة —  
«لَوَلَاكَ لم أتركِ البُحَيْرَةَ وَالْ غَوْرُ دَفِيئٌ وَمَاؤُهَا شَبِيمٌ»  
ولفتات المرح . . كقوله في لحي معزى الجبال :

لو سُرّحت في عارضتي محتال لعدّها من شبكات المال  
بين قضاة السوء والأطفال

وتجويد الغرام . . . كقوله :  
« وما كنتِ مِمَّنْ يَدْخُلُ العِشْقُ قَلْبَهُ  
وَلَكِنْ مَنْ يَبْصُرُ جُفُونَكَ يَعْشَقُ »  
وكقوله . . . وفيه ذو :

مرت بينا وبين سربيتها فقلت لهما من أين جئانك هذا الشادن العربا  
وقد أخذ شعره من التجربة أخذا قويا مباشرا . . . . كأخذ امرئ (٤)  
القيس حين يقول « كَحَقْفِ النَّقَا يَمْشِي الْوَلِيدَانِ فَوْقَهُ » « دَرِيرٌ  
كَحُذْرُوفِ الْوَلِيدِ » « كَلَمَعِ الْيَدَيْنِ » « مَشَى الْهَيْدَبَى فِي دَفِّهِ » « تَذَكَّرْتُ  
أَهْلِي الصَّالِحِينَ » « نَظَرْتُ فَلَمْ تَنْظُرْ بَعَيْنَيْكَ مَنَظَرًا » . . . . وكما أخذ زهير  
« وَكَائِنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجَبٍ . . . وَأَمْثَالُ هَذَا فِي الْمَجَالِسِ  
كثير . وكان زهيراً يُعَرِّضُ بقوم حضروا مجلس الصلح بين عيس وذييان  
صامتين صوراً ثم إذا نطق منهم ناطق لم يكن إلاّ فدماً . . « صورة اللحم والدم »  
التي هي مثلاً خروفاً .

تأمل قوله في عَضُدِ الدولة :  
أَبَا شُجَاعٍ بَفَارِسِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ فَنَاحُسُرُو وشَهْنَشَاهَا  
أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَذَّةٌ ذَكَرَتْهَا  
تَقُودُ مُسْتَحْسِنَ الْكَسَلِ لَنَا كَمَا تَقُودُ السَّحَابَ عَظَمَاهَا  
ههنا نظرة وتأملة للسحاب . .

وقال في الحسين التنوخي :  
بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي عَلِيٍّ مِثْلُهُ شُمُّ الْجَبَالِ وَمِثْلُهُنَّ رَجَاءُ  
وَعِقَابُ لُبْنَانَ وَكَيْفَ يَقْطِعُهَا وَهُوَ الشِّتَاءُ وَصَيْفُهُنَّ شِتَاءُ  
لَيْسَ الثَّلُوجُ بِهَا عَلَيَّ مَسَالِكِي فَكَيْفَ أَبْيَاضُهَا سَوْدَاءُ  
ولشوقي في لبنان قصائد وليس في واحدة منها صفة لبنان كما ههنا .  
وقد قال البحري :

تَلَفَّتْ مِنْ عَلِيٍّ دِمَشْقَ وَدُونَنَا لِلْبُنَّانِ هُضْبٌ كَالْغَمَامِ الْمُعَلَّقِ

وهذا جيد . . ولكنه صفة تعمُّ وليس فيها من ذاتية لبنان كما في  
كلام أبي الطيّب —

لاحظ صورة شُمّ الجبال مشرفات ، كأبى على ، كالأشخاص . .  
عليهنّ العمائم . . تشبيه سُمُوهُنَّ وانبثاقهنَّ إلى السماء بالرجاء . . عقاب  
لبنان . . . بردها في الصيف حيث ينهمر البرد في أيار —

وقال في سيف الدولة :

وتُضْجِي الحُصُونُ المُشْمَخِرَاتُ فِي الدُّرَى  
وخيْلُكَ فِي أعْنَاقِهِنَّ قَلَائِدُ

وهذه صورة حيّة للقلاع على الروابي ، وحركة الخيل بين الصخور ،  
وامرئٍ ينظر إلى كل ذلك بعين وفؤاد .

وقد كان أبو الطيّب عالماً . . أجمعوا على أنّه كان من ثقالة اللغة وفي  
شعره شواهد ذلك . . وكان كثير القراءة ولكنّ قراءته كلّها تضمنّها فؤاده  
ثم خلصت إلى نظمه وهي تأملات عميقة نافذات موجزات باقيات . . هذا  
هو الذي حيّر أبا العلاء فأعجزه فقال « معجز أحمد » وقال « الشاعر » يعني  
بذلك المتنبي لاسواه .

وقد تعلّم أبو الطيّب دبلوماسية المعاملات وسياسة الناس بعد أن  
اكتملت كهولته وتمّ نضجه ، من ذلك ريثه في جواب سيف الدولة لما  
استدعاه ، وحسن صحبته لعضد الدولة وتلطّفه في الاستئذان للخروج من  
عند حضرته .

ولكنّ أعداءه ما تعلّموا أن يكبروا قدره ويغفروا له عبقرية فقتلوه  
وهو في طريق مآبه إلى الكوفة بعد رحلته المنجّحة إلى شيراز .  
فلم يستفد ممّا تعلّم — رحمه الله — على الكهولة من دبلوماسية المعاملات  
وسياسة الناس كبير فائدة كما ترى .



ولعلَّه كان ينوى العودة إلى حلب ، ولعلَّه إن وصل حلب ربَّما أنْجَحَ  
في هذا العود كما لم يُنْجَحِ في البدء. أمْ لعلَّه كان يملُّها ثمَّ يركب البحر إلى  
الأندلس . وكان شعره قد انعرج انعراجة عجبا في اتجاه جديد إذ كان  
بنارس ... كان منطلقا يعود إلى الذكريات كعودات امرئ القيس إلى (٥)  
عهد طفولته في أمثال قوله :

« يَزِلُّ الْغَلَامُ الْحِفُّ عَنْ صَهْوَاتِهِ وَيَلْتَوِي بِأَثْوَابِ الْعَنِيْفِ الْمَثْقَلِ »

وقوله :

لَمَنْ زُحِّلُوْفَةٌ زُلُّ لَهَا الْعَيْنَانِ تَنْهَلُ  
يَنَادِي الْآخِرَ الْأُلُّ لَا حُلُّوْا إِلَّا حُلُّوْا

هذا والحديث عن أبي الطيب ذو شجون .

وإلى القارئ الكريم بعدُ خواطر وإنَّما هي من باب التأويل والاقتراح  
فأمل أن يجد ذلك لديه بعض القبول — والله المستعان وبه التوفيق وله الحمد  
أولا وأخيرا وصلى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليما .

المؤلِّف  
عبد الله الطيِّب

## (١)

فى شعر أبى الطيب شواهد تدلُّ على أنه هُمَّ باغتياله أو أخذَ عليه الطريق أو أريدت إليه الغوائل وما بمجراها غير مرَّة كقوله : (١)

« يَحْمَى ابنُ كيغْلغ . . . البيت »

فقد ذكروا أنه اعتل عن مدح ابن كيغْلغ لما سأله المديح وذلك قول أبى الطيب « أَرْسَلْتُ تَسْأَلُنِي الْمَدِيحَ سَفَاهَةً » - بحالف ألا يمدح أحداً إلى مدَّة عَيْنِهَا ٢ فأخذ هذا عليه الطريق حتَّى تنتهى تلك المدَّة فاحتال أبو الطيب وهرب من وجهه .

وكقوله يذكر أسدَ الفَراديس :

« أَجَارُكَ يَا أَسَدَ الْفَرَادِيسِ مُكْرَمٌ

فَيَسْكُنُ قَلْبِي أَمْ مُهَانَ فَمُسْلَمٌ

ورائى وقدَّامى عُدَاةً كَثِيرَةً

أَحَازِرُ مِنْ لَصٍّ وَمِنْكَ وَمِنْهُمْ

فَهَلْ لَكَ فِي حِلْفِي عَلَى مَا أَرِيدُهُ

فإنسى بِأَسْبَابِ الْمَعِيشَةِ أَعْلَمُ

إِذَا لَأَتَاكَ الْخَيْرُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ

وَأَثَرِيَتْ مِمَّا تَغْنَمِينَ وَأَغْنَمُ »

ولا يخفى ما فى هذه الأبيات من الشعور العميق بالوحشة مع الطموح المفرط .

وكقوله :

« أَتَانِي وَعِيدُ الْأَدْعِيَاءِ وَأَنْتَهُمُ

أَعْدَاؤِي لِي السُّودَانُ فِي كَفْرِ عَاقِبِ

ولو صدَّقوا فى جدِّهم لحدَّرتُّهم

فَهَلْ فِيَّ وَحْدِي قَوْلُهُمْ غَيْرُ كَاذِبٍ »

وأحسبه مع هذا قد حذرهم إذ قد كان مجبولا على ذلك . وكقوله :

« وَمُنْتَسِبٍ عِنْدِي إِلَى مَنْ أَحْبَبَهُ

وَالنَّبِيلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ حَقِيفُ

فَهَيْجَ مِنْ شَوْقِي وَمَا مِنْ مَذَلَّةٍ حَنَنْتُ وَلَكِنَّ الْكَرِيمَ أَلُوفُ  
وَكُلُّ وِدَادٍ لَا يَدُومُ عَلَى الْأَذَى دَوَامَ وَدَادِي لِلْحُسَيْنِ ضَعِيفُ  
فَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا فَأَفْعَالُهُ اللَّائِي سَرَرْنَ أَلُوفُ  
وَنَفْسِي لَهُ - نَفْسِي الْفِدَاءُ لِنَفْسِهِ - وَلَكِنْ بَعْضَ الْمَالِكِينَ عَنِيفُ  
فَإِنْ كَانَ يَبْغِي قَتْلَهَا يَكُ قَاتِلًا بِكَفِّيهِ فَالْقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ  
وَقِيلَ إِنَّ أَبَا الْعَشَائِرِ غَضِبَ عَلَيْهِ لِأَمْرِ فَأَرْسَلَ غُلَامًا لَهُ لِيَقْتُلُوهُ بِظَاهِرِ  
حَلْبٍ فَرَمَاهُ أَحَدُهُمْ وَقَالَ : خُذْهَا وَأَنَا غُلَامُ أَبِي الْعَشَائِرِ .

وَقِيلَ إِنَّمَا حَدَّثَ هَذَا أَمَامَ بَابِ دَارِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ عَشِيَّةَ يَوْمِ إِنْشَادِهِ :  
«وَأَحْرَقَ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِيمُ وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقِيمُ»  
وَخَبِرَ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ يُوقِفَ عِنْدَهُ .

فَرُبَّمَا كَانَا خَبَرَيْنِ رُويَا كَأَنَّهُمَا خَبَرٌ وَاحِدٌ بِرَوَايَتَيْنِ ، أَحَدُهُمَا أَنَّ أَبَا الْعَشَائِرِ  
هَمَّ بِأَبِي الطَّيِّبِ لِأَسْبَابٍ خَاصَّةٍ بَيْنَهُمَا وَالْآخَرُ أَنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ أَوْ غَيْرَهُ هَمَّ  
بِأَبِي الطَّيِّبِ عَشِيَّةَ يَوْمِ إِنْشَادِهِ الْمِيمِيَّةِ .

وَلَارِيبَ أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ شَمَّ رِيحَ الْمَوْتِ مِنْ تَلْقَاءِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَمَجْلِسِهِ (٣)  
يَوْمَ أَنْ شَدَّهَا - قَالُوا رَمَاهُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ بِدَوَاةٍ وَلَوْ قَدْ تَخَطَّفَتْهُ السُّيُوفُ حِينَئِذٍ  
لِحَازَ عِنْدَهُ . قَالُوا وَرَقَّ لَهُ لَمَّا أَنْشَدَ :

«إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا بِالْجُرْحِ إِذَا أَرْضَاكُمْو أَلَمْ  
وَكُشِفَتْ الصَّحِيفَةُ وَلَمْ يَوْجَدْ بِهَا هَذَا الْبَيْتُ .

وَمَا يَقْوَى حَدُّ سَنَانَا أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ قَارِبَ الْمَوْتِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ ، (٤)  
مَا رَوَوْهُ مِنْ سَعَايَةِ أَبِي الْفَرَجِ السَّامَرِيِّ فِي دَمِهِ وَتَرْخِيصِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ لَهُ فِي  
ذَلِكَ ثُمَّ مَا اضْطَرَّ إِلَيْهِ أَبُو الطَّيِّبِ آخِرَ الْأَمْرِ مِنَ الْإِعْتِذَارِ بِالْبَائِئِيَّةِ :

«أَلَا مَا لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ عِلَاتِيَا فِدَاهِ الْوَرَى أَمْضَى السُّيُوفِ مَضَارِيَا  
أَهَذَا جَزَاءُ الصَّدْقِ إِنْ كُنْتُ ضَادِقًا أَهَذَا جَزَاءُ الْكُذْبِ إِنْ كُنْتُ كَذَابًا  
وَإِنْ كَانَ ذَنْبِي كُلِّ ذَنْبٍ فَإِنَّهُ مَحَالُ الذَّنْبِ كُلِّ الْمَحْوِ مَنْ جَاءَ تَائِبًا»



والأبيات الفائتة أرجح أن يقال إنها متعلقة بخبر الميمية إذ كأنّ أبا الطيّب ينفي فيها أن يكون أبو العشائر هو الذي رام قتله وذلك قوله :  
«وَمُنْتَسِبٍ عِنْدِي إِلَى مَنْ أَحْبَبَهُ وَلِلتَّبَلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ حَفِيفُ»  
والله تعالى أعلم .

وفى البائية التي أنشدها أبو الطيّب كافورا قوله : (٥)  
«وَكَمْ لِيْظْلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تَخْبِرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ  
وَقَالَكَ رَدَى الْأَعْدَاءُ تَسْرِي إِلَيْهِمْ وَزَارَكَ فِيهِ ذُو الدَّلَالِ الْمُحْجَبُ»  
والأعداء هنا سيف الدولة وبطانته بلاريب . بدليل قوله فى الكلمة نفسها :

«وَيَوْمَ كَلَّيْلِ الْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ أَرَأَيْبَ فِيهِ الشَّمْسُ أَيَّانَ تَغْرُبُ» .  
وبعد هذا، الأبيات الرائعة فى وصف الخيل ، الشديدة النظر الى امرئ القيس فى رائيته :

(٦)  
«إِذَا زُعْتُهُ مِنْ جَانِبِهِ كَلَيْهِمَا مَشَى الْهَيْدَبَى فِى دَفْءِهِ ثُمَّ فَرَفَرَا»  
وامرؤ القيس ههنا يمدح حصانا غير عربى ، ونظر إلى ذلك أبو الطيّب من طرف خفى حيث قال :

«وَمَا الْخَيْلُ إِلَّا كَالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ وَإِنْ كَثُرَتْ فِى عَيْنِ مَنْ لَا يُجَرَّبُ  
إِذَا لَمْ تُشَاهَدْ غَيْرَ حُسْنِ شَيْئَاتِهَا وَأَعْضَائِهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ»  
ونسأل بعد من ذو الدلال المحجب— وإن يك يجوز حمل الكلام على العموم ؛  
أى الليل يقيك الأعداء ويزورك فيه الأحباء . ويجوز أنه الحبيب الذى زار  
بمصر وهو غير الذى قال فيها :

(٧)  
«وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِى الظَّلَامِ»  
إلا أن نذهب إلى أن الطيّب عنصر الصدق أبداً أغلب عليه والسياق يدل على  
أنّ الزيارة كانت بعد غروب شمس اليوم الذى كن فيه ، وقوله فى الميمية :

«وَلَوْ كَانَ مَابِي مِنْ حَبِيبٍ مُقَنَّعٍ عَذْرَتْ وَلَئِنْ مِنْ حَبِيبٍ مُعَمَّمٍ  
رَمَى وَاتَّقَى رَمِيٍّ وَمِنْ دُونِ مَا رَمَى

هَوَى كَأَسِرٍ قَوْسِي وَكَفَى وَأَسْهَمِي»  
يقوى هذا ويكون المعمم سيف الدولة أو أبا العشائر والمقنّع مجهولا كما ينبغي.  
وزعم زاعم أنّه خولة أخت سيف الدولة باطل إذ مدح المتنبي لها بأنها بررة  
مأجدة من ذوات البأس والإنعام لا يحتمل كبير تأويل .

«كَأَنَّ فَعْلَةً لَمْ تَمَلَأْ مَوَاكِبُهَا دِيَارَ بَكْرٍ وَلَمْ تَجْلَعْ وَلَمْ تَهَبِ»  
وهذا ليس فيه نفّس من غرام ولا ينبغي له .  
والانصراف بالكلية عنها في أخريات القصيدة إلى خالص الحكمة والتأمل  
يقوى هذا ، وذلك قوله :

«تَحْتَالِفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ لَهُمْ

إِلَّا عَلَى شَجَبٍ وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ

ولعلّ الحبيب المقنّع هو المذكور في اللامية حيث قال أبو الطيّب :

«لَقِيتُ بِدَرْبِ الْقُلَّةِ الْفَجَرَ لُقِيَةً شَفَتْ كَمَدَى وَاللَّيْلُ فِيهِ قَتِيلٌ» (٩)  
وأجمع النقاد على أنّ هذا من محاسن أبي الطيّب وآخر القصيدة بلاريب قوله  
«يَهُونُ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ جُسُومُنَا وَتَسْلَمَ أَعْرَاضُنَا لَنَا وَعُقُولُنَا» (١٠)

وما بعد ذلك إضافات أريد بها إعجاب سيف الدولة أو ترضيته أو شيء من  
هذا الضرب . وقد فطن إلى فساد آخر هذه القصيدة الصاحب كما ذكر صاحب  
التيمة . وسائر القصيدة يغمره المرح والنشوة التي أصاب الشاعر عند درب  
القلّة والله تعالى أعلم .

وفي النونية «بِمِ التَّعَلُّلِ» التي نظمها أبو الطيّب عند كافور ولعلّه (١١)

لم ينشدها إيّاه مرارة ولوم لاذع لسيف الدولة وذلك قوله :

«رَأَيْتُكُمْ لَا يَصُونُ الْعُرْضَ جَارُكُمْ وَلَا يَدْرُ عَلَى مَرْعَاكُمْ اللَّبَنُ  
جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمْ مَدَلٌ وَحَظُّ كُلِّ حُبٍّ مِنْكُمْ ضِغْنٌ»  
وإنّ صحّ ما ذكروه من أنّ ابن خالوية شجّه بفتح مفتاح في مجلس  
سيف الدولة فهو ونحوه مما يبرر هذه المرارة .

وإنَّ صحَّ قول ابن رشيِّق أنَّ الهجاء بالتلميح أوجع من الهجاء بالتصريح  
فلاريب أنَّ هذا أوجع من كلِّ ماهجا به أبو الطيب كافورا . وشعر أبي  
الطيب في كافور سمح جزل منطلق يدلُّ على حبِّ كان له منه وإعجاب به—  
ويدلُّك على إعجاب أبي الطيب بكافور قوله :

« فَوَافَتْ بِنَا إِنْسَانَ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بَيَاضًا خَلْفَهَا وَمَاقِيَا »  
وقوله :

« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنْ مِصْرَ إِلَى عَدَنَ إِلَى الْعِرَاقِ فَأَرْضِ الرُّومِ فَالنُّوبِ  
لِذَا أَتَتْهَا الرِّيَّاحُ الذُّكْبُ مِنْ بَلَدٍ فَمَا تَهْبُّ بِهَا إِلَّا بِتَرْيِبِ » (١٢)  
وقوله :

« وَيُغْنِيكَ عَمَّا يَنْسِبُ النَّاسُ أَنَّهُ إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ  
وَالْعُقْدَةُ النَّسَبِيَّةُ كَانَتْ عِنْدَ الْمُتَنَبِّى لِبَدَاوَتِهِ لَا عِنْدَ كَافُور . ولا شيء أكثر (١٣)  
انطلاقا وإسماحا من قول أبي الطيب :

« إِذَا سَارَتْ الْأَحْدَاثُ فَوْقَ نَبَاتِهِ تَفْأَوَّحَ مِسْكُ الْغَانِيَّاتِ وَرَنَدُهُ »  
وقوله :

« وَكُلُّ أَمْرٍ يُؤَلِّى الْجَمِيلَ مُحِبِّبٌ وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ الْعِزَّ طَيِّبٌ  
أَبَا الْمِسْكِ هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَا لَهُ فَإِنِّي أَغْنَى مِنْذُ حِينَ وَتَشْرَبُ  
وفي هذا العتاب نَفَسُ النُّكْتَةِ الْمِصْرِيَّةِ وَأُرِيحَتِهَا كَمَا لَا يَخْفَى . ولا أكاد  
أشكُّ أنَّ أبا الطيب رضى مصر وأحبَّها وما كان يسعه غير هذا ثمَّ إنَّ  
نفسه البدويَّة نفرت عمَّا لذَّها بمصر من النعمة وهذا قوله :

« ذَرَيْتَنِي وَالْفَلَاةَ بِلَا دَلِيلٍ وَوَجَّهْتَنِي وَالْهَجِيرَ بِلَا لِيثَامٍ  
فَإِنِّي أَسْتَرِيحُ بِبَذَى وَهَذَا وَأَتَعَبُ بِالْإِنَاخَةِ وَالْمُقَامِ »  
ثم يقول :

« يَقُولُ لِي الطَّيِّبُ أَكَلْتُ شَيْئاً وَدَاوُلُكَ فِي شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ  
وَمَا فِي طَبِّهِ أَنَّى جَوَادٌ أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طَوْلُ الْجِمَامِ »

فعلى طول الحمام والخفض والنعمة ثار ، ومن أولئك نَفَر... وقد زعم أبو العلاء  
عن نفسه إنه كان « إنسى المولد وحشى الغريزة » وقد كان رحمه الله إنسى  
المولد إنسى الغريزة وكان صاحبه أبو الطيب وحشيتها وحشى المولد .  
ومما يدلُّك على إخلاص أبي الطيب مديح كافور ضعف اللامية التي  
مدح بها فاتكا :

« لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالٌ »

إذ ليس فيها نَفَسُ أبي الطيب وروحه الذي نعلم وانما هي صوغ محكم .  
وكأن أبا الطيب رأى قبيحا به ألا يجزى فاتكا على إحسانه إليه فاستأذن فى  
ذلك كافورا كما ذكروا ، فأذن له :

« فَرَبَّمَا جَزَتْ الْإِحْسَانَ مُوَلِيَّهِ خَيْرِيْدَةً مِنْ عِنْدَ أَرَى الْحَيِّ مَكْسَالٌ »  
وترك الجزاء قبيح ، وترك القبيح مجاملة ، أو كما قال رحمه الله :

« إِنَّا لَنَمِى زَمِنٍ تَرَكَ الْقَبِيحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالٌ »  
وكذلك المريثة التي رثاه بها ، وأبلغ ما فيها صفة الهرمين ، والميمية التي أولها :

« حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِى النَّجْمَ فِي الظَّامِ » (١٤)

إنما جاء فيها اسم فاتك اتفاقا أو قل كأن رَمَزَ به المتنبي لنفسه ، وهى من قرى : (١٥)

« مَلُومُكُمْ مَّا يَجِلُّ عَيْنِ الْمَلَامِ »

تبرير للبداوة والانطلاق

وإنما كان هجاء أبي الطيب كافورا ضربا من الغضب على نفسه  
والتبرير لطبعه . ولا يخفى أن أجود ما فى الدالية :

« عِيدٌ بِأَيَّةٍ حَالٍ عَدْتُ يَا عِيدُ »

الغناء الذى فى أولها . وقد كان كافور قديرا على رده من أقصى حدود  
مصر لو قد أراد .

وأجود ما فى المقصورة « أَلَا كُلُّ مَاشِيَةٍ الْخَيْرُ لَسَى » نعت الطريق

والسبب الذي سببه كافورا ليس ببالغ جودة جيده بحال، وذلك منبى أن لم يندفع عن سينخ شاعري حقاً كالشكوى التي في البائية مثلاً .

وقد وجد أبو الطيب عند عضد الدولة من النعمة قريباً مما وجد عند كافور، وأعفى طبعه كما قال، فنظم بلا تكلف ولم يتشك ولم يتعتب عند عضد الدولة الذي صحّ عنده أنه بعد أن طبق صيته الآفاق قد جاوز مرتبة أن يطلب ولاية أو ضيعة .

وقد نبه الدكتور طه في كتابه مع المتنبي إلى صفة نادرة من الانطلاق المحض واليسر المنفسح والخيال الجموح أفادها شعر أبي الطيب بفارس، ومثل لها بكلمته في مشطور الرجز « مَا أَجْدَرَ الْأَيَّامَ وَالليَالَى » وقد يضاف ههنا أن ما كان في شعر أبي الطيب من عنصر الشكوى المرقد آض بعد أن دخلته هذه الصفة روحاً من الحزن خفي المدخل كالذي في كلمته :

« يَقُولُ بِشَعْبِ بَوَّانٍ حِصَّانِي      أَعَنُ هَذَا يُسَارُ إِلَى الطَّعَّانِ  
أَبُوكُمْ أَدَمُ سَنَ الْمَعَاصِي      وَعَلَّامَكُمْ مُمَارَقَةَ الْجِنَانِ »  
فهذا فيه من التعلق بالحياة والأسى على فواتها شبيه بما في قوله :  
« حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِي النَّجْمَ فِي الظُّلَمِ »

وقوله :

« وَمَرَادُ النَّفُوسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ      نَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ نَتَفَانِي »

وقوله :

« لَيْتَ الْحَوَادِثَ بَاعَتْنِي الَّذِي أَخَذَتْ »

مِنِّي بِحِلْمِي الَّذِي أَعْطَتْ وَتَجَرَّيْبِي »

وفيه أيضاً استسلام للمأساة إذ مفارقة الجنان كتاب كان على ابن آدم لا يستطيع عنه مصرفاً . والحق صفة الانطلاق المحض هذه مع اليسر وفيض خيال أفادها المتنبي قبل فارس بمصر ، وشعب بَوَّانٍ على روعته لا يخلو من أن يكون كنى به عنها وقد لاحقه منها خيال إلى النوبندجان ، إلى دمشق (١٦)



.. لَسِيَّيقِ الثَّرْدِ صِينِيَّ الْجَفَنَانِ

بِلَنْجُوجِيٍّ مَارْفَعَتُ لَضِيْفِ

بِه النَّيْرَانُ نَدَى الدَّخَانِ

« قَلَّ لَدُّ كَافُورٍ وَعَقِيَانُهُ الَّذِي بَصُمُ الْقَنَا لَا بِالْأَصَابِعِ نَقْدُهُ (١٧)  
نَجْرُ الْقَنَا الْخَطِيَّ حَمُولَ قِيَابِهِ وَتَرْدَى بِنَا قُبُّ الرِّبَاطِ وَجَرْدُهُ  
وَمَتْنَحْنُ النَّشَابِ فِي كُلِّ وَابِلٍ دَوَى الْقَسِيَّ الْفَارَسِيَّةَ رَعْدُهُ  
وَأَتَعَبُ خَلَقَ اللَّهُ مِنْ زَادَ هَمُّهُ وَقَصَّرَ عَمَّا تَشْتَهَى النَّفْسُ وَجَدُهُ  
يَسْرَى جِسْمَهُ يَكْسَى شَفُوفًا تَرْبُهُ فَيَخْتَارُ أَنْ يَكْسَى دُرُوعًا تَهْدُهُ »  
وهذا كقوله :

(١٨) « وَعَلَمَكُمُ مُفَارِقَةُ الْجِنَانِ »

وليس كقوله آنفا عند سيف الدولة :

« وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا »

لأنه كما ترى يروم ههنا قيد الإحسان فلا يستطيع إليه سبيلا

قال الثعالبي في اليتيمة « لما أنجحت سفرتي وربحت تجارتها بحضرة  
عضد الدولة ووصل إليه أكثر من مائتي ألف درهم استأذنه في المسير منها  
ليقضى حوائج في نفسه ثم يعود إليها ، فأذن له ، وأمر بأن تخلع عليه الخلع  
الخاصة » إلى أن قال : « فلما فارق أعمال فارس حسب أن السلامة تستمر  
به كاستمرارها في مملكة عضد الدولة ولم يقبل ما أشير به عليه من الاحتياط  
باستصحاب الخفراء فجري ما هو مشهور من خروج سرية من  
الأعراب عليه ومحاربتهم إيَّاه وتكشف الواقعة عن قتله وابنه محسّد ونفر من  
غلمانهم وفاز الأعراب بأمواله وذلك في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة . »

ونقف عند قول الثعالبي « فجري ما هو مشهور . . الخ » ومع شهرته  
لأنه يرى عمّن تلقاه راووه . فمنهم قائل إن فاتكا الذي عرض لأبي الطيّب  
في جماعة من الأعراب ، فعل ذلك غضبا من بائيته التي هجا بها ضبّة — قال  
العكبري « وقال يهجو ضبّة بن يزيد العيني وصرّح بتسميته فيها لأنه كان

لا يفهم التعريض ، كان جاهلا ، وهذه القصيدة من أردأ شعر المتنبي ؛  
وكان العكبري قد غفل أن من مذهب البسداوة في الإفحاش بعض هذا  
وما يقاربه كالذي كان يقع عند الفرزدق وجرير مثلا .  
ومن قائل أن أبا الطيب فرّ وذكره غلامه قوله :

« الخيل والليل والبيداء تعرفني ... » (١٩)

فثبت وقتيل أو قال للغلام قتلتي أو شيئا من هذا المعنى . وإن صحّ هذا  
الخبر فهو أشبه بما اعتاده أبو الطيب من الاستعداد للخاربين والإفلات منهم  
ولعله نجا من هذا الذي ذكروا أن اسمه فاتك ثم أصيب من بعد ، فكلهم  
مجمعون أنه قد قتل بدير العاقول ، وهو بسواد بغداد ، ولا يعقل أن يكون  
اعتراض الأعراب لأبي الطيب قريبا من بغداد . وأرجح من ذلك أن يكون  
الأعراب قد لفقوه بعيدا عنها ، ولما أفلت بعد قتال ما ، أمن إلى النجاة  
وحسب أن السلامة تستمر به من بعد على حدّ تعبير الثعالبي . ولكنّ الذين  
أغروا به الأعراب ليقتلوه يبدو أنهم أيضا قد أوكلوا به آخرين يراقبون  
مقدمه عند دير العاقول أو قل خارج بغداد غير جسد بعيد منها . فلما  
رأوه قادما مطمئنا قد نجا رموه بسهم وانتهبوا ماله .

ولا يستبعد أن يكون سيف الدولة قد كان وراء جميع ذلك التدبير .  
فقد ذكروا أنه كان يغضبه أن يطول سكوت المتنبي عن مدحه . قال العكبري  
في تقديم الميمية :

« وأحرّ قلباه ممّن قلبه شيم »

« وأنشدها في محفل من العرب وكان سيف الدولة إذا تأخر مدحه شقّ  
عليه وأحضر من لاخير منه وتممّدّم إليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب وأكثّر  
عليه مرّة بعد مرّة » أ . ه . كلام العكبري . فكيف إذا انصرف عنه بالكلية  
ومدح سواه — وقد رأينا كيف حدّره أبو الطيب وفرّ منه فرارا لا هوادة فيه ،  
وذلك قوله :

« فله سيري ما أقلّ ثيئة عشيّة شرقيّ الحدّآلى وغربّ (١) »

(١) الحدّآلى موضع بالشام وغربّ اسم جبل فيه .

«عَشِيَّةَ أَحْفَى النَّاسِ بِي مَنْ جَفَوْتُهُ وَأَهْدَى الطَّرِيقِينَ الَّتِي أَتَجَنَّبُ»  
وقد أهدى إليه وهو بالكوفة وشكره أبو الطيب بلاميته التي مطلعها:  
«مَالِنَا كُلُّنَا جَوَّ يَارَسُولُ» (٢٠)

وهي على جودتها لا يخفى ما في جملتها من تكرار المعاني والنعيمات  
اللاء في السيفيات من غير التوتّر والانفعال الذي في السيفيات — البعد  
الزمني والمكاني والنفس عن سيف الدولة كل ذلك واضح الطابع فيها:  
«وَمَعَى أَيُّنَمَا سَلَكَتُ كَسَانِي كُلُّ وَجْهٍ لَهُ بَوَجْهِي كَسْفِيلُ  
فَرَسٌ سَابِقٌ وَرُمَحٌ طَوِيلٌ وَدِلَاصٌ زَغْفٌ وَسَيْفٌ صَقِيلٌ  
وَسِوَى الرُّومِ خِلَافَ ظَهْرِكَ رُومٌ فَعَلَى أَيِّ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ  
مِنْ عَيْبِيدِي إِنْ عِشْتُ لِي أَلْفُ كَافٍ رُولِي مِنْ نَدَاكَ رِيفٌ وَنِيلٌ»  
وهيهات وإنّما هذا اعتذار وتنصّل وهو بعد القائل :

«قَوَاصِدُ كَافُورٍ تَوَارِكُ غَيْرِهِ وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَ السَّوَابِقِ  
فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانٌ عَيْنَ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بَيَاضاً خِلْفَهَا وَمَاقِيَا»  
والآيات التي في أوائل نسيب هذه اللامية ، وذلك قوله :

«مَالِنَا كُلُّنَا جَوَّ يَارَسُولُ أَنَا أَهْوَى وَقَلْبُكَ الْمُتَبُولُ  
كُلُّمَا عِمَادَ مَنْ بَعَثْتُ إِلَيْهَا غَمَارَ مَنَى وَخَرَانٍ فِيمَا يَقُولُ  
أَفْسَدَتْ بَيْنَنَا الْمَوَدَّاتِ عَيْنَاهَا وَخَانَتْ قُلُوبُهُنَّ الْعُقُولُ  
صَحَبْتَنِي عَلَى الْفَلَاحِ فَتَنَاهُ عِمَادَةُ اللَّونِ عِنْدَهَا التَّبْدِيلُ» (٢١)  
مِثْلُهَا أَنْتِ أَوَّحْتَنِي وَأَضْنَيْتِ وَزَادَتْ أَبْهَاسُهَا كَمَا الْعُطْبُولُ  
تنظر إلى «آيَالِيَّ بِعَدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ» وكأنّ المعاني التي يتغنى بها ههنا  
أصداء من المعاني التي تغنى بها هناك ولعلّ رسولها ههنا الشمس كما قال ثم :  
«وَيَوْمٌ كَانَ الْحَسَنَ فِيهِ عَلَامَةٌ بَعَثْتُ بِهَا وَالشَّمْسُ مِنْكَ رَسُولُ» (٢٢)  
والشمس ههنا غَيْرِي لأنّ المحبوبة أبهى منها . وغير خاف أن روح  
المرح ههنا كأنّما هو أيضا صدى من روح المرح الذي أشاعه لقاءه المحبوبة

إذ لقيها بدرب القلّة . وهناك ومن بعض شواهدہ لما أخذ في صفة الغزاة :

« رَمَى الدَّرْبَ بِالْجُرْدِ الْجِيَادِ إِلَى الْعَدَا

وَمَاءَ عِلْمُوا أَنَّ السَّهَامَ خِيُولُ

شَوَائِلَ تَشْوَالِ الْعُقَارِبِ بِالْقِنَا

لَهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِ وَصَهِيلُ »

وقد نبّه الدكتور طه إلى بعض هذا في حديثه عن هذه القصيدة الرائعة

في كتابه مع المتنبي .

هذا ، قالوا وكتب إليه سيف الدولة من بعدُ يستدعيه فكان جواب

أبي الطيّب أن قال :

« فَهَيْمْتُ الْكِتَابَ أBRَ الْكِتَبِ

فَسَمِعًا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبِ »

ولم يسمع شيئاً .

« وَمَالَا قَنِي بِلَدٍ بَعْدَ كُمْ وَلَا أَعْتِضْتُ مِنْ رَبِّ نِعْمَايَ رَبِّ

وَمَنْ رَكِبَ الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوَا دَ أَنْكَرَ أَظْلَافَهُ وَالْغَيْبُ

وَمَا قَسْتُ كُلَّ مَلُوكِ الْبِلَادِ فَدَعَّ ذَكَرَ بَعْضٍ بِمَنْ فِي حَلْبِ »

ولكنّه ذهب بعدُ يقيس ولقي عَضْدَ الدّولة وقال فيه :

« وَقَدْ لَقِيتُ الْمُلُوكَ قَاطِبَةً وَسِرْتُ حَتَّى لَقِيتُ مَوْلَاهَا

أَبَا شُجَاعٍ بِفَارَسٍ عَضْدَ الدّولة فَنَاحُسُرُ وَشَهَنشَاهَا

أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَدَّةٌ ذَكَرْنَاهَا »

وقد ذكروا أنّ سيف الدولة تعجّب أن كان أبو الطيّب قد جعله في

جملة رعايا عضد الدولة .

وفي هذه القصيدة ذكر أبو الطيّب الشام . وحنّ إليه وذكر شاميّة

لعلّها هي أيضا صدىً من صاحبة درب القلّة ، وذلك قوله :

« شَامِيَّةٌ طَالَمَا خَلَوْتُ بِهَا تُبْصِرُ فِي نَاطِرِي مُحْيَاها »

فَقَبَّلْتُ نَاطِرِي تُغَالِطُنِي      وَإِنَّمَا قَبَّلْتُ بِهِ فَاَهَا (٢٣)  
 مَا نَفَضْتُ فِي يَدِي غَدَائِرُهَا      جَعَلْتُهُ فِي الْمُسْدَامِ أَفْوَاهَا  
 فِي بَالِدٍ تُضْرِبُ الْحِجَالَ بِهِ      عَلَى حِسَانٍ وَلِسَنٍ أَشْبَاهَا  
 لَيْقِينَنَّا وَالْحُمُولُ سَائِرَةٌ      فِيهِنَّ دُرٌّ قَدْ بُدِنَ أَمْوَاهَا (٢٤)

وهذا قريب من قوله «لها بَشَرُ الدُّرِّ الَّذِي قُلِّدْتُ بِهِ»

كُلُّ مَهْمَاةٍ كَأَنَّ مُقْلَتَيْهَا      تَقُولُ إِيَّاكُمْ وَإِيَّاهَا  
 فِيهِنَّ مَنْ تَقَطَّرُ السَّيُوفُ دَمًا      إِذَا لِسَانُ الْمُحِبِّ سَمَّاهَا  
 أَحَبُّ حِمَصًا إِلَى خُنَاصِرَةٍ      وَكُلُّ نَفْسٍ تُحِبُّ حَيَّاهَا  
 حَيْثُ التَّقَى خَدُّهَا وَتُفَاحُ لُبِّ      نَانَ وَتَغْرِي عَلَى حُمَيَّاهَا  
 وَصِفْتُ فِيهَا مَصِيفَ بَادِيَةٍ شَتَوْتُ      بِالصَّحْصَحَانِ مَشْتَاهَا  
 إِنَّ أَعَشَيْتُ رَوْضَةً رَعَيْنَاهَا      أَوْ ذَكَرْتُ حِلَّةً غَزَوْنَاهَا  
 أَوْ عَمِرْتُ عَيَانَةً مَقْرَعَةً      صَدَدْنَا بِأَخْرَى الْجِيَادِ أَوْلَاهَا (٢٥)  
 أَوْ عَمِرْتُ هَجْمَةً بِنَا تَرَكْتُ      تَكْوُسُ وَسَطَ الشَّرُوبِ عَقْرَاهَا  
 وَالْحَيْلُ مَطْرُودَةٌ وَطَارِدَةٌ      تَجْرُّ طَوْلَى الْقَنَا وَقَصْرَاهَا

ومع هذا فضل عَصْدَ الدولة ، وذلك قوله :

«وَقَدْ رَأَيْتُ الْمُلُوكَ قَاطِبَةً      وَسِرْتُ حَتَّى رَأَيْتُ مَوْلَاهَا  
 أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَصْدَ الدَّوْلَةِ      فَذَاخُسُ رُوشَاهُنَّ شَاهَا  
 أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً      وَإِنَّمَا لَذَّةٌ ذَكَرْنَاهَا»

وما أحسب أن سيف الدولة وقد بلغه هذا وعَلَّقَ عليه إن صحَّ ما رَوَوْهُ من قوله «تَرَى هل نحن في الحملة ؟» قد غفر لأبي الطيب ، فقد كان ربَّ نِعْمَاه .

ولاشكَّ قياساً على الَّذِي ذَكَرُوا من غضبه عليه حين تأخر مدحه عنه ، أن يكون رأى أنه قد خانته بالصيرورة إلى كافورٍ فعَصَدِ الدولة .



وقد كان رفض أبي الطيّب الاستجابة إلى دعوته آخر الأمر هو  
القاضية ، وما كان ليعسر من بعد على أعداء أبي الطيّب بحلب أن يتصلوا  
بأعدائه في بغداد وتمّ المؤامرة وقديما قد قال :

«إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدِرُوا أَلَّا تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمْ  
لَنْ تَرَكْنَ ضُمِيرًا عَنْ مِيَامِنَا لِيَحْدُثَنَّ لِمِنْ وَدَّعْتُهُمْ نَدَمٌ»  
أو «لسيف الدولة الندم» كما روى بعضهم — فهل كان ذلك الندم  
قبل دَيْرِ العاقول أو بَعْدَهُ — الله أعلم أيُّ ذلك كان .

## (٢)

قال أبو منصور الثعالبي « كان الصّاحب يقول بُدِءَ الشعر بملك وختم بملك ، يعنى امرأ القيس وأبافراس . »  
وأحسب أن الصّاحب قال ذلك يعنى امرأ القيس وأبا الطيّب إذ كلاهما من كندة وكلاهما طلب الملك وأخفق .

وقال الثعالبي يذكر أبا فراس : « وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز ويتحامى جانبه ولا ينبرى لمباراته ولا يجترىء على مجاراته . وإنما لم يمدحه ، ومدح من دونه من آل حمدان ، تهيئاً له وإجلالاً ، لا إغفالاً وإخلالاً . وكان سيف الدولة يُعجب جداً بمحاسن أبي فراس ويميّزه بالإكرام عن سائر قومه ويصطنعه لنفسه ويصطحبه في غزواته ويستخلفه على أعماله وأبو فراس ينشر الدرّ الثمين في مكاتباته إياه ويؤفيه حق سُؤدُدِهِ ويجمع بين أدبيّ السيف والقلم في خدمته » ا . هـ .

وجليّ أن هذا لا يستقيم مع زعم من زعم أن أبا الطيّب إنما إياه أراد بقوله في الميمية :

« أعيذُهما نَظَرَاتِ مُنْكَ صَادِقَةً »

أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ »

وقد يذكر أنه كان في الذين أغرّوا به سيف الدولة حين أنشده القصيدة التي منها هذا البيت وأولها :

« وَاحِرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِيمٌ وَمَنْ يَجْسِمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ »

وفي النفس بعد من تراجم أبي منصور لأبي الطيّب وسيف (١) الدولة وأبي فراس خاصة شيء كثير ولعلّه رحمه الله راقب بعض رجالات

عصره في الذي كتب ، من أمثال الصاحب والشريفين الرضى والمرضى . .  
وروايته أخبار سيف الدولة ، عن طريق ابن خالويته ، وكان من خصوم  
المتنبي كما تعلم ، ميمًا قد يرجح هذا الحدس .

وقال أبو الطيب :

«أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضَبْنِي شُويعِرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِنِي قَصِيرٌ يُطَاوِلُ»  
لِسَانِي بِنُطْقِي صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ

وَقَلْبِي بِصَمْتِي ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلٌ  
وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تَجِيبُهُ

وَأَغْيِظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُ

وهذا إغفال كما ترى .

فليت شعري هل أراد أبو منصور أن ينفي عن أبي فراس أنه بعض  
من كان عنه هذا الإغفال . . أنه مثلا هو الشويعر الذي كان تحت ضبن أبي  
الطيب ؟

تأمل مقال أبي منصور : «تهيبًا وإجلالًا لا إغفالًا وإخلالًا» ولم يكن  
رحمه الله يجهل أن التهيب والإجلال ليسا من خلق أبي الطيب وأن الإغفال  
والإهمال ربما كانا من خلقه ، يدلُّك على هذا أنه عقد فصلا في ترجمته له  
أسماء «إساءة الأدب بالأدب» واستشهد على بعضه بقوله في مراثيته لأخت  
سيف الدولة :

«وَهَلْ سَمِعْتَ سَلَامًا لِي أَلَمْ يَهَا فَتَقْدُ أَطَلْتُ وَمَا سَلَّمْتُ مِنْ كَثَبٍ»  
ثم علق قائلا : «وما باله يسلم على حرَمِ الملوك ويذكر منهن ما يذكر  
المتغزل . . . الخ» .

ثم لما عرض لمحاسن أبي الطيب ذكر منها «مخاطبة الممدوح من الملوك  
بمثل مخاطبة المحبوب والصديق مع الإحسان والإبداع وهو مذهب تفرد به  
واستكثر من سلوكه اقتدارا منه وتبحرًا في الألفاظ والمعاني ورفعًا لنفسه عن  
درجة الشعراء وتدرجًا خا إلى مماثلة الملوك . . . الخ» .

وقال بعد استشهاده في آخر هذا الفصل بثمانية عشر بيتا من الميمية ،

يعلّق عليها في جملتها : « وهي على براعتها واستقلال أكثر أبياتها بأنفسها (٢) تكاد تدخل في باب إساءة الأدب بالأدب ، وقد تقدّم ذكره » ا . ه .  
هذا وفي قوله أبي الطيّب :

« وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تُجِيبُهُ »

وَأَغَيَظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُهُ  
كالإشارة الخفية أو التعريض إن صحّ هذا والذي يذكرونه من أن أبا فراس كان من المحرّضين عليه المتحرّشين به في مجلس سيف الدولة يوم أنشد الميمية . وكأنّه الحاسد المراد بقوله :

« إِن كَانَ سِرَّكُمْ مَا قَالَحَاسِدُنَا فَمَا لَجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ »  
ولعلّ أبا فراس كان يُدلّ على أبي الطيّب بقرباته من سيف الدولة ويتهّمه بما يزيد هذا إلّا إعراضاً عنه وإهمالاً له وعلى هذا المعنى يستقيم تأويل قوله :

« وَمَا التَّيِّهُ طِبِّي فِيهِمْ غَيْرَ أَنْتِي بَغِيضٌ إِلَى الْجَاهِلِ الْمُتَعَاقِلِ »  
ثم يقول يخاطب سيف الدولة :

« وَأَكْبَرُ تِيهِي أَنْتِي بِيكَ وَاثِقٌ » وَأَكْبَرُ مَا لِي أَنْتِي لَكَ آمِلُ  
لَعَلَّ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْقَرْمُ هَبَّةٌ يَعِيشُ بِهِمَا حَقٌّ وَيَهْلِكُ بِطَائِلُ  
ولكن سيف الدولة القرم ، كان ينصر قراباته على شاعره ، وقد تعلّم كيف أوشك أن يبطش به يوم الميمية والذي روى من ترخيصه للسامري أن يسعى في دمه وقد شجّه ابن خالويه بمرأى منه وفي حضرته حتّى قال لما رأى جفاء الأمير وخاف سوء المصير :

« إِن كَانَ سِرَّكُمْ مَا قَالَحَاسِدُنَا فَمَا لَجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ »  
وكان قد قال من قبل :

« أُعِيدُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحَّمَهُ وَرَمَ »  
ثم قال بعد أن نجا من حلب وغادر مصر وصار إلى الكوفة وأتته رسائل سيف الدولة ورسله ليعود :

«وَمَا عَاقَبَنِي غَيْرُ قَوْلِ الْوُشَاةِ وَإِنَّ الْوَشَايَاتِ طُرُقَ الْكَذِبِ  
وَتَكْثِيرُ قَوْمٍ وَتَقْلِيلُهُمْ وَتَقْرِيبُهُمْ بَيْنَنَا وَالْحَبِيبِ  
وَقَدْ كَانَ يَنْصُرُهُمْ سَمْعُهُ وَيَنْصُرُنِي قَلْبُهُ وَالْحَسَبُ»

أى كان يسمع شعري فيطرب وينصُرني بهواه وقلبه أريحيةُ حسبه  
البدوى ثم يسمع منهم ويفكر ويُقدِّر فينصرهم من بعد، يرى أن ذلك هو  
الرأى والحزم والسياسة والعصبيّة وهلمَّ جرّاً .

وكان أبو الطيّب يُنشِد في حضرة سيف الدولة جالسا وكأن ذلك منه قد  
كان طرحا للكُلفة وإظهاراً للألفة وأنسا بالقرب ، غير أن الجلوس قد كان  
ولازال عند أهل المشرق من سمت المغنين . ولعلَّ أبا الطيّب رحمه الله كان  
يترنم ويتغنى إذا أنشد فقد رُوِيَ أنه كذلك كان يصنع شعره .

وما كان المغنى مهما يُكرم عند سيف الدولة ويكُ من مراتب أهل  
الفضل ببالغ قَدَر من يكون ابن عم له من بنى حمدان أنفسهم صليبةً .  
ولعلَّ أبا الطيّب كان يشير إلى بعض هذا المعنى في قوله :

«مَا كَانَ أَخْلَقْنَا مِنْكُمْ بِتَكْرِمَةٍ لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِنْ أَمْرِنَا أَمَمٌ» (٣)  
وهيهات ليس بأَمَمٍ أمرُ الجهلاء من أمر العلماء وتلك هى المأساة  
ولا ينبئك مثل خبير .

ولما صار رحمه الله إلى الأمير الفطن كافور لم يكن ينشد إلا واقفا  
وقيل اشترط عليه ذلك والله أعلم . والوقوف من سمت الخطيب . وفى فطنة  
كافور يقول أبو الطيّب وهو صادق :

«أَقِيلُ سَلَامِي حُبَّ مَا خَفَّ عَنْكُمْ»

وَأَسْكُتُ كَيْمًا لَا يَكُونُ جَوَابُ (٤)  
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ سَكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ  
وما زعمه الثعالبي من أنَّ أبا الطيّب لم يكن ينبرى لمباراة أبا فراس  
صحيح إذ لم تكن به إلى ذلك حاجة . ولكنَّ أبا فراس كان يبارى أبا الطيّب



ويجترى على مجاراته ، قال أبو منصور الثعالبي في اليتيمة في معرض ترجمته لسيف الدولة : « وكان سيف الدولة اصطنع بني كلاب وأدناهم وأمن سريهم فقهروا العرب إلى أن بدت منهم جفوة أحفظته فأسرى إليهم وأوقع بهم وملك حرمهم وأموالهم ثم صفع عنهم » إلى أن قال : فقال أبو الطيب - واستشهد بآيات من بآيته في ذلك ثم قال : « وكتب إليه أبو فراس في تلك الحال يداعبه » . وذكر آياتا في نفس المعنى . وهذا في المحاكاة والمجاراة نص كما ترى .

قال أبو الطيب يذكر نساء بني كلاب :

« فَعِدْنِ كَمَا أَخَذْنَ مُكْرَمَاتٍ عَلَيْهِنَّ الْقَلَائِدُ وَالْمَلَابُ » (٥)  
الملاب ضرب من الطيب .

« يَثْبِنُكَ بِالَّذِي أُولَيْتَ شُكْرًا وَأَيْنَ مِنَ الَّذِي تُؤَلِي الثَّوَابُ  
وَلَيْسَ مَصِيرُ هُنَّ إِلَيْكَ شَيْنًا وَلَا فِي صَوْتِهِنَّ لَدَيْكَ غَابُ  
وَلَا فِي فَقْدِهِنَّ بَنَى كِلَابُ إِذَا أَبْصَرْنَ غُرَّتَكَ اغْتِرَابُ »

وقال أبو فراس أو كتب كما قال الثعالبي :

« وَمَا زِلْتَ مُذْ كُنْتَ تَأْتِي الْجَمِيلَ وَتَحْمِي الْحَرِيمَ وَتَرَعِي الْحَسَبُ  
وَتَغْضَبُ حَتَّى إِذَا مَا مَلَكَتْ أَطَعْتَ الرِّضَا وَعَصَيْتَ الْغَضَبُ  
فَكُنْتُ حِمَاهُنَّ إِذْ لَاحِمِي وَكُنْتُ أَبَاهُنَّ إِذْ لَيْسَ أَبُ  
فَوَلَّيْنِ عَنْكَ يَفْدَيْنَهَا وَيَرْفَعْنَ مِنْ ذَيْلِهَا مَا نَسَحَبُ »  
وهذا يشير به إلى إحداهن وقد كان بني هذه الأبيات عليها من أولها حيث قال :

« وَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ يَوْمَ الْمَغَارِ مُحْجَبَةً لَفَظْتُهَا الْحُجْبُ »

وهذه هي المداعبة التي عنى الثعالبي وقوله « لفظتها الحجب » قبيح (٦) جاس . ثم مأخذ فيه من بعد غير خارج عن معنى أبي الطيب « فعدن كما أخذن » وقوله « يثبنك بالذي أوليت » يتضمن روح الحوار كما ترى . والمقام

لا يقتضى التفصيل . ولا يخلو قول أبي منصور « يداعبه » من نوع مأخذ على أبي فراس .

وقال أبو فراس وهو أسير بأرض الروم :  
« مُصَابِي جَلِيلٌ وَالْعَزَاءُ جَلِيلٌ وَظَنَنْتِي بَأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدِيلُ »  
وذلك كان بعد ارتحال أبي الطيب وجلى أنه هنا يجارى قصيدة أبي الطيب :

« لَيَالِيَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولٌ طِيَالٌ وَلَيْلُ الْعَاشِقِينَ طَوِيلٌ »  
وفى شعره ما يدل على أنه قد نظر إليها مرارا من قبل .

وقد اختصر الثعالبي معاني « لَيَالِيَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولٌ » حيث عرض لذكر غزوات سيف الدولة ، قال « ويقال إن سيف الدولة غزا الروم أربعين غزوة له وعليه إلى آخر مقاله » ثم أشار إلى ما كان من فرار الدمستق وأسر ابنه قسطنطين ، « وعبر سيف الدولة الفرات إلى بلد الروم ولم يفعله أحد قبله حتى أغار على بطن هنريط » ثم استشهد بأبيات من الدالية « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا » من ذلك قوله :

« قَوْلِيَّ وَأَعْطَاكَ ابْنَهُ وَجِيُوشَهُ جَمِيعًا وَلَمْ يُعْطِ الْجَمِيعَ لِيُحْمَدَا  
وَمَا طَلَبَتْ زُرْقُ الْأَسِنَّةِ غَيْرَهُ وَلَكِنْ قُسْطَنْطِينَ كَانَ لَهُ الْفِدَا »  
والحديث عن الدمستق . وأتبع ذلك أبياتا رائية من شعر أبي فراس :  
« وَآبَ بِقُسْطَنْطِينَ وَهُوَ مُكَبَّلٌ تَحْفُ بِطَارِيقٍ بِهِ وَزَرَّازِرُ »  
وَوَلَّى عَلَى الرَّسْمِ الدُّمُسْتَقُ هَارِبًا

وَفِي وَجْهِهِ عُدْرٌ مِنَ السَّيْفِ عَاذِرُ  
فَدَى نَفْسَهُ بِابْنٍ عَلَيْهِ كَنَفْسِهِ

وَلِلشَّدَةِ الصَّمَاءِ تُقْنَى الذَّخَائِرُ  
وَقَدْ يُقْطَعُ الْعُضْوُ النَّفِيسُ لغيره

وَتُدْفَعُ بِالْأَمْرِ الْكَبِيرِ الصَّغَائِرُ

ولم يستشهد أبو منصور بشيء من لامية أبي الطيب . وعلى نحو قوله : (٧)  
 وَرُعْنُ بِنَا قَلْبَ الْفُرَاتِ كَأَنَّمَا تَخِرُّ عَلَيْهِ بِالرَّجَالِ سَيُولُ  
 يُطَارِدُ فِيهِ مَوْجَهُ كُلُّ سَابِجٍ سَوَاءٌ عَلَيْهِ غَمْرَةٌ وَمَسِيلُ  
 تَرَاهُ كَانَ الْمَاءَ مَرَّةً بِجِسْمِهِ وَأَقْبَلَ رَأْسُ وَحْدَةٍ وَتَلِيلُ  
 وَفِي بَطْنٍ هَتِيطٍ وَسَمْنٍ لِلظُّبَا وَسُمُرِ الْقَنَا مِمَّنْ أَبْدُنَ بَدِيلُ  
 وغيره مما يُشَبِّهُهُ فِي تِلْكَ الْقَصِيدَةِ الرَّائِعَةِ اعْتَمَدَ وَلَا مَرَّ مَا فَعَلَ ذَلِكَ .  
 وأبيات أبي فراس الرائية كما ينظرون إلى قول أبي الطيب :

« وَلَكِنْ قُسْطَنْطِينُ كَانَ لَهُ الْفِدَا »

ينظرون أيضا إلى قوله في اللامية يخاطب الدمستق :

« نَجَوْتُ بِإِحْدَى مُهْجَتَيْكَ جَرِيحَةً وَخَلَقْتَ إِحْدَى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلُ  
 أَتَتَرَكُ لِلْخَطِيئَةِ ابْنَكَ هَارِبًا وَيَسْكُنُ فِي الدَّيْنِيَا إِلَيْكَ خَلِيلُ  
 بَوَجْهِكَ مَا أَنْسَاكَ مِنْ مَرَشَةِ نَصِيرُكَ مِنْهَا رَنَّةٌ وَعَوِيلُ »  
 وقد كرر هذا المعنى أبو الطيب مرّات في شعره بصور مختلفة ليؤكد أنه هو  
 صاحبه وأبو عذره : كقوله في « فِدَايُنَاكَ مِنْ رُبْعٍ » : (٨)  
 « سَرَائِيَاكَ تَتَرَى وَالِدُ مُسْتَقٍ هَارِبُ »

وقوله في « عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعَزْمِ » :

وَقَدْ فَجَعَتُهُ بِابْنِهِ وَابْنِ صَهْرِهِ

وَبِالصَّهْرِ حَمَلَاتُ الْأَمِيرِ الْغَوَاشِمِ »

وهلمَّ جرّاً .

وعلى هذا يضحّ معنى قول أبي الطيب : (٩)  
 « أَجِزْنِي إِذَا أَنْشَدْتَ شِعْرًا فَلَنَّمَا بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدِّدَا  
 وَدَعَّ كُلُّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنِّي أَنَا الصَّائِحُ الْمُحَكِّمُ وَالْآخِرُ الصَّدَى »  
 أيّما وضوح .

والشعالي رحمه الله لم يكن سطحيا كما ظنَّ مُقَدِّمُو الذخيرة لابن بسام

( طبعة دار الكتب ) . ولكنه كان امرأً عميقاً يخشى الحكام . وكان للشعر  
نَقَاداً . ولما ذكر لامية أبي فراس :  
«مُصَابِي جَلِيلٌ وَالْعَزَاءُ جَمِيلٌ وَظَنَنْتِي بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدِيلُ  
( وفتور هذا المطلع لا يخفى ) لم يشأ أن يدع ما اختار منها دون إشارة إلى  
ما كان من أثر أبي الطيب عليه فقال عند قول أبي فراس :  
«وَصِرْنَا نَرَى أَنَّ الْمَتَارَكَ مُحْسِنٌ وَأَنَّ خَلِيلًا لَا يَضُرُّ وَصُولُ»  
«كَأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :  
«إِنَّا لَفِي زَمَنٍ تَرَكُ الْقَبِيحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالٌ»  
هذا ،

وقال أبو فراس في روميّاته :  
«أَمَّا الْجَمِيلُ عِنْدَ كُنْ ثَوَابٌ وَمَا الْمُسِيءُ عِنْدَ كُنْ مَتَابٌ؟!»  
فسلخ من بائية أبي الطيب في كافور :  
«مُنَى كُنْ لِي أَنَّ الْبَيَاضَ خِرَاضٌ فَيَخْفَى بِتَبْيِضِ الْقُرُونِ شَبَابٌ»  
ماشاء . ونبه إلى بعض ذلك أبو منصور حيث قال يعلّق على قول أبي  
فراس :  
«كَذَاكَ الْوِدَادُ السَّحْضُ لَا يَرْتَجِي لَهُ ثَوَابٌ وَلَا يُخْشَى عَلَيْهِ عِقَابٌ»  
ومثله للمتنبي :  
«وَمَا أَنَا بِالْبَاغِي عَلَى الْحُبِّ رِشْوَةٌ ضَعِيفٌ هَوَى يَبْغِي عَلَيْهِ ثَوَابٌ  
وسكت الثعالبى عن قول أبي فراس :  
«وَأَيَّتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَسِينَ خَرَابٌ  
إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُّرَابٌ»  
فلم يعلّق عليه ، كعادته في الاكتفاء بالتعريض اليسير على النحو الذى  
رأينا . وقد سطا أبو فراس كما لا يخفى على قول أبي الطيب :  
«إِذَا نِلْتُ مِنْكَ الْوُدَّ فَلِمَالُ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُّرَابٌ»

وتوكّأ عليه. ولعلّه ظنّ أنّ «الكلّ» أجودُ من «المال» وهي ضعيفة من جهتي اللفظ والمعنى؛ أمّا من جهة اللفظ فمن أجل دخول «ال» عليها وهو مدفوع في العربية وأمّا من جهة المعنى فلأنّه لم يحترس لنفسه ولا لمدوحه إذ كلاهما يدخلان في حيّز «الكلّ» الهين. ولا كذلك قول أبي الطيّب :

وكل الذي فوق التراب تراب

إذ هو صحيح في ذاته لا يضير الشاعر ومدوحه أن يدخل في حيّزه، أي الودّ هو الأمر النفيس والمال هين وكُلُّنا بعدُ من التراب وإليه .

هذا ولعلّ أبا فراس قد كان في أخذه من أبي الطيّب حيث أخذ في روميّاته أسمعُ منه نفساً في الذي جراه أيام كان بحلب كالذي قدّمناه لك من من أبيات الدمستق وبنى كلاب وكقوله مثلاً :

«غَيْرِي يُغَيِّرُهُ الْفَعَالُ الْخَافِي وَيَحُولُ عَنْ شَيْمِ الْكَرِيمِ الْوَافِي»  
في أبيات فخرية جافية نظر في مطلعها إلى قول المتنبي :

« غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ » (١٠)

ثم تجشم من بعدُ أصنافاً من الحكيم مباراة له كقوله :

«إِنَّ الْغَنِيَّ هُوَ الْغَنِيُّ بِنَفْسِهِ وَلَوَانَّهُ عَارَى الْمَنَاكِبِ حَافِي  
مَا كُلُّ مَا فَوْقَ الْبَسِيطَةِ كَافِيًا وَإِذَا قَنِعْتَ فَكُلْ شَيْءًا كَافِيًا»  
وكقوله في أخرى يفخر أيضاً :

« إِذَا صَلْتُ صَوْلًا لَمْ أَجِدْ لِي مُصَاوِلًا  
وإِنْ قُلْتُ قَوْلًا لَمْ أَجِدْ مَنْ يَقَاوِلُ »

وهذا كقول المتنبي :

« إِذَا صَلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَصَالًا لِمَصَائِلِ  
وإِنْ قُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَقَالًا لِعَالِمِ »

أي لعالم بالقول ، ولو كان قال : « لم أترك مقالا لقائل » لم يكن شيئاً



وما كان إلاّ جمعجة . وقد غاب هذا عن أبي فراس حيث رام أن يشابه آخر لفظه أوّله وغفل أن يستوثق للمعنى .

ولعلّه حسّب أنّه بالتّذى صنع قد أربى على أبي الطيّب . وميمية أبي الطيّب التي منها «أذا صُلْتُ لَمْ أَتْرُكُ... البيت» نظمها قبل اتصاله بسيف الدولة، عهد كان يصطاد ما «بين الكركيّ والعندليب» على حدّ تعبير الثعالبيّ . ونتسائل بعدُ لماذا كان يعمد أبو فراس إلى مجازاة أبي الطيّب ومباراته؟ وعن ذلك إجابات كثيرة . منها مثلاً أنّه كان فتى مغروراً يرى أن تُسلّم له إمارة القلم كما اتّحت له إمارة السيف وراثة لا كسبا .

وهذا الداء في بني آدم كثير عسى أن يكون مصدره حبُّ الكمال ، وكأنّ من يحسن شيئاً واحداً يرى ذلك نقصاً حتى يحسن كلّ شيء سواه ولعلّ الأُمراء الذين يتعاطون الأدب والفلسفة من أفعال الناس لهذا وقصد يخيّنون في هذا الباب بالأوابد كالّذى فعل المأمون على فضله من فتنة خلق القرآن حين حسّب جهلاً أنّ رجال الفكر من أمثال أحمد بن حنبل ينبغي أن يطيعوه في التّذى صار إليه من الآراء في ميدان الفكر لأنّه كان يعتقد أنّه بحكم منصبه ( كما نقول الآن ) رجل الفكر الأوّل .

وعمر الإنسان أقصر من أن يتيح له الكمال ، والمرء بعدُ مَظِنَّةُ النقص فإن بدا فيه من الكمال شيء فذلك هو الشاذ النادر الّذى يوصف بالعبريّة والنبوغ وما أشبه ذلك اللّهم إلاّ ما كان من أمر الأنبياء والمرسلين ، فهذا قد (١١) كان من محض فضل الله تعالى على الناس وهو أعلم حيث يجعل رسالاته .

وظهور العباقرة حين يظهرون يوهّم بعض الطامحين أنّ منال مثل مقدرتهم وإبداع مثل إبداعهم سهل . فينبرون لمضاهاتهم بعمى كاملٍ وبلا نخجل وتكون من ذلك المآسى .

ولعلّ تقليد أبي فراس لأبي الطيّب كان من هذا الباب . ولعلّه كان (١٢) جسداً له على مانال من إعجاب سيف الدولة والحسد كما تبعته المنافسة يكون هو أيضاً من بواعثها وهذا أمر معروف .

وقد كان سيف الدولة لا يعجبه سوى أبي الطيب يدُّ لك على ذلك قوله :  
« وَقَدْ كَانَ يَنْصُرُهُمْ سَمْعُهُ وَيَنْصُرُنِي قَلْبُهُ وَالْحَسَبُ »  
وقد كان يعلم علم اليقين أنَّه سيِّدُ الشعراء ويَطْرَبُ له وَيَغَارُ عليه أنَّ  
يشاركه فيه أحد غيره أو يعامله ويَهْمُ أنَّ يعامله مُعاملته التحفة النفيسة التي  
صارت ملكاً له . كأنَّه مثلاً طائر نادر في قفص من ذهب هو مدينة حلب .  
وغاب عن سيف الدولة أنَّ أبا الطيب ما كان الاَّ صقراً وذلك قوله :  
« وَشَرُّ مَا قَنَصْتَهُ رَاحَتِي قَنَصُ شُهْبِ الْبُزَاةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّخْمُ »  
وهو البازي كما لا يخفى وغيره من أمثال أبي فراس والحالدين والناشيء  
والنامي والسامري ومن إليهم هم : الخاز . . . . . ي . . . . . باز . . . . . ي .  
وقوله :

« وَجَاهِلٌ مَدَّةً فِي جَهْلِهِ ضَحِكِي حَتَّى أَتَتْهُ يَدُ فِرَاسَةٍ وَقَمُ »

هذا ، ويجوز أنَّ تقليد أبي فراس لأبي الطيب قد كان غيرَ منه على  
ما كان بينه وبين أبي العشائر من الودِّ . وقد كان هو صديقاً ( لاريبَ بحكم  
القرابة ) لأبي العشائر وحرص الثعالبيُّ على أن يذكر له أشعاراً أرسل بها إلى  
أبي العشائر إذ كان هذا في الأسر ، كقوله مثلاً :

« أأبا العشائر إنَّ أُسْرَتُ فُطَالَسَا

أُسْرَتُ لَكَ الْبَيْضُ الْخِفَافُ رَجَالَا »

وهذا كان قبل وقوعه في الأسر .

وشعر أبي الطيب في أبي العشائر كان للشكر والوفاء أو كما قال :

« مَالِي لَا أُمْدَحُ الْحُسَيْنَ وَلَا

أَبْدُلُ مِلْؤُدٍ مِثْلَ مَا بَدَّلَهُ »

كشعره في فاتك بمصر . ومحمداً قال فيه :

« لَيْسَ إِلَّا أبا العشائر خَلَقَ » سَادَ هَذَا الْأَنَامَ بِاسْتِحْقَاقٍ

ضَارِبُ الْهَامِ فِي الْغُبَارِ وَمَا يَرُ هَبُ أَنْ يَشْرَبَ الَّذِي هُوَ سَاقِي

ثاقِبُ الرَّأْيِ ثَابِتُ الْحُكْمِ لَا يَتَمَرَّدُ مَرَّةً لَهُ عَلَى إِقْلَاقِ  
مَسْكِينِ أَبُو فِرَاسٍ . ومثل هذا ينبغي أن يُحْفَظَ وَيُغَارَ مِنْهُ .

وروى العكبري في آخر شرح الميمية (وَأَحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ) «ولما أنشد  
هذه القصيدة وانصرف كان في المجلس رجل يعاديه ، فكتب إلى أبي العشائر  
كتاباً بأنطاكية يشرح فيه له ذكر القصيدة وأغراه به ، فوجه أبو العشائر  
عشرة من غلمانهم ، فوقفوا قريباً من باب سيف الدولة ، فلما قرب منهم  
ضرب رجل منهم بيده إلى عنان فرسه ، فسلَّ أبو الطيّب السيف فوثب عليه  
الرجل ، وتقدمت فرسه به فعبر قنطرة كانت بين يديه ، وأصاب أحدهم  
فرسه بسهم فانتزعه ، واستقلت الفرس به ، وتباعد بهم ليقطعهم من مدد  
إن كان لهم ، ورجع إليهم بعد أن فنيَ نشابهم ، فضرب أحدهم بالسيف  
فقطع الوتر وبعض القوس ، وأسرع السيف في ذراعه ، فوقفوا على  
صاحبهم المجروح وسار وتركهم ، فلما يشوا منه قال أحدهم : نحن  
غلمان أبي العشائر » : (١٣)

« ومنتسب عندي إلى من أحبه ... الخ . »

وكاتب هذا الخبر ظناً أنه يروى قصة عنزة كما ترى . ولُبُّ الخبر  
أمور خمسة : كتابةُ عدو أبي الطيّب إلى أبي العشائر ، إرسالُ بعضهم غلماناً  
عشرة أو دون ذلك أو أكثر ليقتلوا أبا الطيّب أمام دار سيف الدولة ، هَرَبُ  
أبي الطيّب أو إفلاته بعد أن كاد يصاب ، دعوى بعض الغلمان أنهم لأبي  
العشائر وقول أحدهم «خذها وأنا غلام أبي العشائر » ثمَّ الأبيات التي مطلعها  
«وَمُنْتَسِبٌ عِنْدِي إِلَى مَنْ أَحْبَبْتُهُ وَلِلنَّبْلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ حَفِيفٌ»  
ولا يعقل أن يكون رجل من غير آل حمدان يجسُرُ أن يكتب إلى أبي  
العشائر باسم سيف الدولة يلتمس إليه قتلَ أحدٍ أبي الطيّب أو سواه ، فهل  
عسى ذلك ، ونحن نعلم الملابسات ، أن يكون غير أبي فراس ؟  
وانتساب الغلام إلى أبي العشائر في السياق المتقدم كأنما أراد به الراوى

إظهار طابع الكذب فيه — وكذلك إرسال الرسول إلى أبي الطيب يستدعيه باسم سيف اللولة أيضا يجرى مجرى التحليل لاحقا الخبر .

وهنا نتساءل أترى أبا العشائر هذا الذي انتسب له الغلام كان نفس أبي العشائر أم مجرد اسمه جعل رمزاً لشخص آخر . . شخص لعله هو الذي كان المصدر الحقيقي للإذنام عند أبي الطيب والغيرة والحفيظة عند أبي فراس ؟ ؟

ونقد تذكر قولنا أننا إن أبا فراس لعله كان أسمع نفسا إذ حاكى أبا الطيب في روميّاته منه أيام حلب . ومصدر هذه السماحة أنه بعد أن أضفى البعد والاغتراب على أبي الطيب جلال الذكرى لم يستنكف أبو فراس أن يقف منه في تقليده الملح له كموقف التلميذ ، كما وقف لاريب منه من قبل إذ هو غلام وأبو الطيب شاعر الشام . وكان يجارى أبا الطيب في الأوزان والقوافي ما استطاع كالذي رأيت في اللامية والبائية وكما في رائيته :

« أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شَيْمَتُكَ الصَّبْرُ »

وهو من أوزان أبي الطيب ومنه قوله المشهور « فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْمَتَكَةُ الْبِكْرُ »

وكبائيته : « أَسَيْفَ الْهُدَى وَتَرْيَعِ الْعَرَبِ »

وهي تجارى : « أَتَانِي الْكِتَابُ أَبْرُ الْكُتُبِ »

وكقوله :

« يَعْزُّ عَلَى الْأَحِبَّةِ بِالشَّامِ حَبِيبٌ بَاتَ مَمْنُوعَ الْمَنَامِ »

وهذا نهج « مَلُومُكُمْ مَا يَجِلُّ عَنْ الْمَلَامِ » — وقال أبو الطيب هناك : (١٤)

« عَلِيلُ الْجِسْمِ مُمْتَنِعُ الْقِيَامِ . . . الخ »

وكقوله :

« أَتَزَعَّمُ يَا ضَخْمَ الْغَادِ يَدِ أَنْتَا وَنَحْنُ أَسُودُ الْحَرْبِ لَا نَعْرِفُ الْحَرْبَا »

وهذا وزن « قَدْ يَنَّاكَ مِنْ رُبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا »

وقال :

«نَدَبْتُ لِحُسْنِ الصَّبْرِ قَلْبَ نَجِيبٍ وَنَادَيْتُ بِالتَّسْلِيمِ خَيْرَ مُجِيبٍ»  
وهذا وزن :

« وَفِي تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءَهَا

وَيَجْهَدُ أَنْ يَأْتِيَ لَهَا بِضَرْبٍ »

وما ضاهى فيه الوزن دون القافية أو اتبع مذهب القافية من قريب أو بعيد كثير نحو قوله :

« يَا حَسْرَةً مَا أَكَادُ أَحْمِلُهَا »

وجارى فيه « أهلا بدار سباك أغيدها » فى الوزن وقاربها فى مذهب (١٥) القافية وقال فيها :

« يَا وَاسِعَ الدَّارِ كَيْفَ تُوسِعُهَا وَنَحْنُ فِي صَخْرَةٍ نُزْلُزُهَا

يَا نَاعِمَ الثَّوْبِ كَيْفَ تُبَدِّلُهُ ثِيَابُنَا الصُّوفُ لَا تُبَدِّلُهَا

وهذا كطريقة أبى الطيب فى الأداء حيث قال :

« يَا عَاذِلَ الْعَاشِقِينَ دَعْ فِثَّةً أَضَلَّهَا اللَّهُ كَيْفَ تُرْشِدُهَا »

وبين المعانى بتون بعيد .

ونحو قوله :

« وَإِنَّكَ لِلْمَوَلَى الَّذِى بِكَ أَهْتَدِى

وَإِنَّكَ لِلنَّجْمِ الَّذِى بِكَ أَهْتَدِى

وَأَنْتَ الَّذِى عَرَفْتَنِى طُرُقَ الْعُلَا

وَأَنْتَ الَّذِى أَهْدَيْتَنِى كُلَّ مَقْصِدٍ

وَأَنْتَ الَّذِى بَلَّغْتَنِى كُلَّ غَايَةٍ

مَشَيْتُ إِلَيْهَا فَوْقَ أَعْنَاقِ حُسْدِى »

وهذا كقول أبى الطيب :

« لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا »

فى الوزن وكذلك فى القافية إلا أنه خالف حركة الروى فجعلها خفوضاً وهى هنا نصب . ونظر إلى قول أبى الطيب :  
«أزِلْ حَسَدَ الْحَسَادِ عَنِّي بِكِبَرِهِمْ فَأَنْتَ الَّذِى صَيَّرْتَهُمْ لِي حَسَدًا»  
وإلى طريقة مذهبه عامة . ونحو هذا كثير .

وقد تضرع أبو فراس إلى سيف الدولة غاية التضرع فى الروميات عليه يرق له فيفديه من الأسر . وأعرض عنه سيف الدولة غاية الإعراض .  
وكان أول أمره إذ كتب إلى سيف الدولة فى الفداء مدلاً بنفسه لا يشك أن سيف الدولة سيفديه وذلك قوله مثلاً :

فَمِثْلُكَ مَنْ يَدْعَى لِكُلِّ عَظِيمَةٍ وَمِثْلِي مَنْ يُفْدَى بِكُلِّ مُسَوِّدٍ  
تَشَبَّثَ بِهَا أَكْرُومَةٌ قَبْلَ فَوَاتِهَا وَقَمَّ فِي خِلَاصِي صَادَقَ الْعَزْمَ وَاقْعُدِ  
فَإِنْ تَفْتَدُونِي تَفْتَدُوا شَرَفَ الْعُلَا وَأَسْرَعَ عَوَادِ إِلَيْكُمْ مُعَوِّدِ  
يُدَافِعُ عَنِّي أَعْرَاضِكُمْ بِلِسَانِهِ وَيَضْرِبُ عَنْكُمْ بِالْحُسَامِ الْمُهَنْدِ  
ولكن مع إبطاء سيف الدولة عنه تغيرت نعمته من الثقة إلى الضعف إلى الغيظ المنهار فمن ذلك قوله مثلاً :

وَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى الْمَجْرَ وَالشَّمْلَ جَامِعٌ  
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَقِيَّةٌ وَخِطَابٌ  
فَكَيْفَ وَفِيمَا بَيْنَنَا مُلْكٌ قَيَّصَرُ  
وَالْبَحْرِ حَوْلِي زَخْرَةٌ وَعُبابُ  
أَمِنْ بَعْدِ بَذْلِ النَّفْسِ فِيكَ نَفِيْسَةٌ  
أُثَابُ بِمَرِّ الْعَتَبِ حِينَ أُثَابُ

وليت التاريخ حفظ لنا هذا العتب فنعلم منه بعض ما هو غامض عنا الآن ،

«فَلَيْتَكَ تَحُلُوَ وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ  
وَلَيْتَ الَّذِى بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ



إِذَا نِلْتُ مِنْكَ الْوُدَّ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ    وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التَّرَابِ تَرَابٌ  
ومن استعطافه البالغ الباكي :

«أَرَانِي طُرُقَ الْمَكْرُمَاتِ كَمَا رَأَى    عَلَيَّ وَأَسْعَى لِي عَلَيََّا كَمَا سَعَى»  
— وعلى اسم سيف الدولة والثانية حال وإن كررتها مرفوعة جاز على  
أنها علم ولعله أجود —

«فَإِنْ يَكُ بَطْءٌ مَرَّةً فَلَطَّالِمَا    تَعَجَّلَ بِي نَحْوَ الْجَمِيلِ فَاسْرِعَا  
وإن يحف في بعض الأُمُورِ فَإِنِّي    لَا شُكْرُهُ النُّعْمَى الَّتِي كَمَا أَنْ أَوْدَعَا  
وإنْ يَسْتَجِدَّ النَّاسَ بَعْدِي فَلَمْ يَزَلْ»

بِذَاكَ الْبَدِيلِ الْمُسْتَجِدِّ مُنْتَعَا  
وكانه تأدب بأدب بيت لأبي الطيب من عينية له من هذا الوزن مرفوعة  
الروى وهو قوله :

«تَذَلَّلْ كَلَامًا وَاخْضَعْ عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَى  
فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لَا يَدِلُّ وَيَخْضَعُ»

إلا أنه ، على الأرجح ، لم ينظر إلى مجازاة هذه العينية كما قد نظر إلى  
عينية متمم بن نويرة :

(١٦)  
«فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا    لِيَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا»  
يستوحى منها سَمَتَ الْحَزْنِ وَالْإِطْمِئْنَانِ إِلَيْهِ . وما أخلص أبو فراس  
في شيء من فخم شعره فصديق كما فعل في هذه العينية على أنه في ذلك لم  
يغب عنه نموذج أبي الطيب وتقليده ، تأمل قوله مثلاً :

«وَهَا أَنَا قَدْ حَلَّتِي الزَّيْمَانُ مَفَارِقِي    وَتَوَجَّيْتُ بِالشَّيْبِ تَاجًا مُرَصَّعًا (١٧)  
فلو أنني مكنت مما أريدُه    مِنْ الْعَيْشِ يَوْمًا لَمْ أَجِدْ فِي مَوْضِعَا  
أَمَّا لَيْلَةٌ تَمْضِي وَلَا بَعْضُ لَيْلَةٍ    أُسْرِبُهَا هَذَا الْفُؤَادَ الْمُفْجَعَا  
أَمَّا صَاحِبُ فَرْدٍ يَدُومُ وَفَاؤُهُ    فَيُصْفِي لِي مَنْ يُصْفِي وَيَرْعَى لِي مَنْ رَعَى  
أَفِي كُلِّ دَارٍ لِي صَدِيقٌ أَوْدُهُ    إِذَا مَا تَفَرَّقْنَا حَفِظْتُ وَضِيعَا

وأول هذا من كلام أبي الطيب المشهور «لَيْتَ الحَوَادِثَ بَاعَتْني الذِي (١٨) أَخَذَتْ» وسائرهُ فمن قوله :

«لَحَا الله ذِي الدُّنْيَا مُنَاخَا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدٍ أَلْهَمَ فِيهَا مَعْتَبُ  
أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً فَلَا أَشْتَكِي فِيهَا وَلَا أَتَعْتَبُ  
وَبَنَى مَا يَدُودُ الشَّعْرَ عَنِّي أَقْلَهُ وَلَكِنْ قَلْبِي يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ قَلْبُ  
وَمَا شَبِهَ ، كَقَوْلِهِ « يَقُولُونَ لِي مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ »  
« أَفِي كُلِّ يَوْمٍ ذَا الدُّمُسْتَقِ مُقَدِّمٌ » وَهَلُمَّ جَرَّ .

وقال أبو منصور : وبلغ أبا فراس أن والده قصدت حضرة سيف  
الدولة من منبج تكلمه في المفاداة وتتضرع إليه ، فلم يكن عنده مارجت من  
حسن الإيجاب . ووافق ذلك عنفا من الدمستق بأبي فراس ومن معه من  
الأسرى وزيادة في إرهابهم فكتب إلى سيف الدولة :  
« يَا حَسْرَةً مَا أَكَادُ أَحْمِلُهَا »

وأورد قدرا صالحا من القصيدة - وفيها يقول وهو صيحة اليأس  
والانهيار المغيظ الكامل :

« بِأَيِّ عُدْرٍ رَدَدْتَ وَالْهَيْةَ عَلَيَّكَ دُونَ الْوَرَى مُعَوَّلُهَا  
جَاءَتْكَ تَمْتَّاحُ وَرْدٍ وَاحِدِهَا يَنْتَظِرُ النَّاسُ كَيْفَ تُقْفِلُهَا  
- أَى كَيْفَ تَرُدُّهَا -

« أَرْحَامُنَا مِنْكَ لِمَ تُقْطِعُهَا وَلَمْ تَزَلْ دَائِبًا تُوصِّلُهَا  
سَمَحْتَ مِنِّي بِمَهْجَةٍ كَرُمْتَ أَنْتَ عَلَى يَأْسِهَا مُؤَمِّلُهَا  
أَبْنُ الْمَعَالِي الَّتِي عُرِفَتْ بِهَا تَقُولُهَا دَائِمًا وَتَفْعَلُهَا  
يَا وَاسِعَ الدَّارِ كَيْفَ تُوسِعُهَا وَنَحْنُ فِي صَخْرَةٍ نُزْلُكُهَا  
يَا نَاعِمَ الثَّوْبِ كَيْفَ تُبَدِّلُهُ ثِيَابُنَا الصُّوفَ لَا نُبَدِّلُهَا  
يَا رَاكِبَ الْخَيْلِ لَوْ بَصُرْتَ بِنَا نَحْمِلُ أَقْيَادَنَا وَنَنْقُلُهَا

ولم يجد الثعالبي لإعراض سيف الدولة عن أبي فراس من تأويل ولكن  
عدّه من « حرقة الأدب » — أى سوء حفظ الأدباء — ومن « العين » التي  
تصيب أهل الكمال ، ولاريب أن إعراض سيف الدولة كان عن تنكّر  
وعتب وجفوة ، يدُلُّك على ذلك ماتقدم وقول أبي فراس :

« أَسَيْفَ الْهُدَى وَقَرِيحَ الْعَرَبِ    إلامَ الْحَفَاءِ وَفِيمَ الْغَضَبِ »  
وقوله :

« تَنَكَّرَ سَيْفُ الدِّينِ لَمَّا عَتَبَتْهُ    وَعَرَضَ بِي تَحْتَ الْكَلَامِ وَقَرَعَا »  
ونحو هذا كثير .

ونسأل بعدُ ما اللّذى أحفظ سيف الدولة على أبي فراس ؟  
وردّ سيف الدولة شفاعة والدته قد جرحه حتى أخرج من نفسه ضغينة  
حسد وكوامن غرور :

(١٩)  
« يَا وَاسِعَ الدَّارِ كَيْفَ تُوسِعُهَا    وَنَحْنُ فِي صَخْرَةٍ نَزَلْزُلُهَا  
يَا نَاعِمَ الثُّوبِ كَيْفَ تُبَدِّلُهُ    ثِيَابُنَا الصُّوفُ لَانْبَدِّلُهَا  
يَا رَاكِبَ الْخَيْلِ لَوْ بَصُرْتَ بِنَا    نَحْمِلُ أَقْيَادَنَا وَنَنْقُلُهَا  
رَأَيْتَ فِي الضَّرِّ أَوْجُهَا كَرُمْتَ    فَارَقَ فِيكَ الْجَمَالَ أَجْمَلُهَا »  
أكان ذلك قبل مقتل أبي الطيّب ؟ وهل كان أبو العشائر حيّاً ومن  
الشخص اللّذى كاد لأبي فراس ؟

وقد قال أبو فراس يأسى على نفسه ويتأسى : —

« مَالِي جَزِعْتُ مِنَ الْخُطُوبِ وَإِنَّمَا    أَخَذَ إِلَهُ لِبَعْضِ مَا أَعْطَانِي »  
وروى أبو منصور أن الروم قد خففوا من بعدُ عن أبي فراس ، ونوظر  
في أمر الهدنة وأجيب إلى ملتمسه بعد إكرام وتبجيل فقال في ذلك من قصيدة  
( تنظر إلى أبي الطيّب ) :

« وَلِلَّهِ عِنْدِي فِي الْإِسَارِ وَغَيْرِهِ    مَوَاهِبٌ لَمْ يُخْصَصْ بِهَا أَحَدٌ قَبْلِي »

«حَلَلْتُ عُقُوداً أَعْوَزَ النَّاسَ حَلْلُهَا وَمَا زِلْتُ لَأَعْقِدِي يُذَمَّ وَلَا حَلَّتِي»  
فدلنا بهذا على أنه في الذى وصل إليه لم يداهن فى شىء من أمر الدين  
والجهاد والله أعلم .

« وَمَا شَاءَ رَبِّي غَيْرَ نَشْرِ مَحَاسِنِي  
وَأَنْ يَعْرِفُوا مَا قَدْ عَرَفْتُمْ مِنَ الْفَضْلِ »

وكان الأسر لم يُعَلِّمُ أبا فراس شيئا من التواضع . وقد ذهبت الضراعة  
والانهيار لما ذهبت أسبابها . ونعمة الأشر والنسيان لما فات ظاهرة فى هذه  
الآيات .

قال أبو منصور : « ولما خرج قمر الفضل من سِرَّارِهِ وَأُطْلِقَ أَسَدُ  
الْحَرْبِ مِنْ إِسَارِهِ لَمْ تَطُلْ أَيَّامُ فَرَحَتِهِ »

تأمل قوله « أَيَّامُ فَرَحَتِهِ » فهو نصٌّ فى الذى قدَّمناه .

ثم قال أبو منصور : « وَدَاثَتْ قَصِيدَةُ قَرَأَتِهَا لِأَبِي إِسْحَقَ الصَّابِي فِي  
مَرَثِيَّتِهِ عَلَى أَنَّهُ قَتَلَ فِي وَقْعَةٍ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَعْضِ مَوَالِي أَسْرَتِهِ »

وكان سيف الدولة قد مات منذ حين وحارب أبو فراس أبا المعالى  
ابنه وفرغوا به مولاة وقتله هذا ورمى جثته للكلاب وقد علم أبو منصور إلا  
أنَّ قرب العصر والتقية منعا التصريح .

وكان أبا منصور بغى التلميح إلى علاقة ما بين هذا الحادث وأمر أبي  
الطيب كله حين استشهد مباشرة بعده بقوله يخاطب سيف الدولة من مَرَثِيَّتِهِ  
فى خولة ، قال : وما أحسن وأصدق قول المتنبي :

فَلَا تَذَلُّكَ اللَّيَالِي إِنْ أَبْدِيَهَا إِذَا ضَرَبَنْ كَسَرْنَ النَّبْعَ بِالْغَرْبِ (٢٠)  
وَلَا يُعِينَ عَدُوًّا أَنْتَ قَاهِرُهُ فَإِنَّهُمْ يَصِدُّنَ الصَّقْرَ بِالْخَرْبِ

وذكر ابن خالوية أنَّ آخر شعر أبي فراس قوله عند موته رحمه الله :

« أَبْنِيَّتِي لَا تَجْزَعِي ... الْآيَاتِ » (٢١)

فأنت ترى كيف جمع بين ذكر أبي الطيّب وابن خالويه وسيف  
الدولة جميعاً وتأمّلْ بَعْدُ قوله : « بعض موالى أسرَتهِ »  
أترى الشخص المجهول المرموز إليه بأبي العشائر كان حيّاً بعد ؟ ربك  
أعلم أى ذلك كان .

### (٣)

« قال أبو الطيّب ،

وَمَا أَنَا إِلَّا عَاشِقٌ كُلُّ عَاشِقٍ أَعَقُّ خَلِيلِيهِ الصَّفِيِّينَ لَائِمُهُ» (١)  
فمن قسا قال لم يعشق إلا نفسه . ولكنَّ السياق ينبئ عن إنسان بعينه  
معشوق وذلك قوله :

« سَقَاكَ وَحَيَّانَا بِكَ اللهُ إِنَّمَا عَلَيَّ الْعَيْشُ نَوْرُ وَالْحُدُورُ كَمَائِمُهُ  
وَمَا حَاجَةٌ الْأَظْعَانِ حَوْلَكَ فِي السُّرَى إِلَى قَمَرٍ مَا وَاجِدٌ لَكَ عَادِمُهُ  
حَبِيبٌ كَانَ الْحَسَنَ كَانَ مُحِبُّهُ فَأَثَرُهُ أَوْجَارٌ فِي الْحَسَنِ قَاسِمُهُ  
تَحُولُ رِمَاحُ الْخَطِّ دُونَ سِبَائِهِ وَتُسَبِّحُ لَهُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ كَرَائِمُهُ  
وَيُضْحِي غَبَارُ الْخَيْلِ أَدْنَى سَتُورِهِ وَآخِرُهَا نَشْرُ الْكِبَاءِ الْمَلَا زِمُهُ »  
أى نشر الطيب الملازم له . وهذه الصورة كأنَّما نظر إليها رجال  
هوليود فى الذى يعرضون من صور أميرات قصصهم المقتبسة من ألف ليلة  
وليلة .

ولكأنَّ أبا الطيّب الفارس منتهى نفسه الباطل من سبى هذه الجارية لولايه  
سبيل . وهى لاريب التى فى الدالية حيث مدح كافورا وقال : (٢)  
أَوَدُّ مِنَ الْإِيَّامِ مَا لَا تَوَدُّهُ وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهْنِي جُنْدُهُ  
يُبَاعِدُنَ حُبًّا يَجْتَمِعُنَ وَوَصْلِهِ فَكَيْفَ بِحُبٍّ يَجْتَمِعُنَ وَصَدَّهُ »  
وليس ههنا حبيان ولكن حبيب واحد ، هو الذى بُوعِدَ وكانت  
الأيَّام تجمع به واصلا ، فكيف تجمعه به الآن مع الصدود الذى نشأ من  
النوى ومن الجفوة التى وقعت بينه وبين آل حمدان — والبيت التالى يكشف  
هذا المعنى :



أَبَى خُلُقُ الدُّنْيَا حَبِيباً تُدِيْمُهُ فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَبِيباً تَرُدُّهُ  
وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَيَعْلَتَ تَغْيِيراً تَكَلِّفُ شَيْءٌ فِي طِبَاعِكَ ضِدُّهُ»  
وأبو الطيب يخاطب نفسه ، ولا ينعى الدنيا كما وهم بعض الشراح ،  
ولا يخلو في هذا من رجوع بذكراته إلى وراء ، وصفة حال ممّا كان بينه وبين  
سيف الدولة ومن كانوا يحفُّون به .. ثمّ في هذه الخطرة المُرّة نفحته ريثاً  
المحبوبة :

«رَعَى اللهُ عَيْساً فَارَقْتَنَا وَفَوْقَهَا مَهْأَ كُلِّهَا يُوَلِّى بِجَفْنَيْهِ خَدَّهُ  
بِوَادٍ بِهِ مَا بِالْقُلُوبِ كَأَنَّهُ وَقَدْ رَحَلُوا جِيدُ تَنَازُّرٍ عَقْدُهُ  
إِذَا سَارَتْ الْأَحْدَاجُ فَوْقَ نَبَاتِهِ تَفَاوَحَ مِسْكُ الْغَانِيَاتِ وَرَنَدُهُ  
وَحَالَ كَأَحْدَاهُنَّ رُمْتُ بُلُوغَهَا

وَمِنْ دُونِهَا غَوْلُ الطَّرِيقِ وَبُعْدُهُ» (٣).

وما شبّه حاله بأحدها من إلا أنّهما صنوان وإلاّ ما صحّ التشبيه فهى  
نفسها الحال كما ترى .

وقال أبو منصور الثعالبي في أوّل فصله عن آل حمدان : أخبرنى  
جماعة من أهل الأدب أنّ المتنبي لما عوتب في آخر أيامه على تراجع شعره  
قال قد تجوّزت فى قولى وأعفيت طبعى واغتنت الراحة منذ فارقت آل  
حمدان . . أ . هـ . وإنّ صحّت هذه الرواية فما أراه إلاّ قد أنكر عليهم  
قولهم إذ أثبت لنفسه التجوز وما يصحبه من التصرف ، وإعفاء الطبع وما  
يصحبه من الانطلاق ، واستشعار الراحة وإنّما كان سبب الراحة الدّعة الّتى  
وجد بمصر حيث طلب حالاً كأحدها من فصار به الأمر إلى أن تجاوزهما معا  
وصار ينظر إليها من علّ ، من سماء الفنّ فى ريف مصر الّتى احتوته وادّعته  
وأبطلت دعوى كلّ شىء سواها ، ومن إعفائه طبعه وانطلاقه الّذى لا يدفع  
قوله وهو بفارس :

«أَزَايِرُ يَا خَيْالُ أُمِّ عَائِدٍ أُمِّ عَيْنِدَ مَوْلَاكَ أَنْبَى رَاقِدٍ  
عُدُّ وَأَعِيدُهَا فَحَبِّذَا تَكَلَّفُ أُلْصِقُ ثُدْيِي بِثُدْيِكَ النَّاهِدُ»

تأمل قوله « تلف » وإنّما جعله تلقا لما فيه من إهمالك في وصال عاقبته  
السيف والتلف أو كما قال جبران العود :

«وَقُلْنَ تَمَتَّعْ لَيْلَةَ النَّأْيِ هَذِهِ فَإِنَّكَ مَرْجُومٌ غَدًا أَوْ مُسَيِّفٌ» (٤)  
أم ليس هذا كقوله :

فِيهِنَّ مَنْ تَقْطُرُ السُّيُوفُ دَمًا إِذَا لِسَانُ الْمُحِبِّ سَمَّاهَا  
وليس المحبُّ أحداً غيره وما السيوف اللاءُ كنَّ سيقطرن دما غير  
سيوف بنى حمدان ولم تكن الفتاة في حلب وإنّما كانت تقدم إليها وتسير  
عنها . . لاشكّ أنها كانت صاحبة درب القلّة :

«لَقِيتُ بِدَرْبِ الْقُلَّةِ الْفَجْرَ لَقِيَةً شَمَّتْ كَمْدِي وَالصُّبْحُ فِيهِ قَتِيلٌ»  
ولاريب أنّها هي التي أقامت بما :

«يُحَرِّمُهُ لَمَعُ الْأَسِنَّةِ فَوْقَهُ» فَلَيْسَ لِظَمَانٍ إِلَيْهِ سَبِيلُ  
ولكنّ هذا ماء رمزي هو وصلها ومنعتها بما كانت تمتنع به ، وقد  
مرّ بك قوله :

«وَصِيفْتُ فِيهَا مَصِيفَ بَادِيَةٍ شَتَوْتُ بِالصَّحْصَحَانِ مَشْتَاهَا»  
فإذن لم تكن تسكن البادية وإنّما صافت ترفا والتماسا للقاء الشاعر في  
الذي كانت تتيح البداوة من حرّية لقاء لاتيجه حُجُبُ الحاضرة .

«من الْجَاذِرُ فِي زِيِّ الْأَعَارِيبِ حُمْرُ الْحُلَى وَالْمَطَايَا وَالْجَلَابِيبِ»  
تأمل قوله في زِيِّ الْأَعَارِيبِ ، أي هي في زَيْنٍ وليست منهنّ :

«أَفْدَى ظِبَاءَ فَلَاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضْغَ الْكَلَامِ وَلَا صَبْغَ الْحَوَاجِيبِ»  
رأى هذا بمصر وأعجبه بلاريب . (٥)

ثم ظباء الفلاة هؤلاء ، محبوبته وصويحباتها ، يمضغن كلامهن ويصبغن  
حواجبهنّ ولهنّ حال الخضر ورقتهنّ وهنّ بعد في الفلاة ظباء فلاة  
مرفّهات لامعزاهن .

«أَيْنَ الْمَعِيزُ مِنَ الْأَرَامِ نَاطِرَةٌ وَغَيْرَ نَاطِرَةٍ فِي الْحُسَيْنِ وَالطَّيِّبِ»

وحسبك نظرة في الذي اختار أبو منصور من أشعار آل حمدان لتعلم  
مماقدار مابلغوا من لين ورقة وتأثقي وترفي . من ذلك مثلاً قول أبي وائل  
بن حمدان :

« لا والذي جعل المَوا لي في المَوى خدام العبيد  
وأصار في أيدي الطبّا عقياد أعناق الأسود  
وأقام ألوية المنيّة بين أفنيّة الصدود  
ما الورْدُ أحسنُ منظرًا من حُسنِ توريدِ الحدودِ »  
ولأبي زهير بن حمدان :

وَزَعَمْتُ أَنِّي ظَلَمْتُ فَهَجَرْتَنِي وَرَمَيْتَ فِي قَلْبِي بِسَهْمٍ نَافِدٍ  
فَدَنَعَمْ ظَلَمْتُكَ فَاعْتَفِرْ لِي زَلَّتِي هَذَا مَقَامُ الْمُسْتَجِيرِ الْعَائِدِ »  
وقد مرّ بك شعر أبي فراس وروح اللين سنخه وقد نبا به ما حمله هو  
عليه من مذهب المتنبي في القسوة وذلك كما قال المتنبي « تَكَلَّفُ شَيْءٌ فِي  
طِبَاعِكَ ضِدُّهُ » وأبيات أبي فراس التي تنسب إليه عند حمامه أشبه به  
وبمشرّب قومه في اللين ورقة الانحلال :

« أَبُنَيْتِي لَا تَجْزَعِي كُلُّ الْأَنَامِ إِلَى ذَهَابِ  
نُوحِي عَنِّي بِحَسْرَةٍ مِنْ خَلْفِ سِتْرِكَ وَالْحِجَابِ  
قُولِي إِذَا نَادَيْتَنِي فَعَجَزْتُ عَنْ رَدِّ الْجَوَابِ  
زَيْنُ الشَّبَابِ أَبُو فِرَا سِ كَلَّمُ يُمْتَنِعُ بِالشَّبَابِ »  
حتى عند الموت رحمه الله يروم الجناس .

والبدواة كثيراً ما تصير إلى اللين المفرط والانحلال حين تخالط الحضارة  
أو تخلد إليها ، والناس بعدُ ضروب والله تعالى أعلم .  
وهذا يقوى ما قدّمنا من أنّ صواحِبَ أبي الطيّب بالشام اصطنعوا زِيَّ  
البادية وما كُنْ بَدَوِيَّاتِ .

وقال أبو الطيّب في أوائل أمره يذكر ممدوحاً اسمه المغيث العجلي :

« لَمَّا أَقَمْتُ بِأَنْطَاكِيَّةَ اخْتَلَفْتُمْ إِلَى بِالْحَبَرِ الثَّرْكَبَانُ فِي حَلْبَا  
فَسِرْتُ عَجَلَانِ لَا أَلْوِي عَلَى أَحَدٍ أَحْتُ رَاحِلَتِي الْفَقْرَ وَالْأَدْبَا »  
والشعراء مِمَّا يَنْظُرُونَ بَعِينَ الْكُشْفِ . وَقَدْ كَتَبَ عَلَى أَبُو الطَّيِّبِ آخِرَ الدَّهْرِ (٦)  
أَنْ يَصْعَدَ صِينَهُ بِحَلْبٍ عِنْدَ أَمِيرِهَا ، وَلَكِنْ تَأَتَّى ذَلِكَ لَهُ بَعْدَ أَنْ حَثَّ رَاحِلَتِيهِ  
الْفَقْرَ وَالْأَدْبَ إِلَى أَمِيرِ أَنْطَاكِيَّةِ أَبِي الْعِشَائِرِ فَإِنْ تَكَ فِتَاتِهِ كَانَتْ مَقِيمَةً فِي  
حَيْزِ أَبِي الْعِشَائِرِ — وَإِلَّا فَمَا مَعْنَى انْتِسَابِ الْغَلَامِ الَّذِي أَرَادَ قَتْلَهُ حَيْثُ قَالَ  
« خُذْهَا وَأَنَا عَلَامُ أَبِي الْعِشَائِرِ » — فَقَدْ كَانَتْ تَقْدُمُ حَلْبَ حِينَ تَقْدُمُهَا عَلَى  
بَعِيرٍ فَوْقَ هُودَجٍ ذِي عَبِيرٍ ، أَوْ كَمَا قَالَ :

« يَا طِفْلَةَ الْكَفِّ عَبْلَةَ السَّاعِدِ عَلَى الْبَعِيرِ الْمُقْلَدِ الْوَاحِدِ  
زَيْدِي أَذَى مُهْجَتِي أَزِدْكَ هَوًى فَأَجْهَلُ النَّاسِ عَاشِقٌ حَاقِدٌ »  
أَلَيْسَ هَهُنَا صَدَى قَوْلِهِ :

« وَمُنْتَسِبٌ عِنْدِي إِلَى مَنْ أَحَبَّهُ وَلِلنَّبْلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ حَفِيفٌ  
فَنَفْسِي لَهُ نَفْسِي الْفِدَاءِ لِنَفْسِهِ وَلَكِنْ بَعْضُ الْمَالِكِينَ عَنِيفٌ »  
بَلْ قَالَ : —

« حَكَيْتَ يَا لَيْلُ فَرْعَهَا الْوَارِدِ فَاحْمُكَ نَوَاهَا بِالْحَفْنِيِّ السَّاهِدِ  
طَالَ بُكَائِي عَلَى تَذَكُّرِهَا وَطُلْتُ حَتَّى كِلَاكُمَا وَاحِدٌ »  
أَكَانَتْ طَوِيلَةَ الْقَامَةِ طَوِيلَةَ الْفَرْعِ أَمْ تَأْمَلُهَا مِنْ عَدْوَةٍ فَارِسٍ وَهِيَ (٧)  
فِي أَنْطَاكِيَّةِ أَوْ حَلْبٍ فَطَالَ طَيْفُهَا الْمُتَوَهَّمُ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ أَوْ كَمَا قَالَ شَيْخُ  
الشَّعْرَاءِ أَمْرُو الْقَيْسِ مِنْ قَبْلِ :

« تَنْوَرْتُهَا مِنْ أَذْرِعَاتٍ وَأَهْلُهَا بَيْتْرِبَ أَدْنَى دَارِهَا نَظَرُ عَالٍ »  
وَصَدَقَ وَمَا عَلِمَ وَيَحْهَ إِذْ ذَلِكَ نَوْرُ النُّبُوَّةِ .  
« مَا بَالُ هَذِي النُّجُومِ حَائِرَةٌ كَأَنَّهَا الْعُمَى مَا لَهَا قَائِدٌ »  
وَهَذِهِ مِنْ صُورِ بَغْدَادَ . وَقَدْ رَأَى فِيهَا الْمُتَسَوِّلِينَ الْعَمِيَانِ . . وَمِنْ عَمِيَانِ

القلوب ، كما قد رأى قبلُ منهم بحلب وقال :  
« غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ بِأَلَا وَاصِفٍ وَالشَّعْرُ تَهْذِي طَمَاطِمُهُ »  
وقال :

« أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدَبِي وَأَسْمَعْتُ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمٌ »  
وقوله بعد :

« أَوْ عَصْبَةٍ مِنْ مُلُوكِ نَاحِيَةِ أَبُوشُجَاعٍ عَلَيْهِمْ وَاجِدٌ »  
يشعر ببني حمدان وأبو الطيب هو الواجد . كان جاهلاً — ماذا قال (٨)  
العكبري ؟ « وأجهل الناس عاشق حاقِدٌ » . ولعلَّ آل حمدان كلهم كانوا  
لديه عُمِيًّا إلَّا هاتِه التي أحبَّ . ألم يذكر أبو منصور في بعض  
الأشعار التي نسب إليهم ميلاً ما من بعضهم إلى غزل المذكر؟ ولعلَّ هذا كان  
مذهباً من الغيرة على الحرم بين بعض طبقات العلية والفُرسان في ذلك (٩)  
الزمان وفي أزمنة كثيرة من قبلُ ومن بعدُ والله تعالى أعلم .

قال أبو فراس :

« قَدْ كَانَ بَدْرَ السَّمَاءِ حُسْنًا وَالنَّاسُ فِي حُبِّهِ سَوَاءُ  
فَزَادَهُ رَبُّهُ عِزًّا تَمَّ بِهِ الْحُسْنُ وَالْبَهَاءُ  
لَا تَعْجَبُوا رَبَّنَا قَدِيرٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ »

وقال :

« قَمَرٌ دُونَ حُسْنِهِ الْأَقْمَارُ وَكَثِيبٌ مِنَ النَّقَا مُسْتَعَارُ  
وَعَزَّالٌ فِيهِ نِفَارٌ وَمَا يُنْكَرُ رُ مِنْ شِيَمَةِ الظُّبَاءِ النَّفَارُ  
لَا أَعَصِيهِ فِي اجْتِرَاحِ الْمَعَاصِي فِي هَوَى مِثْلِهِ تَطْيِبُ النَّارُ  
قَدْ حَذَرْتُ الْمَلَاخَ دَهْرًا وَلَكِنْ سَاقِنِي نَحْوَ حُبِّهِ الْمُقْدَارُ  
كَمْ أُرِيدُ السُّلُوَ فَاسْتَعْظَفْتَنِي رَقِيَّةٌ مِنْ رُقَاكَ يَاعَيَّارُ »

تأمل خنثة قوله « يا عيار »  
وله في مزدوجته الطردية ، ومع احتراس أبي منصور فقد ذكره  
ولو شاء لاستغنى :

« ثُمَّ دَعَوْتُ الْقَوْمَ هَذَا بَارِي      فَأَيُّكُمْ يُنْشِطُ لِلْبِرِّازِ  
قَالَ غُلَامٌ مِنْهُمْ أَنَا أَنَا      وَلَوْ دَرَى مَا بِيَدِي لَأَذْعَنَّا »  
ومنها :

سُرَّ وَقَالَ هَاتِ قُلْتُ مَهْلًا      إِحْلِفْ عَلَيَّ الرَّدَّ فَقَالَ كَلَّا  
أَمَا يَمِينِي فَهِيَ عِنْدِي غَالِيَةً      وَكَلِمَتِي مِثْلُ يَمِينِي وَافِيَةٍ  
فَقُلْتُ خُذْهُ هِبَةً بِقُبْلَةٍ      فَصَدَّ عَنِّي وَعَلَتْهُ خَجَلَةٌ  
ثُمَّ نَدِمْتُ غَايَةَ النَّدَامَةِ      وَلُمْتُ نَفْسِي أَكْثَرَ الْمَلَامَةِ  
عَلَيَّ مِزَاحِي وَالرَّجَالَ حُضْرُ      وَهُوَ يَزِيدُ خَجَلًا وَيَحْضُرُ  
فَلَمْ أَزَلْ أُمْسِحْهُ حَتَّى انْبَسَطَ      وَهَشَّ لِلصَّيْدِ قَلِيلًا وَنَشِطَ »  
وقال حمدان الموصلي من آل حمدان ،

« يَا رَسُولَ الْحَبِيبِ وَيَحَاكَ قَدْ أَلَا      قَمِي عَيْلَتِكَ الْحَبِيبُ حُسْنًا وَطَبِيبًا  
وَتَعَلَّمْتُ حُسْنَ الْفَسَاظِهِ تَلَا      لَكَ فَطَرٌ فَتَبَا دُنَا وَمُجِيبًا  
وَلَقَدْ كِدْتُ أَنْ أَضْمَكَ لَوْ لَا      أَنْ يُسَيِّءَ الظُّنُونُ أَوْ يَسْتَرِيبًا  
خَيْفَةً أَنْ يَكُونَنَّ ذَاكَ كَمَا قِي      كَلَّ قَدِيمًا صَارَ الرَّسُولُ حَبِيبًا »  
ولاريب أن الرسل كانوا آئذ غلمانا يدللك قول أبي الطيب :  
« كُلُّمَا عَادَ مَنْ بَعَثْتُ إِلَيْهَا      غَارَ مِنِّي وَخَانَ فِيمَا يَقُولُ »  
وبين هذا المذهب والذي تقدم بون عظيم .

ولآخر منهم . . قال الثعالبي : وكان أبو الحسن الماسرجي ينشد في  
تدريسه مسألة « الحر لا يقتل بالعبد » هذين البيتين وهما لبعض آل حمدان :  
خُذْ وَابْدِمْ هَذَا الْغَزَالَ فَإِنَّهُ      رَمَانِي بِسَهْمِي مُقْلَتَيْهِ عَلَى عَمْدِ  
وَلَا تَقْتُلُونِي إِنِّي أَنَا عَبْدُهُ      وَلَمْ أَرْ حُرًّا قَطُّ يُقْتَلُ بِالْعَبْدِ »

وهذا يحتمل أن يكون في جارية . وكونهما في غلام أشبه .  
وقال الثعالبي : وقال بعض الرواة دخلت على أبي العشائر أعوده في  
علّة هجمت عليه فقلت ما يجد الأمير ، فأشار إلى غلام قائم بين يديه اسمه  
نسطوس كأنّ رضوان غفل عنه فأبق من الجنّة وأنشد :

«أَسْقَمَ هَذَا الْغُلَامُ جِسْمِي بِمَا بَجَفَنِيهِ مِنْ سَقَامِ  
فُتُورٍ عَيْنِيهِ مِنْ دَلَالِ أَهْدَى فُتُوراً إِلَى عِظَامِي  
وَامْتَزَجَتْ رُوحُهُ بِرُوحِي تَنَازُجَ الْمَاءِ وَالْمُدَامِ»

وهل سار أبو الطيّب على هذا المذهب إذ يقول :  
«وَأَغْنِيَهُوْهُ نَفْسُهُ كُلُّ عَاقِلٍ عَفِيفٍ وَيَهْوَى جِسْمَهُ كُلُّ فَاسِقٍ  
وَمَا الْحُسْنُ فِي وَجْهِ الْفَتَى شَرَفًا لَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِهِ وَالْخَلَاتِقِ»  
ثم كرهه طبعه وإلى ذلك الإشارة ؟

«وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتُ تَغْيِيرًا تَكَلَّفُ شَيْءٌ فِي طِبَاعِكَ ضِدُّهُ»  
أم أراد الكناية بالأغيد عن المليحة خشية السيوف التي تقطر دما :  
«تَدَكَّرْتُ مَا بَيْنَ الْعُذَيْبِ وَبَارِقِ مَجَرَّ عَوَالِينَا وَمَجَرَّى السَّوَابِقِ  
وَصَحْبَةِ قَوْمٍ يَدُ بَحُونٍ قَنِيصَهُمْ بِفَضْلَةٍ مَا قَدَّ كَسَرُوا فِي الْمَفَارِقِ»  
أي ببقايا السيوف التي يكسرون في رؤس الأعداء ، أو كما قالت (١٠)  
هند :

«نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقِ الطَّيِّبِ فِي الْمَفَارِقِ  
وَالدُّرُّ فِي الْمَخَانِقِ»

ويكون القنيص العاشق وذلك ببقايا الطيب :  
«وَلَيْلًا تَوَسَّدُ نَا الثَّوِيَّةَ تَحْتَهُ» كأنّ شراهما عنبر في المرافق  
وعن أبي الفتح أنّه أراد الوسائل (هكذا) والصواب الوسائد كما يدل  
سياق الشرح من بعد . قال العكبري وقال أبو الفتح إنّما أراد الرسائل



( هكذا ) وقال الخطيب لم يُردِّد الرسائل ( هكذا ) وإنما أراد مرافق الأيدي لأن الصعلوك المقاتل لا وسادة له ، وقول أبي الفتح هو الصحيح . أ . ه . ولو قال : « وكلا الأمرين وجه » لقارب إن شاء الله .

وذلك أنه كأنه جعل الوسائد على ليل فوق الثوية ، فما فضل من المرافق عنهن مسه الثرى ومس العنبر والثياب المطيبات والحديث المُخْفِيهِ (١١) سماعُ المزاهر على القُطْرُبُلِي فلا تزال له بقية أبد الدهر « وَخُذْ سَمْعِي إِلَيْكَ فَإِنَّ فِيهِ بَقَايَا مِنْ حَدِيثِ كَالْعُقُودِ » — كالدُّرِّ في المخانق —

وليست الثوية هنا هي الموضع الذي قرب الكوفة ، الذي كان به قبر (١٢) أبي موسى والمغيرة بن شعبة — ولعله لم يكن إلا مقابر ، قال حارثة بن بدر الغداني يرثي زياداً :

« صَالَى إِلَهٌ عَلَى قَبْرِ وَطَهَّرَهُ عِنْدَ الثَّوِيَّةِ يُسْفَى فَوْقَهُ الْمُورُ » — ولكن الأرض التي نزلها ضيف ليل . والعرب تقول الثوية لما ارتفع من الأرض وتقول لماوى الإبل ثوية ومن رحل في جمع غفير كان مأوى إبله حيث يبيت . وتقول لمنزل الضيف الثوى . وإنما كان أبو الطيب بالشام وذلك من الكوفة بعيد ، ولعله تعمد هذا اللفظ للتعمية ، ليُظنَّ به ذكرُ عهد من الكوفة .

وأتى الشراح الوهم من قوله من بعد :

« وَكَمْ دُونَ الثَّوِيَّةِ مِنْ حَزِينٍ يَقُولُ لَهُ قَدْ وُمِي ذَا بَدَا كَا وَمِنْ عَذْبِ الرُّضَابِ إِذَا أَنْخَنَّا يُقْبَلُ رَحْلَ تَرْوِكَ وَالْوَرَا كَا يُحَرِّمُ أَنْ يَمَسَّ الطَّيِّبَ بَعْدِي وَقَدْ عَبِقَ الْعَبِيرُ بِهِ وَصَا كَا » وهذه ثوية الكوفة والكوفة دونها — ثم هي بعد لا تخلو من ذكرى ثوية الشام إن كان الحزين بها أراد . والموصوفات في قوله ومن عذب الرضاب (١٣) الخ جواريه بعدما علّمتها الدعة اتخاذا الجوارى .

قالوا شكّا أحد الملوك الأقدمين السّام والوصب فقبل له فى ركوب  
قارب بين عشرين صبايا فى أزر قصار يحفّن به ويتواثبن فى النهر ،  
فشفاه ذلك وجعل يعود إليه كلما أحسّ وصباً أو سامة .

« وَلَيْلًا تَوَسَّدْنَا الثَّوِيَّةَ تَحْتَهُ كَأَنَّا نَرَاهَا عَنَبَرٌ فِي الْمَرَاقِ  
بِلَادٍ إِذَا زَارَ الْحَسَانَ بَغِيْرَهَا حَصَى تُرْبَهَا ثَقْبَنَهُ لِلْمَخَانِقِ  
سَقَتْنِي بِهَا الْقُطْرُ بُلَى مَلِيْحَةً عَلَى كِيَاذِ بِيْنٍ وَعَدِهَا ضَوْءٌ صَادِقٍ »  
وهى التى قد يكون عنها كنى

«سُهُادٌ لِأَجْفَانٍ وَشَمْسٌ لِنَاطِرٍ وَسُقْمٌ لِأَبْدَانٍ وَمِسْكٌ لِنَاشِقٍ  
وَأَغِيدَ يَهْوَى نَفْسَهُ كُلُّ عَاقِلٍ عَفِيفٌ وَيَهْوَى جِسْمَهُ كُلُّ فِاسِقٍ »  
أى ذلك لسوى الشاعر . أولديه المتعتان ، كقول أبى نواس « لهذا

مُحِبَّانَ . . . البيت » (١٤)

«أَدِيبٌ إِذَا مَا جَسَّ أَوْ تَارَ مِزْهَرَ بَلَكَ كُلُّ سَمْعٍ عَنْ سِوَاهَا بِعَائِقٍ  
يُحَدِّثُ عَمَّا بَيْنَ عَمَادٍ وَبَيْنِهِ وَصُدَّ غَاهُ فِي خَدَّيْ غُلَامٍ مُرَاهِقٍ  
وَمَا الْحُسْنُ فِي وَجْهِهِ الْفَتَى شَرَفًا لَهُ وَلَكِنَّهُ فِي فِعْلِهِ وَالْحَلَّائِقِ »

ويقوى أن هذا كناية قوله « وَصُدَّ غَاهُ فِي خَدَّيْ غُلَامٍ مُرَاهِقٍ » ،  
إذ أغيد وحدها تجزىء عن هذا التفصيل . وكأنّ العُكْبُرَى أحسّ بعض الذى  
نرى إذ نبّه إلى أخذ المتنبي من ( الحكيمى ) أبى نواس حيث قال :

«فَتَنَنْتَنِي وَصِيفَةً كَالْغُلَامِ الْمُرَاهِقِ  
هِمَّةَ السَّالِكِ الْعَفِيفِ فِ سَوْءِ الْمُنَافِقِ»

وعن أبى الفرج البغاء أن المراد بالأغيد ههنا غلام بعينه وروايته تحمل (١٥)  
مايكذّبها ( راجع المرشد ٣ - ٣٠٤ ) إذ الذى وصف من الغلمان قدم وهذا  
أديب ماهر بالمزهر ولعلّه أخذ ذلك عن الفارابى ، ولعلّ الفارابى لقى أبا

الطيب وأنس به وكان شيخا متفردا ، شاهد ذلك نفوره من مجلس سيف الدولة ، ومات رحمه الله بعد اتصال أبي الطيب بسيف الدولة بعامين ( ٣٣٩ هـ ) وكان أكثر مقامه بدمشق ، قالوا وكان يحب المياه والبساتين مع الزهد وجفاء في الطبع ومعرفة باللغات وعاروم الماضين . كان فنا . وذكر أبو الطيب ما يشعر بغوطه دمشق حيث قال :

«تَعَوَّدَ أَلَا تَقْضِي الحَبَّ خَيْلُهُ إِذَا الهَامُ لَمْ تَرْفَعِ جُنُوبَ العَلَائِقِ

وَلَا تَرِدَ الغُدْرَانُ إِلَّا وَمَاؤُهُمَا

مِنْ الدَّمِ كَالرَّيْحَانِ تَحْتَ الشَّقَائِقِ»

وهذا التشبيه جاء بعد الصور التي تقدّمته مبينا لجوها كلّ المباينة ، وليس أبو الطيب بن كان يروم مجرد الزخرفة كقول الآخر : (١٦)

«كَأَنَّ مُحْضَمَّ الشَّقِيهِ قِ إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدَ

أَعْلَامُ يَأْقُوتِ نُصْبِ بَنِّ عَمَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرَجَدٍ»

فيبدو هذا كأنّه من ذلك . إذ لا ينبغي مع الصور التي تقدمت أن نغفل صورة الغدران ذات الماء العذب تحت الريحان والشقائق أو كالريحان تحت الشقائق . أليس في هذا نفَسٌ مقالة من بعد :

«أَبُوكُمْ أَدَمُ سَنَ المَعَاصِي وَعَلَّمَكُمْ مُفَارَقَةَ الجَنَانِ»  
ولا نغفل عن قوله في الكلمة نفسها :

«يُفَرِّقُ مَا بَيْنَ الكُمَاةِ وَبَيْنَهُمَا»

يعنى يفرق بين الفرسان ونسائهم والضمير يعود إلى الممدوح وهو سيف الدولة :

«بَضْرُبٍ يُسَلِّي حَرَّهُ كُلَّ عَاشِقٍ»

كأبي الطيب . أتى الظعن : أي النساء الطعينات

« أَتَى الظُّعْنُ حَتَّى مَاتَ طَيْرَ رَشَاشَةٍ  
مِنْ الدَّمِ إِلَّا فِي نُحُورِ الْعَوَاتِقِ » (١٧)  
وهي الشواب الكواعب . وهذا كقوله آنفا :

« كَالرَّيْحَانِ تَحْتَ الشَّقَائِقِ »  
« بِكُلِّ فَلَاةٍ تُنْكِرُ الْإِنْسُ أَرْضَهَا ظِعَانُ حُمُرُ الْحَلَى حُمُرُ الْيَانِقِ »  
وهؤلاء ظعان آل حمدان والشاهد « حُمُرُ الْحَلَى وَالْمَطَايَا وَالْجَلَابِيبِ »  
ويوضح ذلك قوله بعد :

« وَمَلْمُومَةٍ سَيْفِيَّةٍ رَبْعِيَّةٍ يَصِيحُ الْحَصَى فِيهَا صِيَاخُ اللَّقَالِقِ »  
واللقالق من الطير بأصوات كوقع الحوافر  
ثم قال :

« تَوَهَّمَهَا الْأَعْرَابُ سَوْرَةَ مَتَرَفٍ تَذْكُرُهُ الصَّحْرَاءُ ظِلَّ السُّرَادِقِ »  
أي مترف يخرج للصحراء على وجه التزهة ويضرب لها سرادقه ، قالوا  
كان هشام بن عبد الملك يفعل ذلك . وما سمَّاه مترفاً إلا لعلمه أنه مترف  
« فَتَذْكُرْتُهُمْ بِالمَاءِ سَاعَةً غُبِرَتْ سَمَاوَةٌ كَلْبٍ فِي أَنْوْفِ الْحَزَائِقِ »  
وَكَانُوا يَرُوعُونَ الْمُلُوكَ بَأْنٍ بَدَوَا وَأَنْ نَبَتَتْ فِي الْمَاءِ نَبَتُ الْغَلْفِقِ »  
والغلقق ضرب من النبات يطفو على الماء . أراد أن الملوك لا يصبرون  
عن الماء ، نبتوا فيه كنبت الغلقق . والصورة غير بعيدة من صورة الريحان  
تحت الشقائق .

ومكان عناية أبي الطيب بالحصى في هذه الكلمة الجيدة من شعره (١٨)  
يُتَنَبَّهُ لَهُ : « كَأَنَّ حَصَاها عَنَبَرٌ فِي الْمَرَاثِقِ » . « يَصِيحُ الْحَصَى فِيهَا  
صِيَاخُ اللَّقَالِقِ » وفي لفظ اللقالق نفسه حكاية لصوت الحصى كما ترى .  
« حَصَى تُرْبِهَا ثَقْبَنَنْهَ لِلْمَخَانِقِ » .

وفي نونية شعب بَوَّ أن قوله :  
« وَأَمْوَاهُ يَصِلُ بِهَا حَصَاها صَلِيلَ الْحَلَى فِي أَيْدِي الْغَوَانِي »

منظر الحصى ومسته وموسيقا لقالبه وصليله كصليل الحلى . .  
قالت الأندلسية

« يَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَّةَ الْعَدَارَى فَتَلَمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ »  
كل أولئك كان له بقلب أبي الطيب أيما علق . . .

كما علق الحصى بالمرافق من الوسائد أو « طِفْلَةُ الْكَفِّ عِبْلَةُ السَّاعِدِ »  
هل كان رحمه الله فى خواص سيف الدولة الأربعة الذين ذكر ابن  
نخاس كان أنهم صلّوا على أبي نصر الفارابى إذ دفن بظاهر دمشق - بثوية دمشق :  
« وَكَمْ دُونَ الثَّوِيَّةِ مِنْ حَزِينٍ يَقُولُ لَهُ قَدْ وُمِي ذَا بَدَا كَا »  
ولشعر أبي الطيب أصداء تتجاوب . والصدق منهجه أبدا ، قال ابن  
جني ما عرفته إلا صادقا (الخصائص مصر ٢٤٨) . قال فى الدالية التى ودع  
بها ابن العميد :

نَسِيتُ وَمَا أَنْسَى عِتَابًا عَلَى الصَّدِّ وَلَا خَفَرًا زَادَتْ بِهِ حُمْرَةَ الْحَدِّ  
وَلَا لَيْلَةً قَصَّرْتُهَا بِقَصُورَةٍ أَطَالَتْ يَدِي فِي جِيدِهَا صُحْبَةَ الْعِقْدِ  
تَمَنِّي لَدُنَّ الْمُسْتَهَامِ بِمِثْلِهِ وَإِنْ كَانَ لَا يُغْنِي فِتْيَلًا وَلَا يُجْدِي  
وَغِظٌ عَلَى الْأَيَّامِ كَالنَّارِ فِي الْحَشَى وَلَكِنَّهُ غِظُ الْأَسِيرِ عَلَى الْقَيْدِ  
بقصورة أى بمحبوسة مقصورة « حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْحَيَّامِ »  
والقصورة والقصيرة بمعنى وعلى ذلك الرواية الأخرى .

« وَلَا لَيْلَةً قَصَّرْتُهَا بِقَصِيرَةٍ »

وهى غير جيّدة وكأن فيها تعريضا ممّن نسبها إلى أبي الطيب  
إن لم تك أول ما قال ثم أعرض عنه بعد التروى . واستشهد العكبرى بقول  
كثير :

« وَأَنْتِ الَّتِي حَبَّبْتَ كُلَّ قَصِيرَةٍ إِلَى وَمَا تَدْرِي بِذَلِكَ الْقَصَائِرُ  
عَنِتُّ قَصِيرَاتِ الْحِجَالِ وَلَمْ أَرِدْ قِصَارَ الْخُطَا شَرُّ النِّسَاءِ الْبَهَاتِرُ »  
ولم يصنع كثير رحمه الله شيئا بما كان قصيرا أحقق كذابا . . لكأنه رحمه (١٩)

الله مانسب هذا كله إليه إلا للتقليل من قيمة تشييعه فتأمل .

وقول أبي الطيّب مشعر بمعنى القصر ، كعنب ، يدلّك عليه ( أطالت  
يدى في جيدها صُحْبَةَ الْعَقْدِ ) . والقصار مما يَكُنُّ غُلَامِيَاتٍ مَلَاةً :  
« سَقَتْنِي بِهَا الْقُطْرُ بُلْبُلِي مَلِيحَةً » على كاذبٍ من وَعَدِهَا ضَوْءَ صَادِقٍ  
أحسن ما شاء .

إذ في الطول جَهَارَةٌ من تذكير تحمل على مزيد من التأنيث على هذا ( ٢٠ )  
يصح تأويل ما أولنا في قوله : « وَأَغْنَيْدُ يَهْوَى نَفْسَهُ كُلُّ عَاقِلٍ . . .  
البيت » وقوله لابن العميد يصف الطريق :  
« إِذَا مَا اسْتَجَبْنَ الْمَاءَ يَغْرِضُ نَفْسَهُ كَرَعْنُ بِسَبْتٍ فِي إِنْاءٍ مِنَ الْوَرْدِ »  
وروى استحين بالياء وهو جيد — فيه صدى من قوله « كالريحان  
تحت الشقائق » .

وقال أبو منصور : « أنشدني أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي  
هذه الأبيات ولم يسم قائلاً ثم وجدتها في بعض التعليقات منسوبة إلى بعض  
آل حمدان :

« أَجِلْ عَيْنِيكَ فِي عَيْنِي تَجِدُهَا مُشْرَبَةً نَدَى وَرْدِ الْخُدُودِ  
وَصَافِحَنِي تَجِدْ عَبَقًا بِكَفِي يَضُوعُ إِلَيْكَ مِنْ رَدْعِ الْيَنْهُودِ  
وَنَحْدُ سَمْعِي إِلَيْكَ فَإِنَّ فِيهِ بَقَايَا مِنْ حَدِيثِ كَالْعُقُودِ »  
والى هذه المعاني نظرت حفصة الركونية حيث قالت :

« أَزُورُكَ أَمْ تَزُورُ فَإِنْ قَلْبِي إِلَى مَا تَشْتَهِي أُبْدَأُ يَمِيمًا  
فَتَغْرِى مُورِدٌ عَذْبٌ زُلَالٌ وَفَرَعُ ذَوَابْتِي ظِلٌّ ظَلِيلٌ  
وَهَلْ تَخْشَى أَنْ تَظُنَّمَا وَتَضْحَى إِذَا وَافَى إِلَيْكَ بِسَى الْمَقِيلِ  
فَعَجَّلْ بِالْجَوَابِ فَمَا جَمِيلٌ إِبَاؤُكَ عَنْ بُشَيْنَةَ يَا جَمِيلِ »  
قالوا وفيها قتل عبد المؤمن أبا جعفر بن سعيد ( ياقوت ٩ — ٢١٩ —  
٢٢٧ ) والراجح من سياق الثعالبى أنه عَرَفَ مِنَ الْمُنْسُوبَةِ إِلَيْهِ الْأَبْيَاتِ وَكَمَ .

وعسى أن يكون أنباه بذلك الميكالي أبو الفضل ، فقد كان كاسمه من الفضلاء ،  
فأراد ستره .

وقول فتاة آل حمدان — اذ لا تكون قائلة هذا غير فتاة — :  
« أجل عينيك في عيني »

كقول أبي الطيب :

« شامية طالما خلوت بها تبصر في ناظري محيّاها » (٢١)  
وهذا قولها « مشربة ندى ورد الحدود »

« فقبلت ناظري تغالطني وإنما قبلت به فاهها »

وقال أبو الطيب : « لعينيك مايلقى الفؤاد وما لىقى » وقال :

« أفسدت بيننا المودات عيناها » — وقال وهو بفارس :

« إن الدين أقمت واحتملوا أيامهم لديارهم دؤل

الحسن يترحل كلما رحلوا معهم ويتزل حيثما نزلوا

في مقاتي رشاً تديرهما بدوية فتنت بها الحلال »

أو كما قال :

« أين المعيز من الآرام ناظرةً وغير ناظرة في الحسن والطيب »

هذا قوله : « تديرهما » . وقول الفتاة في عجز البيت :

« مشربة ندى ورد الحدود »

كقوله : —

« حيث التقى خدّها وتفتح لبنا نـ وثغري على حميّاها »

وحمرة الخد والدموع التي تنهل عليه والنواظر النجل كل ذلك كثير

الدوران في نسيب الشعراء ، وهو في شعر أبي الطيب قبل أن يصير إلى

حلب سيف الدولة كقوله « أيا خدد الله ورد الحدود » وقوله « بياض الطلي

وورد الحدود » وكقوله « عزيز أسي من دائره الخدق النجل » ولكن في كل

ذلك العموم وليس بموشك أن يشف عن شخص بعينه أو أن يمت بتجربة كقوله



« تُدِيرُهُمَا بَدَوِيَّةٌ فُتِنَتْ بِهَا الْحَلَلُ » « أَفْسَدَتْ بَيْنَنَا الْمَوَدَّاتِ عَيْنَاهَا »  
« تُبْصِرُ فِي نَظَرِي مَحْيَاهَا »

« تَبَلُّ خَدَّيْ كُلَّمَا ابْتَسَمْتُ مِنْ مَطَرٍ بَرَقَتْ ثَنَائِيهَا »

« مَهْأ كُلُّهَا يُوَلِّي بِحَفْنِيهِ خَدُّهُ »

« وَلَا خَفَرًا زَادَتْ بِهِ حُمْرَةُ الْخَدِّ »

« أَلَمْ يَرَهُذَا اللَّيْلُ عَيْنِيكَ رَوَيْتِي »

« إِذَا ظَفِرَتْ مِنْكَ الْعَيُونُ بِنَظْرَةٍ »

« قَفِي تَغْرَمِ الْأُولَى مِنَ اللَّحْظِ مُهْجَتِي »

بثانية والملف الشيء غارمه

« مطاعة اللحظ في الألفاظ مالكة »

لمقلتها عظيم الملق في المقل

وهل كان في خدّها خالٌ يزيد له خدّها احمرارا حين يتورد - أم  
أراد بذلك كبرها : « وَغَضَبِي مِنَ الْإِدْلَالِ سَكْرَتِي مِنَ الصَّبَا » وحسبها  
ونسبها ، ويقوى هذا مكان « فَيَّ » و « مَنِيَّ » من قوله :

« عَوَازِلُ ذَاتِ الْحَالِ فِي حَوَاسِدُ وَإِنْ ضَجِيعُ الْخُودِ مَنِيَّ لِمَا جَدَّ »

يردُّ يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصى الهوى في طيفها وهو راقد

ولاريب أن صاحبة « عوازل ذات الحال » هي الغلامية القصورة ذات

« البعير المقلد الواحد » بآية ماقال :

« مررت على دار الحبيب فحمّحت جَوَادِيَّ وَهَلْ تَشْجُو الْجِيَادَ الْمَعَاهِدُ »

وما تنكر الدهماء من رسم منزل سقتها ضريب الشول فيه الولائد

وإنما كان هذا بصحصحان البادية حيث شتا وصاف . هذا وقولها :

« وصافحني تجد عبّقا بكفى »

يطابق قوله : « يَاطْفُلَةَ الْكَفِّ عُبْلَةَ السَّاعِدِ »

وَنَعَتُ الْكَفَّ فِي الْغَزَلِ قَلِيلٌ وَمَا نَعَتَهُ أَبُو الطَّيِّبِ إِلَّا وَهُوَ يَسْجُلُ  
إِحْسَاسًا . وَقَوْلُهَا :

« يَضُوعُ إِلَيْكَ مِنْ رَدْعِ النَّهْودِ »

أَي مَالَا صَقَّهِنَّ مِنَ الطَّيِّبِ — قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ : « أَلَا أَطِيرُ » أَوْ هَكَذَا (٢٢)  
زَعَمَ أَبُو حَمْزَةَ الْخَارِجِيُّ —  
كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

« وَقَدْ عَبَقَ الْعَبِيرُ بِهِ وَصَاكَا »

وَهُوَ فِي صِفَةِ جَوَارِيهِ بِالْكَوْفَةِ اقْتَبَسَهُ مِنْ صِفَةِ صَاحِبَةِ الْأَيَّاتِ . وَكَوْنُ  
الْعَبَقِ مِنْ رَدْعِ النَّهْودِ هُوَ عَيْنُ قَوْلِهِ : « أَطَالَتْ يَدِي فِي جِيدِهَا صَحْبَةُ الْعَقْدِ » (٢٣)  
وَقَدْ تَأَمَّلَهُ يَعْبَثُ بِهِ فَذَلِكَ قَوْلُهَا تَرِيدُهُ إِلَى دُنُو أَقْرَب :

وَنَحْنُ سَمِعْنَا مِنْ بَقَايَا مِنْ حَدِيثِ كَالْعُقُودِ  
« بَلَا كُلَّ سَمْعٍ عَنْ سِوَاهَا بَعَائِقُ » — وَمِنْ تَأَمُّلِهِ الْعَقْدَ حَيْثُ هُوَ قَالَ :  
« لَهَا بَشَرُ الدَّرِّ الَّذِي قُلِّدَتْ بِهِ وَلَمْ أَرَّ بَدْرًا قَبْلَهَا قُلِّدَ الشَّهْبَا »  
وَهُوَ شَرَحَ قَوْلَهُ فِي الطَّيِّفِ :

« بَتْنَا يُنَاوِلُنَا الْمَدَامَ بِكَفِّهِ »

« سَقَتْنِي بِهَا الْقُطْرُبُلَى مَلِيحَةً »

« مِنْ لَيْسَ يَخْطُرُ أَنْ نَرَاهُ بِبَالِهِ »

« نَجِّنِي الْكَوَاكِبَ مِنْ قَلَائِدِ جِيْدِهِ وَنَنَالُ عَيْنَ الشَّمْسِ مِنْ خُلُخَالِهِ »  
وَهَذَا كَقَوْلِهِ « وَشَمْسٌ لَنَاظِرٌ » وَالْخُلُخَالُ بَقَايَا الْحَدِيثِ أَوْ كَمَا أَشَارَ  
فِي قَوْلِهِ :

« وَقَدْ طَرَقَتْ فَتَاةَ الْحَيِّ مُرْتَدِيًا بِصَاحِبٍ غَيْرِ عَزْهَاءَ وَلَا غَزَلٍ  
فَبَاتَ بَيْنَ تَرَاقِينَا نُدْفَعُهُ وَلَيْسَ يَعْلَمُ بِالشَّكْوَى وَلَا الْقُبُلِ  
ثُمَّ اغْتَمَدِي وَبِهِ مِنْ رَدْعِهَا أَثَرٌ عَلَى ذُؤَابَتِهِ وَالْجَفْنِ وَالْحَيْلِ »  
قَالُوا الصَّاحِبُ غَيْرُ الْعَزْهَاءِ وَلَا الْغَزَلِ هُوَ السَّيْفُ — وَإِنَّمَا أَرَادَ نَفْسَهُ

فجعل السيف كناية ، ونظر إلى قول سُحَيْمٍ :  
« فما زال ثوبى طيباً من ثيابها إلى الحولِ حتى أنهج البردُ باليا »  
أنهج بلى ، والعزْهاة غير العزل .  
يدلُّك على إرادته نفسه قوله :  
« فإمّا ترينى لأقيم ببلدة فآفة غمدى فى دُلوقى وفى حدّى »  
وقد عدلت العواذلُ الحوامدُ ذاتَ الحالِ قبل اتصال أبى الطيّب بسيف  
الدولة فى مقدمة لاميته فى أبى العشائر حيث قال :  
« لاتحسبوا ربّكم ولاطلله أوّلَ حىّ فراقكم قتله  
قد تلفت قبله النفوسُ بكمُ » وأكثرت فى هَواكمُ العَدْلَه  
وقوله تَلَفْتُ كقوله فى الدالية التى قالها بفارس من نفس هذا الوزن -  
« فَحَبِّذا تَلَفَ الصَّقَ ثَدْيِي بِثَدْيِكَ النَاهِد... البيت » ولا يخفى أن هذا هو  
عين قول قول الفتاة : « يَضُوعُ إِلَيْكَ مِنْ رَدْعِ النُّهْدِ »  
« خَلَا وفيه أهلٌ وأوحشنا وفيه صِرْمٌ مُرَوِّحٌ لِبَلِّهِ »  
- الصرم الجماعة من الخيامِ وأهلها وهذا حيث كانت اصطافت أو شتت -  
« لو سار ذاك الحبيبُ عن فلکٍ مارضىَ الشمسَ برجهُ بدله »  
الشمسُ مفعوأة ، وبرجهُ فاعل . وحبّية أبى الطيّب القصُورة القصيرة  
عنده بدر ، فمتى ذكر أنّها شمس كان ذلك من أجل التشبيه أو التفضيل  
كقوله : « شمس لناظر » - وكقوله ههنا « مارضىَ الشمسَ برجهُ » أى  
قصره لا يرضى بالشمس بديلاً منه وهو بدر والغز ببرز السماء كما ترى .  
ولكونها قصُورة قصيرة عبلة غلامية جعلها بدراً فما كان يخفى عنه أن مذهب  
الجاهلية ( مانال أهل الجاهلية كلهم شعري ) تشبيه النساء بالشموس :  
« تبدّت لنا كالشمس بين غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب  
وهذه طُواله كما ترى - وطُواله من قال فيهن :  
« بأبى الشموس الجالحات غواربا اللابسات من الحريرِ جلابياً »  
فقد سمّونَ ليهرنه من الجلابيب ، كما ترى - ثم قال :

« أَحِبُّهُ وَالْهُوَى وَأَدْوَرَهُ      وَكُلُّ حُبٍّ صِبَابَةٌ وَوَلَّاهُ »  
وانما قال « صِبَابَةٌ وَوَلَّاهُ » لما قال من قبل « وَالْهُوَى » وهو يعلم أنَّ الْهُوَى  
ههنا « تَلَفُّ »

« يَنْصُرُهَا الْغَيْثُ وَهِيَ ظَامِيَّةٌ » إلى سواه وسُحِبَتْهَا هَطِيلَهُ  
وهي ظامئة إليه هو؛ أبو الطَّيِّبِ - وصورة هذا السحاب بقيت في  
فؤاده إلى حين زار ابن العميد فقال يصف المطر في طريقه إليه :  
« كَفَانَا الرَّبِيعُ الْغَيْثُ مِنْ بَرَكَاتِهِ      فَجَاءَتْهُ لَمْ تَسْمَعْ حُذَاءَ سَوَى الرِّعْدِ  
إِذَا مَا اسْتَجَبْنَ الْمَاءُ يَعْضُضُ نَفْسَهُ      كَرَعْنِ يَسْبُتُ فِي إِنْاءٍ مِنَ الْوَرْدِ »  
إذا ما استحين كما قال أبو الفتح جيد والكناية لا تخفى ، كأن كل شربة أو  
حسوة إشارة « بقبلة » :

« أَتَذْكُرُ إِذْ تَوَدَّعُنَا سُلَيْمَى      بِفَرْعِ بَيْشَامَةٍ سَقَى الْبِشَامُ » (٢٤)  
ويقوى هذا الوجه والله أعلم قوله :  
« وَأَشْنَبَ مَعْسُولَ الثَّنِيَّاتِ وَاضِحٍ      سَتَرْتُ فَمِي عَنْهُ فَقَبِلَ مَفْرَقِي »  
ثم يقول :

« وَاحْرَبَا مِنْكَ يَا جَدَّ آيَتَهَا      مُقِيمَةً فَأَعْلَمِي وَمُرْتَحِلَةً »  
« عَلَى الْبَعِيرِ الْمَقْلَدِ الْوَاحِدِ »

وهذه صورة أبي العشائر حيث قال :  
« وَفَارِسَ الْأَحْمَرَ الْمُكَلَّلَ فِي      طَبِيِّ الْمُشْرِعِ الْقَنَا قَبْلَهُ » (٢٥)  
وفي البيت نظر إلى قول عنزة  
« أَشْطَانُ بَثْرٍ فِي لَبَّانِ الْأَدْهَمِ » « فَأَزُورَ مَنْ وَقَعَ الْقَنَا بِلَبَّانِهِ »  
ولكنه بعد في أعماقه صورة هودج . هو الأحمر المكمل هنا والمقلد  
الواحد هناك .

« لَوْ خُلِطَ الْمَسْكُ وَالْعَبِيرُ بِهَا      وَلَسْتُ فِيهَا لَخَلَّتْهَا تَفْلِدُهُ »  
أى لا طيب بها .

«أنا ابن من بعْضُهُ يَفوقُ أبا البَـاءِ حَيْثُ وَ النَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهُ»  
وهذا جواب لمن لامها فيه أنه لانسب له مثلاً . ومثل هذا قوله :  
«وانَّ ضَجِيعَ الْخَوْدِ مِئْنَى لِمَاجِدِ»

وهو موضع الاستشهاد وقد تكرر في شعره كقوله :  
«وَلَسْتُ بِقَانِعٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ بِأَنْ أُعْزَى إِلَى جَدِّ هُمَامٍ»  
وقوله :

«وإنَّمَا يَذْكُرُ الْجُدُودَ لَهُمْ مِنْ نَفَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حِيلَهُ»  
كأنه تعريض بهذا العاذل الذي تَنَقَّصَهُ في نفسه ، ثم انتابته نشوة مرح  
شديدة الشبه بنشوته بعد لقاء درب القلة :

«فَخَرَّ لِعُضْبِ أَرْوَحٍ مُشْتَمِلَةٍ وَسَمَهْرَى أَرْوَحٍ مُعْتَقِلَةٍ  
فَلا مَبالَ وَلَا مَدَاجٍ وَلَا وَانٍ وَلَا عَاجِزٍ وَلَا تُكَلِّهِ  
وَدِرَاعٍ سِيفَتِهِ فَخَرَّ لِقَـى فِي الْمَلْتَقَى وَالْعَاجِزِ وَالْعَجَلِ» (٢٦)  
«رَمَى الدَّرْبَ بِالْجُرْدِ الْحِيَادِ إِلَى الْعَدَا»  
«شَوَائِلُ تَشْوَالِ الْعَقَّارِ بِالْقَنَّا»

«وسامع رعته بقافيةٍ بِحَارٍ فِيهَا الْمُتَقَحُّ الْقُـوَالِ  
وَرَبِّمَا يَشْهَدُ الطَّعَامَ مَعِي مَنْ لَا يُساوِي الْخُبْزَ الَّذِي أَكَلَهُ  
وَيُظْهِرُ الْجَهْلَ بِي وَأَعْرِفُهُ وَالْدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمٍ مِنْ جِهَلِهِ»  
لا يكون هذا المسعودي الذي أوصله إلى أبي العشائر وحسده من بعد وصار  
يتناوله عنده ولكنّه ذو خطر تجاهله وهو يعرف قدره ، لعلّه أبوفراس  
والذي لا يساوي الخبز الذي أكّله هو المسعودي وليس موصوف البيتين  
المعرّضُ به فيهما رجلاً واحداً ضربة لازم . وتأمل بعد قوله :

«ويُظْهِرُ الْجَهْلَ بِي وَأَعْرِفُهُ وَالْدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمٍ مِنْ جِهَلِهِ  
مُسْتَحِيًّا مِنْ أَبِي الْعَشَائِرِ أَنْ أُسْحَبَ فِي غَيْرِ أَرْضِهِ حُلَلَهُ»  
هل سأله المدح ليستعلى عليه وإلاّ فما قول أبي منصور : وإنما لم يمدحه  
ومدح من دونه من آل حمدان . . . الله الله وهل كان أبو العشائر دونه ؟ !

« من نَقَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حِيلَهُ » (٢٧)

وقد كان أبو العشائر يحب أبا الطيب ويدنيه ويفهمه .  
« قد هذبت فهمه الفقهامةُ لي      وهذبت شعري الفصاحةُ له  
فصرت كالسيف حامداً يده      لا يحمد السيِّفَ كُلُّ من حمَّله »  
وشبهه بنسب هذه اللامية نسب اللامية « اثلث فإننا أيها الطلل » في  
عضد الدولة ، إلا أنه أجود لعظم التجارب وتمام النضج .  
« اثلث فإننا أيها الطلل      نبكى وترزَم تحتنا الإبل  
أولا فلا عتب على طلل      إنَّ الطلولَ لمثلها فُعل  
لو كنت تنطق قلت مُعتدرا :      بى غير ما بك أيها الرجل  
أبكاك أنك بعض من شُغِفوا      لم أبلِك أنى بعض من قُتِلوا »  
وهذا كما ترى إفتنان لما كان أجمل قبل ، حيث قال :  
« ولا تحسبوا ربكم ولا طلله      أوَّلَ صبِّ فِرَاقِكُمْ قَتَلَهُ »  
القتيل الآن الطلل إذ شتَّان فارسُ والشامُ . والديسار التي ماتت  
هى الشاعر وهو أيضا الواقف عايتها وذلك قوله :  
« إنَّ الذين أقمتَ وأحتملوا      أيَّامُهُمُ لَديارِهِمُ دُولُ »  
والمقيم الشاعر إذ هم عنه بائون  
« الحُسْنُ يرحلُ كلَّما رحلوا      معهم وينزلُ حيثما نزلوا »  
وهذا قوله « مقيمةً فاعلمى ومُرْتَحِلَةً »  
« فى مُعَلَّتَى رِشاً تُدِيرُهُمَا      بدَوِيَّةٌ فُتِنَتْ بِهَا الحِلْسَلُ »  
إذ حلَّت بها وليست منها فمَنظَرها باهر مستطرف .  
« تشكو المطاعم طُولَ هِجَرَتِهَا      وصدودَها ومن السدى تَصِلُ »  
وذلك لتعللها عن العَرُوض وهو تمهيد لقوله بعد  
« ما أسارتُ فى القعبِ من لبن      تَرَكَتُهُ وَهُوَ المسكُ والعسلُ »  
فإذا مُدَّ لها القَعْبُ أصابت منه وأعطت أبا الطيب سُوراً هو المسك والعسل

« لو خُلِطَ المسكُ والعبرُ بها      ولست فيها لخلتها تفلّه »  
 كما أسأرت في يده غدائرها فغمسه في الكأس وصار اللبن خمرا — (٢٨)  
 وقد عبق العبر به وصاكا  
 « قالت ألا تصحوققت لها      أعلممتني أن الهوى ثملُ »  
 أهنا إشارة إلى قوله « وايل توسدنا الثوية تحته . . . البيت » ؟  
 وقد قارب الانطلاق كما ترى ثم اقتضب إلى بتر مفاجيء حيث قال  
 بعد هذا مباشرة :

« لو أن فناخسرا صبحكم      وبرزت وحدك عاقه الغزلُ »  
 وهو تخلص إلى المدح .

وهو اعتذار أيضا إلى فناخسرا أن هذا الغزل الصادق صرفه وقتا عن مدحه . قال ابن قتيبة : « كان بعض الرجّاز أتى نصر بن سيار وإلى خراسان لبني أمية فمدحه بقصيدة تشبيها مائة بيت ومديحها عشرة أبيات إلى آخر ما قال » .  
 ثم هو أمانيُّ .

عاد الشاعر من المشرق وهو أمير ذو كتائب وبرزت وحدها فعاقه (٢٩)  
 الغزل — أي انهزم كما قال أبو الفتح عن أبى الطيّب — وتفرقت كتائبه وأصيبت عند دَيْرِ العاقول . (٣٠)

. . قال ابن خلكان وهو محقق « من الجانب الغربي من سواد بغداد عند دَيْرِ العاقول بينهما مسافة ميلين » أ . ه . فمن زعم أنه قتل أبعد من ذلك لم يصب .

« . . ان الملاح خوادع قتلُ »

قتلنه كما قتلن الربع . . « من الدم كالريحان تحت الشقائق »

« ما كنت فاعلةً وضيئكمُ      ملكُ الملوكِ وشأنك البخلُ »  
 أفتمنعين قري فتفتضحى      أم تبذلين له الذي يسألُ »

لقد كان في أبي الطيّب رحمه الله مرح كثير وطموح أيّما طموح  
« بل لا يَحِلُُّ بِحَيْثُ حَلَّ بِهِ بُخْلٌ وَلَا جُورٌ وَلَا وَجَلٌ »  
ومن الجور هرب والوجَلُ مُلَاحِظُهُ :  
« يَنْصُرُهَا الْغَيْثُ وَهِيَ ظَامِنَةٌ إِلَى سِوَاهُ وَسُحْبُهُ هَطِيلُهُ »  
لازال الغيث والرىُّ والريحان والشقائق والروض —  
« كلما رَحَّبَتْ بِنَا الرُّوضُ قَلْنَا حُلْبُ قَصْدُنَا وَأَنْتَ السَّبِيلُ »  
والرماح كل ذلك أبدا ملء فؤاد الشاعر ، قال :  
« يُشْتَاقُ مِنْ يَدِهِ إِلَى سَبَلٍ »  
— هذا حين أخذ في المدح —

(٣١) « شَوْقًا إِلَيْهِ تَنْبُتُ الْأَسَلُ »  
مسكين أبو الطيّب  
« سَبَلٌ تَطْطُولُ الْمَكْرُمَاتُ بِهِِ وَالْمَجْدُ لَا الْحَوْذَانُ وَالنَّفَلُ »  
وهذان من نبات البادية طيبان . « حَلْبُ قَصْدُنَا وَأَنْتَ السَّبِيلُ » ....  
كما ترى

(٣٢) « وَإِلَى حَصَى أَرْضٍ أَقَامَ بِهَا لِلنَّاسِ مِنْ تَقْبِيلِهَا يَدَلُّ »  
إذا زار الحسان بغيرها حصى تربها ثقبه للمخائق  
ولكن ليس في هذه اللامية المرح الذي في . .  
« وَدَارِعَ سِفْنَتُهُ فَمَخَّرَ لِقَايَ فِي الْمُلْتَقَى وَالْعَجَاجِ وَالْعَجَلَةِ »  
ولكن موسيقا وحزن عميق وبهجة راقصة مع ذلك :  
« مَا أَسَارَتْ فِي الْقَعْبِ مِنْ لَبَنٍ تَرَكَتَهُ وَهُوَ الْمِسْكُ وَالْعَسَلُ »  
« بَدَوِيَّةٌ فَتِنَتْ بِهَا الْحَلَلُ »  
« وَصُدُّودَهَا وَمَنْ الَّذِي تَصِلُ »  
« الْحَسَنُ يَرْحَلُ كُلَّمَا رَحَلُوا مَعَهُمْ وَيَنْزِلُ حَيْثَمَا نَزَلُوا »



« عَلَى الْبَعِيرِ الْمُقَلَّدِ الْوَاحِدِ »  
ومهما يكن من شيء فمندا عسى أن تكون فتاة أبي الطيب التي عذها  
فيه العواذل

« أنا ابن من بعضه يفوق أبا الباحث ... »  
قبل اتصاله بسيف الدولة . وهُنَّ من آل حمدان ، قَصُورَةٌ ، قصيرة  
عبلة الساعد ، غير لثغاء ؟

أليست صاحبة اللامية — لك يامنزل — لثغاء ضاوية : (٣٣)  
« كم وقفة سَجَرَتِكَ شوقا بعدما غَرَى الرقيبُ بنا وَلَجَّ العاذلُ  
دونَ التعانقِ ناحلين كَشَكَلْتَنِي نَصَبٌ أدقهما وضَمَّ الشَّاكِلُ »  
وما أنساه إيتاها ليلُ الثوية إذ هي في القافية صدى حيث قال :  
« وَسَوْقَ عَالِيٍّ مِنْ مَعْدٍ وَغَيْرِهَا قَبَائِلَ لَا تُعْطِي الْقُفْيَ لِسَائِقِ  
قشير وبلعجلان فيها خفيّة كرائين في الفاظِ الشغِ ناطقِ »  
غَرَى الرقيبُ بنا وأما العاذلُ فقد لَجَّ من بعدُ ، وقد رام معنى في قوله :  
« الطيب أنت إذا أصابك طيبه والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل »  
فما استقام له إلا من بعدُ حين أمكنه أن يقول :

« مَا أَسَارَتْ فِي يَدِي غَدَائِرُهَا جَعَلَتْهُ فِي الْمُدَامِ أَفْوَاهَا »  
لتطيب به المدام وقبلته مع المدام وقبَّلتها وقبَّلتها مع المدام وكلام أبي الطيب  
ههنا قمة .

وقد رام معنى أيضا في قوله :

« وَلِذَا اسْمُ أَغْطِيَةِ الْعَيُونِ جَفُونُهَا مِنْ أَنَّهَا عَمَلُ السُّيُوفِ عَوَامِلُ »  
فما استقام له الا بعد عينيها

« إِنَّ لِحَظًا أَدَمْتَهُ وَأَدَمْنَا كَانَ عَمْدًا لَنَا وَحَتَفَ اتِّفَاقُ »

تأمل « كان عمدا لنا » فنظرناه عمدا وكان فيه الموت — تديرهما بدويّة  
فتنت بها الحلل .

«أو عدا عنك غيرُ هجرِكُ بُعْدُ» لأرَارَ الرَّسِيمُ مَخَّ المَنَاقِي»  
 هذا من الغريب الحوشى الذى عيب عليه . أرار أذهب مخ العظم ، جعله  
 رارا ، يقال مخُّ رارٌ ومخَّ رير والمناقى من الإبل سمانها . أى لو كان المانع  
 من لقاءك هو شيء سوى هجرِكُ إذن لطلبنا وصلك بالرسيم — أى سير الابل  
 الشديد — حتى ولو أذهب ذلك مخَّ السمان المناقى من مطايانا

«ولَسِيرْنَا وَلَوْ وَصَلْنَا عَلَيْهَا مَثَلْ أَنْفَاسِنَا عَلَى الْأَرْمَاقِ»

أى ولو وصلنا إليها وهى ونحن على آخر رمق —

«ليس إلاَّ أبا العشائر خَلَقُ» سادَ هذا الأَنَامَ باستحقاقِ

أو كما قال لسيف الدولة من بعد وهو بالعراق :

«نحن أدرى وقد سألنا بنَجْدُ أطويلُ طريقنا أم يَطْطُولُ

وكثيرُ من السُّؤال اشتياقُ وكثيرُ من ردِّه تعليلُ

والمُسَمَّونَ بالأمير كثيرُ والأمير الذى بها المأمُولُ

لَيْسَ إِلَّا كَ يَا عَلَى هُمَامُ سيفه دون عِرْضِهِ مَسْئُولُ»

أهذا تجاوب من أصدقاء تجارب ، أم مجرد مذهب بيان وطريقة أسلوب ؟ !  
 ومنذا عسى أن تكون فتاة أبى الطيّب بعدُ غير عقيلة من آل أبى العشائر الذى  
 « ساد هذا الأ نام باستحقاق » وتعلم بعدُ خبرَ الفائية :

«ومنتسبٍ عندى إلى من أُحِبُّهُ وللنبْلِ حَولى من يَدَيْهِ حَفِيفُ»

وهو خَبَرَانِ أحدهُما الرجل الذى كان عَدُوًّا له فى مجلس سيف الدولة  
 حين أنشد الميمية والآخِرُ أنَّ أبا العشائر قد غضب على أبى الطيّب — قالوا  
 « فأرسل له غلمانا فلحقوا به بظاهر حلب ليلا » — ثم أدْمِجَ هذا الخبر فى  
 خبر الميمية طيًّا له .

وكأن أبا الطيّب كان بأنطاكية فأوجب أمرَ حفيظة أبى العشائر ، زَلَّةً  
 من أبى الطيّب أو وشايةً به أو هما معا أو شيء بينهما ، فأرسل بعد انصرافه  
 من لحق به ، فأدْرِكَ بظاهر حلب ، أو دخلها . وقد أفلت أو استغاث وهو داخِلُها

والنصّ علسي «ظاهر حلب» يشعر أنّه متى دخلها أمن إذ لا يُنتَهكُ جوارَ سيف الدولة شاعره. ولذلك من بعدُ سعى السامريُّ أن يُرَخِّصَ له في دمه . وأفاد أيضا من بعدُ من تجربة هذا الحادث: مدبر وسهام دير العاقول . وليس بعيد، أن كان أبو فراس رأسهم، وأن يكون الذي وقع من أبي العشائر قد كان بتحريض منه . ثم رجحت سابقة الوداد مع قرب الشفيح مع ماجبل عليه أبو العشائر — كاسحه — من دماثة نفس وفكاهة روح .

وفي شعر أبي الطيّب ألفة له تدلُّ على ملازمة ومنادمة ومخالطة، كقوله

آنفا :

« قد هدّبت فهمه الفقاهةُ لي      وهذّبت شعريَ الفصاحةُ له »

وقوله :

« يا ابنَ من كلّما بدّوت بدّالي      غائبَ الشَّخصِ حاضِرَ الأخلاقِ  
لو تنكّرتَ في المَكْرُ لِقومٍ      حلفوا أنّك ابنه بالطَّلّاقِ »

ولا أحسب قوله :

« وأخ لنا بَعَثَ الطلاقَ أليّةً      لتعلنَ بهذه الخرطومِ  
فجعلتُ ردّي عِرْسَه كفارةً      من شُرْبها وشربت غَيْرِ أثيمِ »

كان في أبي العشائر :

ويَنِمُّ عن بعض ما كان يخاصُّ به أبو العشائر أبا الطيب خبر الديوان :

« وقال في أبي العشائر وعنده إنسان ينشده شعرا وصَف فيه بركة في داره الخ . .

« لئن كان أحسنَ في وصفِها      فقد تَرَكَ الوصفَ في الحُسْنِ لك »

قيل إنَّ شاعراً شَبَّهَ أبا العشائر بالبركة وهو عن الواحدى وأضعفه العكبري — والنصّ « إنسان ينشده شعرا » يدلُّ على مكتوم اسمه وشخصه . وماذاك إلّا أنّه من العقائل ، على الأرجح والله أعلم .

أو كما قال مِن قبلُ :

«ديسارُ اللّواتي دارهُنَّ عزيزةٌ» بِطُولِ القِنا يَحْفَظُنَّ لَابالْتَمَآمِ (٣٤)  
 حَسَّانُ الثَّنَى يَنْقُشُ الوَشى مثله إذا مَسَّنَ في أجسامهنَّ النَّوَاعِمِ  
 وَيَبْسِمْنَ عَن دُرٍّ تَقْلَدُنَّ مثله كأنَّ التَّراقى وَشَّحَّتْ بِالْمَبَاسِمِ  
 وهذه ابتسامة مع التفاتة .

وقد رأى جميع هذا من بعدُ عند آل حمدان :

«لها بَشَرُ الدُّرِّ الذي قَلَّدت به ولم أر بدرًا قبلها قلد الشُّهْبَا»

وهي عينها البدر الذي أعطاه المحاق في قوله : (٣٥)

«وقد أَخَذَ التَّمَامَ البدرُ فيهم وأعطاني من السَّقَمِ المَحَاقا  
 وبين الفرعِ والقَدَمَيْنِ نُورٌ يَعودُ بلا أزمَتها النِّيَاقا  
 وطُرفٌ إن سقى العُشَّاقَ كَأَسَاً بها نَقْصٌ سَقَانِيها دِهاقا  
 وَخَصَرٌ تَثَبَّتْ الأَبْصارُ فيه كأنَّ عليه من حَدَقٍ نِطاقا»

أى حزاما تعنجر به وقيل أن السرى حُمَّ لما سمع هذا البيت حسدا (٣٦)  
 لأبى الطيب ثم مات بعد ثلاثة أيام ، والحق أن ذلك لم يكن وإنما سرقه  
 فَقَصَّرَ عنه وذلك قوله :

«أحاطت عيونُ العاشقين بِخَصَرِهِ فيهنَّ له دون النطاقِ نِطاقٌ»

وتفاهة هذا لا تخفى . هذا ، وكأنَّه قد كان الاعتجار على الحصور  
 ديدنا عند نساء آل حمدان فقد روى الثعالبي لابن ناصر الدولة في جارية  
 لهم كانت تُبلى مَعاجِرَها ، يبلِها — لاشك — الغلو في الاعتجار ، قال  
 «وأنشدني» يعنى التلوخي عن ابن ناصر الدولة . . «أيضا قال أنشدني لنفسه  
 في جارية كانت مَعاجِرُها تبلى بسرعة :

«أرى الثيابَ من الكَتَّانِ يَلْمَحُها ضَوْءٌ من البدرِ أحيانا فيبليها

وكيف تُنكرُ أن تبلى مَعاجِرُها والبدرُ في كلِّ حين طالعٌ فيها»

وقد أحسن غاية الاحسان ، والعرب تزعم ان البدر يُبلى الثياب الحلوة —  
 وحسبك قوله الثياب الحلوة !

كم كان أبو منصور بغدادياً مُحَكِّمًا دَرَبَ «على الخدائع وتحنك» (٣٧)  
 — أترى العقيلة ، الإنسان الذى كان ينشد شعراً ، إن كان إلا أخت أبى (٣٨)  
 العشائر مثلاً أليس أبو الطيب يقول ؟ . . .

«لهوى النفوس سريرة» لاتعلم عَرَضاً نظرتُ وخِلْتُ أنى أسلم  
 يا أخت مُعْتَنِقِ الفوارسِ فى الوغى لأخوك ثم أرق منك وأرحم  
 يَرْنُو إليك مع العفاسف وعنده أن المَجُوس تُصِيب فيما تحكم  
 وأخطأ من ظن أن هذا ابن كيغلف :

«راعتك رائحةُ البياض بمفرقى ولو انها الأولى لراع الأسحمُ  
 لو كان يمكنى سفرت عن الصبا فالشيب من قبل الأوان تَلُثمُ»  
 وهذا كقوله :

«مُشِبُّ الذى يبكى الشباب مُشِيبُهُ فكيف تَوَقَّيه وبانيه هادِ مُه  
 وتكملة العيش الصبا وعَقِيْبُهُ وغائب لَوْنِ العارضين وقادمُهُ  
 وما خَضَبَ الناسُ البياضَ لأنه قبيح ولكن أحسنُ الشَّعْرِ فاحمُهُ  
 وأحسنُ من ماء الشببة كُلُّهُ حيا بارق فى فَاِزَةٍ أنا شائمه»  
 الفَاِزَةُ القبة والخيمة — قالوا أراد سيف الدولة — وذلك جازز وكذلك أراد  
 نحو ما قال :

«فى بلدٍ تُضْرَبُ الحِجَالُ به على حِسانٍ ولسن أشباهها  
 لقَيْنَا والحُمُول سائِرَةٌ وهنَّ دُرٌّ فَذُبْنَ أَمْوَاهَا»  
 ثم يقول :

«وفوقَ حواشى كُلِّ ثَوْبٍ مُوجَّهٍ من الدُّرِّ سِمِطٌ لم يُثَقِّبْهُ ناظمه» (٣٩)  
 حُورٌ مقصورات فى الخيام . .

«حِسان الثَنَى يَنْقُشُ الوشَى مِثْلَهُ إذا مِسنَ فى أجسامِهنَّ النَّواعِمِ»  
 وميمية ابن كيغلف ( ٣٣٦ هـ ) وميمية سيف الدولة ( ٣٣٧ هـ ) متقاربتا  
 العهد وكلتاها نظم بأنطاكية أو قريبا منها — وفى ميمية ابن كيغلف إذ أراد

على المديح ، فأبى يقول :

«فلشدّ ما جاوزتَ قدركَ صاعداً ولشدّ ما قرّبتَ عليكَ الآنجمُ  
وأرغتَ ما لأبى العشائر خالصا إنّ الشناءَ لمن يزَارُ فيُنعمُ»  
— وهذا شاهد المِقةِ والورداد —

«ولمن أقمتَ على الحيوانِ بيبابه تَدُنُو فيوجأُ أخدعاك وتنههم»  
— وهذا شاهد العز والمنعة —

«ولمن يهين المال وهو مُكرّم ولمن يَجُرُّ الجيش وهو عرمرم»  
— وهذا شاهد الجاه والندى والسلطان —

«ولمن إذا التقت الكماةُ بمأزقٍ فنصيبه منها الكميّ المَعْلَمُ  
ولربّما أطّر القناةَ بفارسٍ وثنى فقوّمها بآخرَ منهمُ  
والوجهُ أزهَرُ والفؤادُ مُشيعُ والرّمحُ أَسمرُ والحسامُ مصممُ  
أفعالُ من تلد الكرامُ كريمةُ وفيَعال من تلد الأعاجمُ أعجمُ»  
وهذا أشبه بنن وصف بدءا :  
(٤٠)

«لأخوك ثمّ أرقُ منك وأرحمُ»  
«وثنّى وقوّمها بآخرَ منهمُ»  
والوجه أزهَر إلى آخر ما قال .

وهي التي راعتها رائحة البياض بمفرق أبي الطيّب — فلم يخضب (٤١)  
إذ ليس البياض في ذاته بقبيح ولكن عسى التمويه أن يكون قبيحا :  
«ومن هوى كلٍّ من ليست مُموّهةً تَرَكْتُ لَوْنَ مشيبي غيرَ مخضوبٍ  
ومِنْ هوى الصّدق في قولي وعادتيه رغبت عن شعري في الوجه مكدوبٍ  
ليت الحوادث باعثنى الذي أخذت مني بحلمي الذي أعطت وتجريبي

فما الحداثةُ من حِلْمٍ بمناعةٍ قد يُوجدُ الحِلْمُ في الشُّبانِ والشُّيبِ  
وما كرَّرَ أبو الطَّيِّبِ حديثَ الصدِّقِ والشُّيبِ إلَّا وهو يقرَّرُ تجربةَ  
عميقة . ولذلك وثبَ به فؤاده إلى تمنَّى العهدِ القديمِ — هيهات أخت معتقِ  
الفوارسِ في الوغى . ولقد كان هو رحمه الله فارساً وحسبك شاهداً صفاته  
الحيل .

«إذا لم تشاهدْ غَيْرَ حُسْنِ شَيْئَاتِهَا وَأَعْضَائِهَا فَالْحَسَنُ عَنْكَ مُغَيَّبٌ»  
وقال بالشَّامِ يصفُ فارساً ويروِّضه : —

«أَعِدُّهُ لَلطَّعْنِ فِي الْفَيْسَالِيقِ  
وَالضَّرْبِ فِي الْأَوْجُهِ وَالْمَفَارِقِ  
وَالسَّيْرِ فِي ظِلِّ الْوَاءِ الْخَافِقِ  
يَحْمِلْنِي وَالنَّصْلُ ذُو السَّفَاسِقِ»

أخذه من أمرىء القيس : «أَقَمْتُ بِنَصْلِ ذِي سَفَاسِقٍ مِيلَهُ» وهي البريق

«يَقْطُرُ فِي كُمِّي إِلَى الْبَنَائِقِ  
لَا لِحِظِ الدُّنْيَا بَعِيْنَتِي وَأَمِيقِ  
وَلَا أَبَالِي قِلَّةَ الْمُوَافِقِ  
أَيُّ كَبَيْتَ كُلِّ حَاسِدٍ مُنَافِقِ  
أَنْتَ لَنَا وَكُنَّا لِلْخَالِقِ»

وإنَّما كان للعفافِ يودُّ لو قد يرى رأى المجوس (٤٢)

«لهوى النفوسِ سريرة لا تعلم»

وكان إذن هو الذي يرنو . . وعلى هذا فهل كانت هذه التي أشعرنا  
أنها لأبى العشائر أخت مثلاً إنَّما كانت لأبى العشائر زوجة مثلاً ، ولأبى  
الطَّيِّبِ في حكمِ المجاز والرحمة كأخت ، عكس ما كانت عليه حكاية  
جعفر والعبَّاسة في سالف الأساطير . . ؟!

« وإذا الحمائل ما نخذلن بنفنف      إلا شققن عليه ثوباً أخضرأ  
يحملن مثل الرّوض إلا أنّه      أسبى مهابةً للقلوب وجؤزراً »  
« حياءً فائزة في بارق أنا شائمه »  
« فبلحظها تكبرت قناتي راحتي      ضعفاً وأنكرت خاتمى الحنصرا »  
أى اضطرب حتى ارتجفت يدها  
(٤٣) « أعطى الزمانُ فما قبلت عطاءه      وأرادَ لى فأردتُ أنْ أتخيراً »  
« عندَ الممام أبى المسك الذى غرقت  
فى جوده مضرّ الحمرأ واليمنُ  
تحمّلوا حملتكم كلُّ ناجية  
فكلُّ بَيْنَ علىّ اليومِ مؤتمنُ  
ما فى هوادِ جيكُم عن مُهجتي عِوضُ  
إنْ ميتُ شوقاً ولا فيها لها ثمنُ »  
أترى جميع هذا مجرد أسلوب لفظ وطريقة بيان . أم أنّ وراءه قصة من لحم  
ودم كان فيها مصرع الشاعر . . قصة حبّه امرأةً عند آل أبى العشائر .  
« يا طفلة الكفّ عبلة الساعد      على البعير المقلد الواحد »  
الله أعلم أى ذلك كان .



## (٤)

لماذا غادر أبو الطيّب مصر وبها وجد الدعة والأمن ؟ وزعموا أن كافورا وعده الملك ، وأصوب لو قالوا إن من أوفدهم إليه وعدوه ذلك باسمه . وعسى أن يكون قد أذن في ذلك من دون أن يضمه أو يعد بمقاربة ضمانه إذ لا يعقل من مملوك وصل إلى ذروة الملك بالكيد والجد والتدبير أن يظن أن الملك يوصل إليه بغير هذا الطريق ، وأن الشعراء يجازون بالولاية على القصائد . مهما تسم نفسه إلى المدح وحسن الأحداث واقتناء ما كان يقتنى ملوك عصره من النفائس « كالصائح المحكى » مثلا . (١)

ولم يكن بلاط كافور أصحاب نبال يرسلونها في غلس الظلام « خذها وأنا غلام أبي العشائر » ولامفاتيح يشجعون بها الرؤوس في المجالس ، ولكن من ملأ مصر ، أهل سياسة ودمائة طباع ولطف كياسة وظرف ثياب ومجالس وحديث . وكانوا على ثقة أن الخفض في ريف النيل جائزة هي أسنى مايوهب . وأن مد الحبال لبداوة الوحش النفور في أبي الطيّب حتى يأنس إلى ظل هذا الخفض يجوز معه بعض الكذب . وكأن نصحو أبا الطيّب أن ينظم في الأسود . . إنّه يحب الفخر . . وأمر بأيدينا . . ومع توالى المدائح يكون توالى النعم . وأبو الطيّب ينتظر الولاية :

« فتى ما سرينا في ظههور جدودنا إلى عصره إلا نرجى التلاقياً (٢)  
ترفع عن عون المكارم قدره فما يفعل الفعلات الا عذاريا  
وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكاً للعراقين واليا »  
ويعلم في أعماقه أن ذلك انتظار لا يستقيم ولعلّه غير حكيم :

« فقد تهب الجيش الذى جاء غازيا لسائلك الفرد الذى جاء عافيا  
وتحتقر الدنيا احتقاراً مجرب يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا »

قال أبو منصور: «سبحان الله! ما أحسن الحشو بقوله حاشاك» وكان يقال لنحو هذا حشو اللوزينج.

«وما كنت ممن أدرك الملك بالمني ولكن بأيام يشين النواصيا» ويلج أبو الطيب في طلب الولاية:

«وما زال أهل الدهر يشتبهون لي إليك فلما لحث لي لاح فردّه وألقى القم الضحك أعلم أنه قريب بذي الكف الممدّاة عهده فان نلت ما أملت منك فربما شربت بماء يعجز الطير وردّه» (٣) وذلك نيل الولاية بالشعر وما ظفر بمثل ذلك شاعر ذو خطر منذ أن ولي أبو تمام بريد الموصل.

«ووعدك فعل قبل وعد لأنه نظير فعال الصادق القول وعده» مسكين أبو الطيب، وهل وعده إلا ابن حنّابة ومن إليه. (٤)

وقد أعجب أبو الطيب بكافور ووجد إعجاباً منه به وفهما له وأنس عقل — يمازجه استشعار الرضا بما كان يوليه كافور وبلاطه من عناية وإكبار قدر. وأمن أبو الطيب من خوف وانطلقت نفسه كما لم تنطق من قبل.

«وجدت أنفع مال كنت أذخره ما في السوابق من جرى وتقريب» (٥) لما رأين صروف الدهر تغد ربى وفين لي ووقت صم الأنايب فتش المهالك حتى قال قائلها ماذا لقينا من الجرد السراحيب زعم ابن الأثير أن في متن شعر أبي الطيب وهياً وكذب ورب الكعبة... (٦) «تهوى بمنجرد ليست مذهباً للبس ثوب ومأكول ومشروب» وقد وجد الثوب والمأكول والمشروب — مذهب جديد ما ألفه من قبل أهو مقبل عليه فآلفه؟

«يرمى النجوم بعينتي من يحاولها كأنها سلب في عين مسلوب» (٧) وهذا قوله آنفاً:

«إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم»

ونظر إلى أبي الطيب أبو العلاء فشرح حيث قال يذكر قصده  
أمه وفراق بغداد :

« لولا رجاء لقائها لما تبعته  
ولا صحبت ذئب إلا نس طائفة تراقب الجدي في الخضراء مسبوتا »  
وقد يشرح الواضح بالغريب أحيانا .

« حتى وصلت إلى نفس محجة تلقى النفوس بفضل غير محبوب  
في جسم أروع صافي العقل تضحكه »

خلاتق الناس إضحاك الأعاجيب  
تأمل قوله « صافي العقل » — وأما الناس الذين أضحكته أخلاقهم فقد  
كانوا أهل الكياد بحلب :

« فالحمد قبل له والحمد بعد لها وللقنا ولا دلاجي وتأويبي »  
ولأبي الطيب بالخليل صدق غرام  
« وكيف أكفر يا كافور نعمتها وقد بلغنك بي ياخير مطلوب »  
— وهذا نفس من روح مصرى —

« يأيه الملك الغاني بتسمية  
في الشرق والغرب عن وصف وتلقيب »  
كأنه يعتذر به عن تسميته آنفا — واستمر يعتذر فأجاد حيث قال :  
« أنت الحبيب ولكني أعوذ به  
من أن أكون محبباً غير محبوب »  
— وهذا تعريض بحلب وبالولاية كما ترى —

وتوالت عليه نعم كافور سواها :  
« إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية فجودك يكسوني وشغلوك يسلب »  
وذكره الضيعة انصراف عن الولاية كما ترى . وكأنه اقترح اقترحه عليه ابن  
حزابة وأضراجه من باشوات كافور

وَبِمَصْرِ تَعَلَّمَ أَبُو الطَّيِّبِ أَنْ يُلْذَّ الدَّعَةَ وَالْأَمْنَ :

« نَامَتِ نَوَاطِيرُ مَصْرِ عَنْ ثَعَالِيهَا وَقَدْ بَشِمْنَ وَمَا تَفَنَّى الْعَنَاقِيدُ »

ولم لاتنام ان كانت العناقيد لانفنى ؟ !

وزعم بعض الحنّاق أنّ أبا الطيّب أسرّ الهجاء في مدحه لكافور فعلى هذا القياس يكون ههنا أسر المدح في الهجاء الذي هجاه به .

« بَدَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عَظَامِي »

والمطارف والحشايَا نِعَمَ وَأَبُو الطَّيِّبِ بِهِنَّ شَدِيدَ الْإِحْسَاسِ ، كَأَنَّهُ قَدْ كَانَ مُخْدُومًا بِمَصْرِ كَمَا لَمْ يَخْدَمْ بِالشَّامِ .

« إِذَا مَا فَارَقْتَنِي غَسَلْتَنِي كَأَنَّا عَاكِفَانِ عَلَى حَرَامٍ »

قال أبو منصور : « وَأَيْسَ الْحَرَامِ بِأَخْصَصَ بِالْإِغْتِسَالِ مِنْهُ مِنَ الْحَلَالِ »

— وَمِنْ يَكُ مِثْلُ أَبِي الطَّيِّبِ فَقَدْ يَرَى ، مِثْلَ أَحْبَارِ النَّصَارَى ، أَنَّ الْأَمْرَ جَمِيعُهُ حَرَامٌ—وَأَنَّ الْحَلَالَ يَجِبُ الْاِقْتِصَادُ فِيهِ كَمَا ذَكَرُوا مِنْ تَعَالِيمِ طُومَا (٨) أَكُوَايْنَسَ .

« وَلِلْخَوْدِ مِئْتَى سَاعَةٍ ثُمَّ بَيْنَنَا فَلَاةٌ إِلَى غَيْرِ الْإِقَاءِ تُجَابُ »

وقد شرب الكأس وطرب بمصر الى تهزّم الشجو البعيد—ولعلما سمع (٩)

سواقى النيل :

« أَصَيْخَرَةٌ أَنَا مَالِي لَا تُحَرِّكْنِي هَذِي الْمَدَامُ وَلَا هَذِي الْأَغَارِيدُ »

وقد كان شرب وطرب عند أبي محمد بن طغج وهو يهوى نفسه إلى مصر والنيل في الزمان القديم .

« وَوَقْتُ وَفَى بِالْدَّهْرِ لِي عِنْدَ وَاحِدٍ وَفَى لِي بِأَهْلِيهِ وَزَادَ كَثِيرًا شَرِبْتُ عَلَى اسْتِحْسَانِ ضَوْءِ جَبِينِهِ وَزَهْرٍ تَرَى لِلْمَاءِ فِيهِ خَرِيرًا »

وقد وقف عند عدوة النيل وراعه :

« وَسَمَمْنَا بِهَا الْبِيدَاءَ حَتَّى تَغَمَّرَتْ مِنَ النَّيْلِ وَاسْتَنْدَرَتْ بِظِلِّ الْمَقْطَمِ »

وقد سجّل ههنا احساس الوارد للنيل من القفر . . يبل قدميه ويغترف بيديه

وَيَمْسَحُ وَجْهَهُ وَيَأْوِي إِلَى الظِّلِّ . . . « رَبُّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ »  
« وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَّ السَّوَاقِيَا » وهل البحر إلا النيل . (١٠)  
« وَبَحَّرَ أَبُو الْمَسْكَ الْهَمَامَ الَّذِي لَهُ عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وَعُبابٌ »  
وقد فهم معنى الحياة ومعنى الجلود ومعنى الأهرام — ولكنه ابن الصحراء  
هرب منها ومن الفناء واليه يعود « وكم هارب مما إليه يثول »  
« أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانُ مِنْ بُنْيَانِهِ مَا قَوْمُهُ مَا يَوْمُهُ مَا الْمَصْرَعُ  
تَتَخَلَّفُ الْآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا حِينًا وَيُدْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَتْبَعُ »  
وبمصر أفاد رقة ورآها :

« فَرَبَّمَا جَزَتْ الْإِحْسَانَ مُوَلِّيَهُ خَرِيدَةٌ مِنْ عَذَارَى الْحَيِّ مِكْسَالٌ »  
وقد أحسنت إليه وأحسن إليه فيها الزمان :

« صَحَبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا  
وَتَوَلَّوْا بَغْضَةً كُلُّهُمْ مِنْهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أَحْيَانَا »  
« كَلِيلُ تَوَسَّدْنَا الثَّوْبِيَّةَ » . . . (١١)  
« رُبَّمَا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لِيَالِيَهُ وَلَكِنْ تُكَدِّرُ الْإِحْسَانَا »  
وهذا بمصر — وأوشك أن يرضى أبو الطيّب بها الاستقرار . فقد صار بعد  
طلب الضيعة إلى الطلب غير المبين بشيء :

« فَارْمِ بَنِي مَا أَرَدْتَ مِنِّي فَإِنِّي أَسَدُ الْقَلْبِ آدَمِي الرُّوَاءِ  
وَفُؤَادِي مِنَ الْمَلُوكِ وَإِنْ كَا ن لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعْرَاءِ »  
هذا بعد أن أمره كافور من حيث هو شاعر أن يصف دارا بناها —  
ويكون الناصحون قد قالوا له — دع ذكر الضيعة الآن وأظهر اخلاصك  
للأمير فهو يجيبك بلا ريب . . . قل له أنت ذو كفايات . . . لا شاعر فقط . .  
وإن من الشعر لحكما ولكن الشعراء يقولون مالا يفعلون . (١٢)

« يَارَجَاءَ الْعُيُونِ فِي كُلِّ أَرْضٍ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ أَنْ أَرَاكَ رَجَائِي  
وَلَقَدْ أَفْنَتِ الْمَفَاوِزُ خَلِيلِي قَبْلَ أَنْ نَلْتَقَى وَزَادِي وَمَائِي »

« لَيْتَ الْحَوَادِثَ بَاعَتْنِي الَّذِي أَخَذَتْ  
مِنْنِي بِحُلْمِي الَّذِي أَعْطَتْ وَتَجْرِيئِي »  
« كَأَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ فِي مَسَامِعِهِ قَمِيصٌ يُوسُفَ فِي أَجْفَانِ يَعْقُوبَ »  
وقد خرج أبو الطيّب من مصر وهو يعلم أنه ملاق الموت، والموت أقطع  
منظرا من الذل :

« وَمُرَادُ النَّفْسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ نَتَّعَادِيَ فِيهِ وَأَنْ نَتَّفَانِي  
غَيْرَ أَنْ الْفَتَى يُلَاقِي الْمَنَآيَا كَالْحَاتٍ وَلَا يُلَاقِي الْهَوَانَا »  
وقد صار من التصريح بالطلب المبهم إلى التلميح :  
« وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فُطَانَةٌ »

ومن قبلُ إلى الفكاهة الممزوجة بالحزن  
« وَقَدْ وَصَلَ الْمَهْرُ الَّذِي فَوْقَ فَخْذِهِ  
مِنْ اسْمِكَ مَا فِي كُلِّ جَيْدٍ وَمَعْصَمٍ  
لَكَ الْحَيَوَانُ الرَّأَكِبُ الْخَيْلَ كُلَّهُ  
وإن كَانَ بِالنَّيِّرَانِ غَيْرَ مُوسَمٍ  
وَلَوْ كُنْتُ أَدْرِي كَمْ حَيَاتِي قَسَمْتُهَا  
وَصَيَّرْتُ ثُلُثِيَّهَا انْتِظَارَكَ فَاعْلَمْ  
وَلَكِنَّ مَا يَمْضِي مِنَ الْعُمُرِ فَاثٌ  
فَجُدْ لِي بِحِظِّ الْبَادِرِ الْمُتَغَنَّمِ  
وَمِثْلِكَ مَنْ كَانَ الْوَسِيطَ فَوَادُهُ  
فَكَلَّمَهُ عَنِّي وَلَمْ أَتَكَلَّمْ

وبعيد ما بين هذا والتحدى الذي كان منه بحلب :

« أَسِيرٌ إِلَى إِقْطَاعِهِ فِي ثِيَابِهِ عَلَى طَرَفِهِ مِنْ دَارِهِ بِحُسَامِهِ  
وَمَا مَطَرٌ تَنِيهِ مِنَ الْبَيْضِ وَالْقَنَا وَرُومُ الْعَبِيدِ هَاطَلَاتُ غَمَامِهِ  
فَتَى يَهَبُ الْإِقْلِيمَ بِالْمَالِ وَالْقُرَى وَمَنْ فِيهِ مِنْ فُرْسَانِهِ وَكِرَامِهِ

وَيَجْعَلُ مَاخُولَتُهُ مِنْ نَوَالِهِ جَزَاءً لِمَا خُولَتْهُ مِنْ كَلَامِهِ «  
وقد كانت في بلاط حلب بقايا بداوة يفهمها ويقوى على مراسها  
ولكن أسلوب الحضارة الموعَّل فيها كان له امتحانا عظيما . وقد زعم البديعي  
أن من إساءته — كان — ذكره لون كافور . وما كان ليذكره لو لم يسأل أو  
أشير عليه به .

وقد أحسن حيث قال في دار كافور حيث يشرف هو منها :  
«تَفْضَحُ الشَّمْسُ كُلَّمَا ذَرَّتْ الشَّمْسُ نُسُ بِشَمْسٍ مَنِيرَةٍ سَوْدَاءُ»  
— ومن عجب التوافق بين الشعراء نعت شكسبير لشرفة جوليت فهو قريب (١٣)  
من هذا —

«إِنَّ فِي ثَوْبِكَ الَّذِي الْمَجْدُ فِيهِ لَضِيَاءٌ يُزْرَى بِكُلِّ ضِيَاءٍ  
أَمَّا الْجِلْدُ مَلْبَسٌ وَابْيَضَاضُ النَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ ابْيَضَاضِ الْقَبَاءِ»  
وأعسر مركبا من أمر اللون ماعمد إليه أبو الطيب من تهوين أمر الجنس ،  
وكان له من أسلوب العبادة وَسُمُوتِ التقوى ما أسعفه في جرائته على  
ذلك ، كقوله :

«أَمَّا يَفْخَرُ الْكَرِيمُ أَبُو الْمَسْكِ بِمَا يَبْتَنِي مِنَ الْعِلْيَاءِ  
لَا بِمَا يَبْتَنِي الْخَوَاضِرُ فِي الرِّيفِ وَمَا يَطْبِي قُلُوبَ النِّسَاءِ»  
ولا يخلو هذا الكلام من التعريض ببعض «الباشوات» . . . إلا أنه  
خفى المدخل جدًّا . . . مبارزة بشفار رقيقة بين ذكاء البدوي ونفاسة من  
يكون قد جعل بنفس عليه مكانه عند الأسود .

ومما يؤكد ما نرى من دفع ما ذكره البديعي ، أن الثعالبى لم يذكر شيئا  
من أمر الإشارة إلى لون كافور فيما عدد من باب إساءة الأدب بالأدب  
بل عدَّ ذلك من محاسنه حيث يقول : «وكقوله :

«فَجَاءَتْ بَنَاتُ إِنْسَانٍ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بِيَاضًا خَلْفَهَا وَمَاقِيَا

وهذا أحسن ما يمدح به ملك أسود ولانهاية لحسنه وشرف معناه وجودة تشبيهه وتمثيله « . ا . ه .

وأخطأ الذين مننوا أبا الطيب باسم كافور إذ لم يقدروا أنه بحكم تفوقه كان ينبغي ألاّ يُساس بما يساس به سائر أصحاب المطالب والطموح . وأنه وإن يطمئن به مقام الدعة ، وتعرض نفسه عن طلب الولاية ، ما كان ذلك لينسيه ما وعدوه وما مننوه أول الأمر بحال ، وأن هذا تارك في نفسه من المرارة حزناً ، وأنه متى علم أن كافورا لم يكن مصدر الوعد كان استفظاعه ما خدع به أشد ، ومن هنا يبدأ الكيد له وعليه ، وكان امراً صلباً العود صعب المراس — هذا الذي أنطقه بسياسة الملك والنفس بعد مصرى حضارى :

« صار ما أوضع المحببون فيه من عتاب زيادة في الوداد  
وكلام الوشاة ليس على الأحباب سلطانة على الاضداد »  
ولا كذلك ما بين أبا الطيب وكافور

« إنما تنجح المقالة في المرء إذا صادفت هوى في الفؤاد  
ولعمري لقد هزرت بما قيل فألفت أوثق الأطواد  
وأشارت بما أبيت رجال كنت أهدى منها إلى الإرشاد »  
كابن حنزابة وأصحابه الدبلوماسيين

« قد يُصيب الفتى المشير ولم يجهد ويشوى الصواب بعد اجتهاد »  
هل أشار أبو الطيب على كافور في هذا الأمر ؟ لقد ارتقى مركبا صعبا ؟ ولا يكون الفتى المشير إلا ضربا من الكناية عن نفسه وإلا كان تعريضا بمن استشار كافور وخالف وقد تعلم أبو الطيب بمصر أن يخفى التعريض أو (١٤) لا يلتم به على أية حال ، والله تعالى أعلم .

وكان الذين تمرس بهم في مصر دهاة أهل أغوار . وكان ابن حنزابة



يخسده على الأرجح ، من شواهد ذلك مانقل الثعالبي عن ابن جني قال  
بمعرض الحديث عن البيت :

« أزورهم وسوادُ الليل يشفعُ لي وأنثى وبياضُ الصبح يُغري بي »  
« حدثني المتنبي وقت القراءة عليه قال لي ابن حنزابة وزير كافور ،  
أحضرت كتبي كلها وجماعة من الأدباء يطلبون لي من أين أخذت هذا  
المعنى ، فلم يظفروا بذلك . وكان أكثر من رأيت كتباً » .

وهذا من ابن حنزابة ملق عتيق ، ودعواه تكليف جماعة من الأدباء  
هو المشعر بالحسد — وعلم أبي الطيب ذلك منه هو الذي قوى عنده قبول  
خبره كما ترى .

أما مانقل من أن أبا الطيب مأتى بمصر إلا من جهة تركه مديح ابن  
حنزابة فليس بشيء اذ ما كان ليمدحه من غير وساطة كافور .

قال ابن خلكان ، وذكر الوزير المغربي في كتابه أدب الخواص ،  
الوزير أبا الفضل جعفر المذکور : « وأجاريه شعر المتنبي فيظهر من  
تفضيله زيادة تنبيه على ما في نفسه الخ » فهذا يقوى ما قدمنا .

وقد أنس أبو الطيب إلى فاتك المجنون بالفيوم كأنسه من قبل إلى أبي  
العشائر — ولتنسم نفس البادية عنده .

« تُغير منه عاتى الغارات هيبتُه ومن له بأقاصى البر أهمال  
له من الوحش ما اختارت أسنته عيرٌ وهيئٌ وخنساء وذيال » (١٥)  
وكأن أهل حلب اتصلوا بابن حنزابة ومن حول كافور وابتدأت حرب  
السياسة والوشاية — إبطان الهجاء في المديح — ذكر اللون — التعريض بأن  
الأستاذ خصى — كل هذا يهمس به كيدا ويبلغ كافورا . وروى ابن خلكان  
أن كافورا وعد أبا الطيب ولاية بعض أعماله « فلمّا رأى تعاليه في شعره  
وسُمُوّه في نفسه ، خافه وعوتب فيه فقال ، يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد  
صلى الله عليه وسلم أما يدعى المملكة مع كافور ، حسبكم . » وما وعد

كافور ولكن نسب ذلك إليه يدلك قول أبي الطيّب :  
« وَوَعْدُكَ فِعْلٌ قَبْلَ وَعْدٍ لِأَنَّهُ نَظِيرُ فَعَالٍ الصَّادِقِ الْقَوْلِ وَعَدَهُ  
فَكُنْ فِي اصْطِنَاعِي مُحْسِنًا كُجْرَبَ

يَبِينُ لَكَ تَقَرُّيبَ الْجَوَادِ وَشَدُّهُ »

فهذا كأنّه يسأله وعدا فإذا كان الوعد كان الفعل، وكان ذلك إحسانا وتجربة،  
ويذكره أيضا مانسب إليه من وعد إذ لا يمكن أن ينسب إليه عند أبي الطيّب،  
وليس هو حقا مصدره — وعلى هذا التأويل ظاهر لفظ البيت .

وما عاتب كافورا من أحد . ولكنها أقاويلٌ وحربٌ أعصاب . ويبلغ  
ذلك أبا الطيّب وكافورا قال البديعي : « وسأل أبو الطيّب كافورا أن يوليه  
صيداء من بلاد الشام أو غيرها من بلاد الصعيد » — تأمل شاهد التزويق  
والتأليف — « فقال له كافور انت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين  
سمحت نفسك إلى النبوة » — هذا قيل لكافور « فان اصبحت ولاية وصار  
لك اتباع فمن يطيقك ؟ ! »

وما كان في شعر أبي الطيّب لكافور من تعالٍ يوحشه منه، ولكن كان  
مدحا خالصا مجودا .

« وما كُلُّ هَؤُلَاءِ جَمِيلٌ بِفَاعِلٍ وَلَا كُلُّ فَعَالٍ لَهُ بِمَتَمٍّ  
فَدَى لِأَبِي الْمَسْكِ الْكَرَامِ فَإِنَّمَا سَوَابِقُ خَيْلٍ يَهْتَدِينَ بِأَدْهَمِ  
أَغْرَ بِمَجْدٍ فَدِ شَخْصَنَ وَرَاءَهُ إِلَى خُلُقٍ رَحْبٍ وَخُلُقٍ مُطَهَّمِ  
إِذَا مَنَعَتْ مِنْكَ السِّيَاسَةُ نَفْسَهَا قَفِيفٌ وَقَفْفَةٌ قُدَّامَهُ تَتَعَلَّمِ  
يَضِيقُ عَلَى مَنْ رَآهُ الْعُذْرُ أَنْ يُرَى

ضَعِيفَ الْمَسَاعِي أَوْ قَلِيلَ التَّكْرَمِ »

وروي عن أبي الفتح أنّه يجعل هذا داخلا في الهجاء على معنى أن مثله  
في الخسة إذا ساد فلا عذر لأحد ألاّ يسود . ولعلّ هذا من تبريرات أبي  
الطيّب من بعد . لما خبثت نفسه على كافور . والقول ما قال ابن القطاع :

« الهجاء هو أن يقول إنَّ كافورا قد ضيَّقَ عليَّ ، ولانفع لي منه ، ولا جاء لي عنده ، وإنَّه ينتفع بخدمتي ، ولو أنَّه قال هذا لشخص لخاف أن يتصل بكافور فيكون فيه هلاكه . » — وكذلك فعل من بعد .

وقد وقف أبو الطيّب أمام كافور وقفة ، وعمل الآخرون له في الخفاء . فالتعالى الذي ذكر ابن خلكان إنَّما كان ماصنف من وقية فيه بناء على شعره القديم .

قال أبو منصور : « وما زال في برد صباه إلى أن أخلق برد شبابه وتتضاعفت عقود عمره يدور حُبُّ الرياسة في رأسه ، ويظهر ما يضم من كامن وسواسه في الخروج على السلطان ، والاستظهار بالشجعان ، والاستيلاء على بعض الأطراف ويستكثر من التصريح بذلك مثل قوله :

«لقد تصبَّرتُ حتى لات مصطبرٍ فالآن أفحَمَ حتى لات مقتحمٍ  
لأتركنَّ وجوه الخيل ساهمةً والحربُ أقومُ من ساقٍ عليَّ قَدمٍ  
والطعنُ يُحرقُها والزجرُ يُقلِّقُها حتى كأنَّ بها ضَرْباً من اللَّحمِ  
قد كالتها العوالي فهني كالحة كأنما الصَّابُ مذكُورٌ عليَّ اللِّجمِ  
بكل مُنصَلتٍ ما زال مُنتظري حتى أدلَّتْ له من دَوْلَة الخدم  
شَيْخ يرى الصَّلواتِ الحَمْسَ نافِلَةً

ويستحيلُ دم الحُجَّاجِ في الحَرَمِ »

وقوله :

« سأطلبُ حقِّي يانقنا ومشايخٍ كأنَّهمُ من طول ما التَّموا مُردُ  
ثِقَالٍ إذا لاقوا خِفَافٌ إذا دُعُوا كثيرٍ إذا شَدُّوا قَلِيلٍ إذا عُدُّوا  
وطعنٌ كأنَّ الطَّعنَ لا طعنَ عنده وضربٌ كأنَّ النَّارَ من حرِّه بردُ  
إذا شئتُ خفَّتْ بي عليَّ كُلُّ سابعٍ

رجالٌ كأنَّ الموتَ في فَمِها شَهْدُ »

وقوله :

«ولا تحسبنَّ المجدَّ زَقاً وقِيِنَّةً» فما المجد إلاَّ السيِّفُ والفتكة البكر  
وتَضْرِيْبُ أعناقِ الملوك وأن تُرى لك الهَبَوَاتُ السُّود والعَسْكَرُ المجر  
وتركك في الدنيا دويّاً كأنما تداول سمع المرء أنمله العَشْرُ»

وقوله :

« وان عَمَّرتُ جَعَلتُ الحرب والدَّةَ » والسَّمُّهَرِيَّ أخا والمشرقيَّ أبا  
بيكلٍ أشعث يلقى الموت مُبْتَسِماً حتَّى كأنَّ له في قتله أرباً  
قح يكاد صَهيلُ الخيل يَقدِّفه من سرَّجه مرحاً بالغزو أو طرباً  
الموتُ أعذَرُ لي والصَّبرُ أجملُ بي والبرُّ أوسعُ والدُّنيا لمن غلبا »

وكان كثيرا ما يتجشم أسفارا بعيدة أبعد من آماله الخ . . . » فمثل « دولة  
الخدم » و « سأطلب حقي » « وتضريب أعناق الملوك » « وترك الدوى » مما  
يفسد إنشاده صفاء المجلس عند مثل كافور متى ما أريد به حِاقُ الكيد . وما (١٦)  
كان أبو الطيِّب ، إذا زير في مجلسه للدرس إلاَّ آمنا ينشد أصناف هذا ويُسْتَمْلَاهُ  
فيمليه وما يعلم أنَّ السم في الدسم . وربما كان يترجم لنفسه . فيتصل أمثال  
ابن حنرابة بأمثال ابن خالوية فيجدون من سالف أمره بالشام أخبارا وأساطير  
كدعوة النبوة . . .

ولعله ماسمى المتنبي إلاَّ بقوله :

« ما مُقامي بأرض نخلَةٍ إلاَّ كمُقام المسيح بين اليهود  
أنا في أمة تداركها الله غريبٌ كصالح في ثمود »

كما لقب المثقَّب بقوله « وثقَّبن الوصاوص للعيون »  
ويدلُّ على اتصال الأسباب أو نوع من اتصال الأسباب بين أعداء أبسى  
الطيِّب بحلب وأعدائه بمصر ما أشيع من موته في مجلس سيف الدولة وبلوغ  
ذلك إيَّاه فقال :

«يا من نُعِيْتُ عَلَى بُعْدٍ بِمَجْلِسِهِ كُلِّ بَما زَعَمَ النَّاعُونَ مُرْتَهَنٌ  
كم قد قُتِلَتْ وكم قد مُتُّ عِنْدَكُمْ ثُمَّ انْتَفَضَتْ فزال القبر والكفن»

تأمل قوله « قتل » . قال البديعي : « ثم وقعت الوحشة بينهما » يعنى  
بينه وبين كافور « ووضع عليه العيون والأرصاد خوفا من أن يهرب ،  
وأحس المتنبي الشر ، قال الوحيدى كنت بمصر وبها أبو الطيب ووقفت من  
أمره على شفا الهلاك ، ودعتنى نفسى لحب أهل الأدب إلى أن أحثه على  
الخروج من مصر فخشيت على نفسى أن يشيع ذلك عنى وكان هو مستعداً  
للهرب وإنما فات أظاير الموت ومخالب المنية من قرب وهو جنى ذلك على  
نفسه لأنه ترك مدح ابن حنابلة وهو وزير كافور والمقرب منه وهو مع  
ذلك من بيت شريف أهل وزارة ورياسة الخ . . . . . وإذا كان أبو الطيب  
مستعداً يراقب الشر فما معنى استحثاث الوحيدى له ؟

وأمثال الوحيدى هذا كانوا — على الأرجح — هم السعاة فيما بين  
مصر وحلب ولعلَّ أبا الطيب لم ينعه أحد بحلب وإنما قيل ذلك اختباراً له ،  
وإرجافاً به على وجه الإرهاص بما كان يتوقع أعداؤه من خاتمة أمره وانفعل  
أبو الطيب :

«رَأَيْتُكُمْ لَا يَصُونُونَ الْعِرْضَ جَارَكُمْ وَلَا يَدِرُّ عَلَى مِرْعَاكُمْ اللَّسَانَ  
جَزَاءَ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمْ مَكَلٌّ وَحِظٌ كُلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمْ ضَغْنٌ  
وَتَغَضُّبُونَ عَلَى مَنْ نَالَ رِفْدَكُمْ حَتَّى يُعَاقِبَهُ التَّنْغِصُ وَالْمِنَنُ  
فَغَادِرُ الْهَجَرِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ يَهْمَاءُ تَكْذِيبُ فِيهَا الْعَيْنُ وَالْأَذُنُ  
تَحِبُّو الرِّوَاسِمَ مِنْ بَعْدِ الرِّسَمِ بِهَا وَتَسْأَلُ الْأَرْضَ عَنْ أَخْفَاقِهَا الثَّفِينِ  
إِنِّى أَصَاحِبُ حَلْمَى وَهِيَ بَيْتُ كَرَمٍ وَلَا أَصَاحِبُ حَلْمَى وَهُوَ بَيْتُ جُبْنٍ»

وهذا يقوله فى نفسه لأهل مصر فى بلاط كافور

وَلَا أَقِيمُ عَلَى مَالٍ أَذِلُّ بِهِ وَلَا أَلْدُّ بِمَا عَرِضَى بِهِ دَرَنُ  
وهذا كقوله « إِذَا نَلْتُ مِنْكَ الْوَدَّ فَلِمَالُ هَيْنُ »

«سَهَرْتُ بَعْدَ رَحِيلٍ وَحَشَّةً لَكُمْ ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيرِي وَارْعَوِي الْوَسْنَ»  
قال أبو منصور «ولما سمع سيف الدولة البيت الذي يتلوه وهو قوله :  
«وإن بليت بُودٌ مثل ودّكم فإنّني بفراقٍ مثله قسيمٌ»  
قال سار وحق أبي .

ولعلّ أبا الطيب لم ينشد هذه القصيدة كافورا وإن كان بعد هذا يقول :  
«أبلى الأجلّة مُهْرِي عند غيركم وبُدِّلَ العُدْرُ بالفسطاط والرّسن»  
«عند الهمام أبي المسك الذي غرقت في جوده مُضَرُّ الحمراء واليمن  
وإن تأخر عني بعض موعيده فما تأخر آمل ولا تهـنـن»  
«هو الوفي ولكنّي ذكّرتُ له مودةً فهو يبذلُها ويمتَحِنُ»  
ولكن كافورا كان يقدّم السياسة على مودّات الرجال . واصطناع خاصة  
رجاله ، واستبقاء طاعتهم ، وموادعة سعاة حلب ، كان ذلك أولى بالعناية  
من أطماع أبي الطيب . وإنّما كان شاعرا .

وقلق أبو الطيب الى مال له بالرملة ، كما كان قلق من قبل الى الفيوم  
واستأذن كافورا فقال له : «نحن نبعث في خلاصه ونكفيك» ويلالينه ويطاييه  
ودبّ الشك الى نفس «أوطيلو» الأبيض . . وأنشأ يقول :

«أَتَحْلِفُ لَا تُكَلِّفُنِي مَسِيرًا إِلَى بَلَدٍ أُحَاوِلُ فِيهِ مَالًا  
وَأَنْتَ مُكَلِّفِي أَنْبَى مَكَانًا وَأَبْعَدَ شُقَّةً أَشَدَّ حَالًا  
إِذَا سِرْنَا عَلَى الْفُسْطَاطِ يَوْمًا فَلَقْنِي الْفَوَارِسَ وَالرَّجَالَ  
لِتَعْلَمَ قَدْرَ مَنْ فَارَقَتْ مِنِّي وَأَنْتَ رُمْتَ مِنْ ضَيْمِي مُحَالًا»  
ولعلّه أنشدها من كان يثق به فبلغت ، مع أمثال :

«سأطلب حقّي بالقنا ومشايخ»

«وكلُّ ما قد خلّق الله ومالم يَخْلُقْ

مُحْتَقِرٌ فِي هِمَّتِي كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي»

ومن ثمَّ بدأت قصة الحبس وأكل الأزواد. كلما استأذن أبو الطيب حلف (١٧) عليه كافور ، بين ملاينة واختبار ومطل . وهو بعد موظف عليه عمل الشعر .

« إنما التهنِئَات للآ كفاء »

« عَدُّوك مَدْمُومٌ بكل لسان »

وله جار (١) ، هو عند أبي الطيب جائزة ينطلق بعدها إن شاء أنى شاء ، أو يُعْطَى الأولاية ، أمّا أن يُصَارَ به إلى أن يأكل من الجائزة ، فذلك أكل زاده ، سيّان ذلك فى الدينار الذى أخذ من الحاجب والستمائة التى أفاد من كافور . وأنشأ يقول :

« لو كان ذا الآ كلُّ أزوادنا      ضيفاً لأوسعناه إحسانا  
لكننا فى العين أضيفُسه      يُوسِعنا زوراً وبهتاناً  
فليته خلتى لنا سُبُلنا      أعانهُ الله وإيَّانا »

ولعله أنشدها من كان يثق به ، فبلغت ابن حنّابة أو بلغت كافورا . . .  
وقع من الوحشة بعد ما لا يصلح ، وأنشأ أبو الطيب يقول :

« صحب الناس قبلنا ذا الزمانا      وعناهم من شأنه ما عنانا »  
وشكا فيها الدهر ولم ينشدها كافورا ، وحثّ نفسه على الرحيل ، وإن كان مُرادُه البقاء مع الدعة فى ريف مصر لا التَّعَرُّضَ للمهالك التى كان يعلم أنّها منتظرة خارجها .

« وإذا لم يَكُنْ من الموت بُدٌّ      فمن العَجْز أن تكونَ جباناً  
كلُّ ما لم يَكُنْ من الصَّعب فى      الأنفس سهلاً فيها إذا هو كانا »

---

(١) الجارى هو الراتب الجارى كالمهايات الآن مثلاً

وَبُشِّتْ حَوْلَهُ الْعِيُونَ وَالْأَرْضَادُ كَمَا قِيلَ ، وَالرَّاجِحُ أَنَّ كَافُورًا لَمْ يَكُنْ يَبَالِي  
أَلَّا يَظْفَرُ بِهِ مَتَى أَفْلَتَ ، أَوْ تَعَمَّدَ أَلَّا يَفْعَلَ ، إِذْ بَقَاءَهُ لِيَمْدَحِهِ كَانَ يَرِيدُ ،  
لَا بَقَاءَهُ لِيَهْجُرَهُ . . . قَالُوا وَجَّهَ «رَوَاحِلُ خَلْفَهُ إِلَى جِهَاتٍ شَتَّى فَلَمْ يَلْحَقْ» —  
وَذَلِكَ آيَةٌ أَنَّهُ لَمْ يَبَالِ . . . . . مَجْرَدُ حِفَازٍ عَلَى مَظْهَرِ هَيْبَةِ الدَّوْلَةِ . وَقَدْ خَابَ  
ظَنُّهُ فِي كَافُورٍ كَمَا خَابَ ظَنُّهُ فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ مِنْ قَبْلِ .

كَانَ يَرْجُو مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ أَمِيرَ الْعَرَبِ الَّذِي تَصْلَحُ عَلَيْهِ ، وَقَدْ وَجَدَ  
فِيهِ مِنْ ذَلِكَ مَخَايِلَ قَوَّتْ عِنْدَهُ ذَلِكَ الرَّجَاءُ . وَلَكِنْ سَيْفُ الدَّوْلَةِ مَا كَانَ إِلَّا مِنْ  
أُمَرَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي عَصْرِ الطَّوَائِفِ ، وَعَلَى رَأْسِ أَسْرَةٍ أُخِذَتْ فِي  
الْإِنْخِلَالِ . مِثْلًا أَمْرَ نَاصِرِ الدَّوْلَةِ أَخُوهُ بِقَتْلِ عَمِّهِ سَعِيدٍ ، وَالِدِ أَبِي فِرَاسٍ  
فَعَصَرَتْ مَذَاكِيرَهُ حَتَّى مَاتَ . وَقَلَعَتْ سَخِينَةً أُمَّ أَبِي فِرَاسٍ — عَيْنُهَا لَمَّا (١٨)  
بَلَغَهَا أَنَّهُ قَتَلَ وَرُمِيَتْ جِثَّتُهُ لِلْكَلاَبِ !  
(١٩)

« وَلَا فِي مَنْ جَنَازَتُهَا تَجَارٌ يَكُونُ وَدَاعُهَا نَفْضُ النِّعَالِ »  
وَكَانَ أَبُو الطَّيِّبِ عَارِمًا فِي ، مَزَاجِهِ قَرْمَطِيَّةٌ ( يَسْتَحِلُّ دَمَ الْحُجَّاجِ فِي  
فِي الْحَرَمِ )  
(٢٠)

« كَالَّذِي قَامَ بِجَمْعِ الزَّنْجِ بِالْبَصْرَةِ وَالْقَرْمَطِيُّ بِالْأَحْسَاءِ » (٢١)  
قِيلَ وَاتَّبَعَتْ نُبُوْتَهُ بَادِيَةُ كَلْبٍ . وَمَا كَانَ لِيُخْلُوَ مِنْ أَخْلَاطٍ مِنْ مَنْ  
تَبَعُوهُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ سُودَانٌ ، عَلَى آيَةِ حَالٍ ( فِي خَبَرِ أَبِي سَعِيدِ الْجَنْابِيِّ  
صَاحِبِ الْقَرَامِطَةِ — ٢٨٦ هـ — وَانْضَمَّ إِلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنْ بَقَايَا الزَّنْجِ وَاللُّصُوصِ )  
وَمَا يَخْلُو — مَعَ الْفَهْمِ — مَنْ أَنْ يَكُونَ تَوَدَّدَ إِلَى كَافُورٍ بِفَضْلَةٍ مَا كَانَ يَتَوَدَّدُ بِهِ  
إِلَيْهِمْ وَإِنْ يَكُونَ رَأَى فِيهِ « ابْنُ شَعْبٍ » مِمَّنْ جَمَعَ صَاحِبُ الزَّنْجِ بِالْبَصْرَةِ  
يَرْبِطُهُ وَإِيَّاهُ أَنَّهُ هُوَ أَيْضًا ابْنُ الشَّعْبِ الثَّائِرُ :

« وَجَنَّبَنِي قُرْبَ السُّلَاطِينِ مَقْتَتَهَا وَمَا يَتَقَتَضِينِي مِنْ جَمَاجِمِهَا النَّسْرُ »  
« أَرَانِبُ غَيْرِ أَنَّهُمْ مُلُوكٌ مُفْتَتِحَةٌ عِيُونُهُمْ زِيَّامٌ »  
وَلَكِنْ كَافُورًا مَا كَانَ مِنْ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ فِي شَيْءٍ . وَأَغْلَبَ الرَّأْيُ أَنَّهُ



اخْتُطِفَ صغيراً ببعض الجبال فيما بين النيلين وعلياً زغاوة ثم خُصِيَ في  
قرى طريق القوافل ، ليكونَ في بيتٍ موسرٍ أو قصرٍ منيف .

حكى عن المتنبي أنه قال : « كنت إذا دخلت على كافور أنشدته  
يضحك الى ويبش في وجهي إلى أن أنشدته

ولما صار وُدُّ الناس خيباً جزيت على ابتسام بابتسام  
« وصرتُ أشكُ فيمن أصطفيه لعلمي أنه بعضُ الأنام »

قال ، فما ضحك بعدها في وجهي إلى أن تفرقنا ، فعجبت من فطنته  
وذكائه . . . وقد كان الناس يتحامونَ اللحن في مجلسه . ومن سخرية  
الأقدار بأبي الطيب أن مقاله في الملوك انعكس عليه ، فادعى جهم ،  
ولازمهم ، واطعموا النسر من جمجمته .

والتفت ينظر بعين الغيظ إلى ابن حنزابه وأضرابه من طبقة البلاط  
الحاكة آنثد :

« أغايةُ الدين أن تُحفوا شواربكم يا أمةً ضحككت من جهلها الأمم »  
ولملى حضرة كافور وهو في الثياب البيض ، أسودَ شد يد السواد بصاصاً (٢٢)  
« كأنَّ الأسودَ اللَّابِيَّ فيهم غرابٌ حوَّلَه رَحْمٌ وبوم »

وكلهم عبيدٌ وبهاثم ، موالهم وصميمهم . .

« ويلمها خُطَّةٌ ويلمَّ قابلها لمثلها خُلقَ المَهْرِيَّةُ القودُ  
وعندها لَذَطَعَمَ الموت شاربُهُ إن المنيَّةَ عندَ الذَّلِّ قِنْدِيدُ  
وشتان نجا الجرد السراحيب ، عشيَّةَ شرقي الخدالي وغربُ

« عَشِيَّةَ أحفى الناس بى من جفَوته وأهدى الطريقين التي أنجب »  
من نجا المهرية القود — الذي إنَّما كان نجا إلى المنيَّة .

وهل كان كافور مثقوب المشفر كبعض ماتصنع القبائل في أعالي السودان ؟  
« وأنَّ ذا الأسود المثقوب مشفره تُطيعه ذى العضاريط الرعايد »  
لعلَّه كان مثقوب الأذن منهدل المشفر فجمع أبو الطيب بينها وذلك قوله :

«أم أذنه في يد النخّاسِ داميةً أم قدّره وهو بالفلسّين مردود؟!»  
وحقق ابن خلدّان أنّ الإخشيد اشترى بثمانية عشر ديناراً . وما ذلك بثمان  
زهيد .

والذى غاط أبا الطيّب أنّ هذا العبد استهان بقدره هو الحر . . فأثر عليه العبيد  
أمثال ابن حنّابة

«بها نبطيٌّ من أهل السّواد يُدرّس أنساب أهيل الفلا»  
وعاد أبو الطيّب إلى ما كان أحسن ما علم فقال ، فمسخه ، ليكون أسوأ  
ما يعلم فيقول :

«العبدُ ليس لحرٍّ صالحٍ بأخ لو أنّه في ثياب الحرِّ مؤلّود  
لا تشتر العبدَ إلاّ والعصا معه إنّ العبيد لأنجّاسٌ منّا كيد»  
وكما أعمل ذكاه يدفعه الطمع والرجاء في مدح الشمس المنيرة السوداء (كان  
أسود بصاصاً) ، أعماله في ذم التجارب التي اختزنها عقله الباطن أيام الرق  
فجعلته يصنع بأبى الطيّب من الامتهان والاستصغار ما صنع .  
قال يودع عضد الدولة :

«فدى لك من يُقَصِّرُ عن مداكا فلا مَلِكٌ إذَنْ إلاّ فِدَاكا  
ولو قلنا فدى لك من يُساوى دَعَوْنَا بالبقاء لمن قَلَاكا  
وآمنّا فداءك كُـلَّ نَفْسٍ ولو كانت لمملكة ملاكا  
ومن يَظُنُّ نَشْرَ الحبِّ جُوداً وينصِبُ تحسّت ما نثر الشُّبَاكا»  
كأن يُمنّح جائزة ثمّ يحبس من بعد ليعخدم ويمدح

«ومن يبلّغ التراب به كراه وإن بلغت به الحال السُّكاكا»  
هذا كافور – والسُّكاك بضم السين هو الجو والهواء – وكانت حاله الظاهرة  
كأنها في السماء إلاّ أنّ حاله الباطنة التي كان يريه إيّاها عقله الباطن في منامه  
كانت في الخضيض .

«وإنّك لاتدرى ألونلك أسودٌ من الجهل أم قد صار أبيض صافيا»

أى فارق « شعبية الزنج » الذين يتبعون الثائرين أمثال أبى الطيّب ، وتأنق مع المحفوفى الشوارب من الأنباط البيض حوله فهو يظن نفسه أبيض مثلهم . . عنده عقدة اللون .

وكأن أبا الطيّب لم يكن يرى السواد فى ذات نفسه عيبا بآية إتباعه ذكر (٢٣) السواد صفة أخرى كلما ذكره ، كقوله : « كأن الأسود التلابى الخ » « وأن ذا الأسود المثقوب مشفره الخ » « فكيف الحصية السود » « من علم الأسود المخصى » « وأسود مشفره نصفه » . وإذا كان ابيضاض النفس « خيرا من ابيضاض القباء » فاسودادها شر من اسوداده ، وإنما الجلد ملبس ، واسودادهما كارثة . وصار « الخلق المطهم » قبحا .

« وشعر مدحت به الكركدن بين القريض وبين الرقى »  
« وتعجبني رجلاك فى النعل إننى رأيتك ذا نعل وان كنت حافيا  
فان كنت لا خيرا أفدت فإننى أفدت بلحظى مشفرىك الملاحيا  
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحداد البواكيا »  
قال العكبرى « وقد صرح فى هذا البيت بجميع ما كان أخفاه فى مدحه بقوله فى غير هذه :

« وما طربى لما رأيتك بدعة » لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب »  
وليس مقال العكبرى بصواب ، وإنما رجع أبو الطيّب يتأول ويلتمس لنفسه وجوه التبرير .

« ولولا فضول الناس جئتك مادحا بما كُنت فى سرى به لك هاجيا  
تظن ابتساماتى رجاء وغبطة » وما أنا إلا ضاحك من رجائيا »  
وهذا شعر صنعه لیسمعه المصريون لروح النكتة فيه وما كان إلى ذلك سبيل فكتمه حتى خرج . كم قد حرص ، رحمه الله ، على البقاء بمصر .  
ولكن كيد حلب اتصل بالفسطاط فلم يكن له إلا الفرار .  
« ألا كل ما شية الخيزلى فدى كل ما شية الميبدى »

والماشيات الخيزلى هنّ الخارجات من الحمام بالفُسْطَاط . . . كأنّ له نفسا  
كانت تراوده علىّ البقاء .

« وكل نجاة بجأويّة خنوف وما بى حُسْنُ المشى  
ولكنهن حبالُ النجاة وكيدُ العداة وميطُ الأذى  
ضربت بها التّيه ضَرْبَ القمارِ إمّا لهذا وإمّا لهذا  
والذين أعدّوا له السودان فى كفر عاقب ، ومن كان علىّ رأسهم  
بين مصر والعراق كانوا عليه حراسا يُسرُّون مقتله فاحترس كل الاحتراس  
« ليتعلم مصرٌ ومن بالعراق ومن بالعواصم أنى الفتى  
وأنى وفيتُ وأى أبيتُ وأنى عتوت علىّ من عتا »  
هذا يقوله لقومه فى الكوفة . . . طلبت الملك ومدحت الملوك وهأنذا أعود  
اليكم . وليس بعد هذا جميعه فى شعر أبى الطيّب مرارة جقد كالح علىّ  
كافور كما فى هجائه ابن كيغلغ ، اذ هجاه وهو حى . .

« يمشى بأربعة علىّ أعقابه تحت العلوج ومن وراء يلجم  
وجفونه ما تستقرُّ كأنها مطروفة أوفت فيها حصرم  
وإذا أشار محدثا فكأنه قرد يقهقه أو عَجُوز تلطم  
وتراه أصغرَ ماتراه ناطقا ويكون أكذب ما يكون ويقسم  
والذلّ يظهر فى الدليل مودة وأودّ منه لمن يود الأرقم »  
ثم هجاه لما بلغه أنّه قتله غلماناه فقال :

« إن مات مات بلا فقد ولا أسف أو عاش عاش بلا خلّق ولا خلّق  
منه تعلّم عبدا شقّ هامته خون الصديق ودّس الغدر فى الملق  
وحلف ألف يمين غير صادقة مطرودة ككعوب الرّمح فى نسق  
لولا اللّثام وشىء من مشابهة لكان الأم طفل لُفّ فى خرق

كلامٌ أَكْثَرَ من تلقى وَمَنْظَرُهُ مما يَشْتَقُّ عَلَى الآذان والحدق  
وأمرٌ ما وقع فى هجائه لكافور وَخَزْ لنفسه وتقرع ، إذ بلغ به كَرَاهِ السُّكَاك (٢٤)  
ليصحو ويجد أن حاله فى الحضيض .

«أَنْوَلُكُ (١) من عَبْدٍ ومن عرسه  
العَبْدُ لا تفضل أخلاقه  
لا يُنْجِز الميعادَ فى يومه  
فلاتُرَجَّ الحَيْرَ عند أمرىء  
وإن عراكَ الشَّكِّ فى نفسه  
أى إلى العبيد ، أو كما قال :

« إنَّ العبيد لأنجاس مناكيد »

والمراد ههنا هجاء جنس الرق والأرقاء لاجنس السواد . . ومصدر  
الهجاء خيبة أمل الشاعر لا اعتقاده . . كأنَّه يرجع به كارها إلى اعتقاد عامة  
الناس . وموضع ملامة النفس ظاهر فى جميع هذا . ومن أمرٌ ملام به  
نفسه قوله :

« ما كنت أَحْسِبُنِي أَحْيَا إلى زَمَنِ يُسِيءُ بى فيه كَلْبٌ وهو محمود »  
كأنَّه التمس من يوافقه على ملامة كافور فى مطله إيَّاه فلم يجد ، لما كانت  
عليه الحال من التزام سَمَتِ الطاعة وضبط الأنفس من أجل الحضارة والولاء  
وأراد أبو الطيب تحقيقاً لقوله فى ابن كيغلف أن اللثام يتشابهون أن يجد مشابه  
منه فى كافور .

(١) أى أشد حمقاً من العبد من سَلَطَ العبد على نفسه

« جَوَّعَانِ يَأْكُلُ مِنْ زَادِي وَيَمْسِكُنِي  
لكي يقالَ عَظِيمُ القَدرِ مَقصودُ »  
فقد أثبت أنه عظيم القدر مقصود كما ترى . ولم يكن ليستقيم له غير  
ذاك وقد عذره حيث قال :

« أولى اللثام كويفيرٌ بمعذرة  
في كل لؤمٍ وبِعِضُّ العُذْرِ تَفْنِيدُ  
وذاك أن الفحولَ البِيضَ عاجزةٌ  
عن الجميلِ فكَيْفَ الحِصْيَةِ السُّودُ  
فاستوى الفحل الأبيض والأسود الحصى  
« أرانبٌ غير أنهمُ ملوكٌ مفتحة عيونهم نيامُ »  
وكافور خير منهم ولام أبو الطيّب نفسه ، إذ خالف سبيله الأولى حين رام  
تضريب أعناق الملوك . . ومع ذلك قد بقيت صورة النيل والدعة المصرية  
والصبايا الخارجات من الحمام عالقة بفؤاده :

« وكان أطيّب من سيّفى مضاجعةً  
أشباه رونقه الغيدُ الأمايدُ  
أكلماً اغتال عبيدُ السوء سيّده  
أو خانه فلكه في مصرَ تمهيدُ  
صار الحصى إمام الآبقين بها  
فالحرُّ مستعبدٌ والعبدُ معبودُ »  
هل طمعت نفسه إلى أن يكون هو إمام الآبقين ؟  
« ساداتُ كلِّ أناسٍ من نفوسهم  
وسادةُ المسلمين الأعبُدُ القُرُمُ »  
وهذه بقية من روح الثورة التي ثار بسماوة كلب —  
« بكل منّصلتٍ ما زال منتظري حتى أدكّت له من دولة الخدم »

كأن المسلمين هم « الشعب » لا كافور وبلاطه . . يقوم من ادعى النبوة بعد  
محمد صلى الله عليه وسلم ألا يدعى المملكة مع كافور ؟!  
«ألا فتى يورد الهندي مُهْجَتَهُ حَتَّى تَزُولَ شُكُوكُ النَّاسِ وَالتُّهَمُ  
فإنه حُجَّةٌ يُؤْذِي الْقُلُوبَ بِهَا مِنْ دِينِهِ الدَّهْرُ وَالتَّعْطِيلُ وَالْقِدَمُ»  
هذا كأنه صدى من أيام :

« سأطلب حتى بالقنا ومشايخ . . . »

واِحْتِمَالُ الْأَذَى وَرُؤْيَا جَانِبِ غِذَاءِ تَضَوَّى بِهِ الْأَجْسَامُ  
وسرعان ما يخفت الصدى حين يغمره صوت التجربة الطويلة الحزين .  
«ما أقدر الله أن يخزي خليقته ولا يُصدّق قوما في الذي زعموا»  
ذلك بأن مِصْرَ مما يُثَبِّتُ وَجُودَهُ . . ومن حقّ أبى الطيّب أن يشكر لها  
كما شكر للخيل إذ أوصلته إليها .

« وكيف أكَفِّرُ يا كافورُ نعمتها وقد أتيتك بى يا خيرُ مطلوب »  
ومن آية شكره أن شعره المصرى آمن لا يستشعر خوفاً ، لافى مدحه ولا  
فى هجائه — بل هو مطمئن غاية الاطمئنان حضارى النكهة :

« أما فى هذه الدنيا كريم      تزولُ به عن القلبِ المموم  
أما فى هذه الدنيا مكانٌ      يُسَرُّ بأهله الجارُ المقيم  
تشابهتِ البهائمُ والعبدى      علينا والموالى والصميم  
إذا أتتِ الإساءة من لئيمٍ      ولم أَلَمْ المُسِيءَ فَمَنْ أَلومُ »  
وقد كان أبو الطيّب مُرّاً ساخن النفس

« أقراراً أَلَدُّ فوق شرار      ومراماً أْبَغَى وظُلُمى يُرام  
دُونَ أن يَشْرِقَ الحِجَازُ وَنَجْدٌ      والعراقانِ بالْقَنَا والشَّامُ »  
وبلغ غاية ذلك فى ميمّة « من شحمه ورم » :

«أنا الذى نَظَرَ الأعمى إلى أدبى      وأسمعت كلماتى من به صممُ  
أَنام مِيلَءَ جُفُونى عن شواردها      ويسنهرُ الخلق جرّاًها ويختصمُ

وجاهلٍ مدّه في جهله ضحكى      حتى أتته يدُ فراسّةٍ وفم  
إذا نظرت نيوبَ الليث بارزةً      فلا تظنن أن الليث يتسم  
ومُهجةٍ مُهَجَّتِي من همٍّ صاحبها      أدركتها بجوادٍ ظهره حرّم  
رجلاه في الركض رجلٌ واليدان يدُ

وفعلُهُ ما تريد الكف والقَدَمُ  
ومُرْهَفٍ سِرَّت بين الحَافِلَيْنِ به  
حتى ضَرَبْتُ ومَوَجُّ الموتِ يلتطم  
فالحَيْلُ واللَّيْلُ والبيداءُ تعرفُنِي  
والضَّرْبُ والطَّعْنُ والقِرْطَاسُ والقلمُ  
صَحِبْتُ في الفلكواتِ الوَحْشَ منفرداً  
حتى تَعَجَّبَ مِنِّي القُورُ والأَكَمُ  
كم تَطْلُبُون لَنَا عَيْباً فيعجزكم

ويَكْـفُرُهُ اللهُ ما تَأْتُونَ والكُرمُ  
والفتاة التي على البعيرِ المقلدِ الواحِدِ . . . .

« ما أَبْعَدَ العَيْبَ والنقصانَ من شرفي  
أنا الثريّا وذانِ الشَّيْبِ والهَرَمِ  
ليت الغمامَ الذي عندي صواعقه  
بُزِيلُهُنَّ إلى من عِنْدَهُ الدِّيمُ »

أبى فراس وابن خالويه ولفّهم جميعاً . . . .

« أرى النوى تَقْتَضِيْنِي كلَّ مرحلةٍ  
لا تَسْتَقِيلُ بها الوخّادةُ الرُّسُمُ  
لئن تَرَكن ضُمَيْرًا عن ميامننا

ليَحْدُثَنَّ لِمَن ودّعتهم ندم



إذا تَرَحَّلْتَ عن قومٍ وقد قدروا  
 ألاَّ تُفارقِيهم فالراحلون همُ  
 وقد رحل كافور عنه لاهو عن كافور  
 « مِنْ عبيدى إن عِشْتُ لى ألفُ كافو  
 رولى من نذاك ريف ونيل »  
 — هيهات —

« شَرُّ البلاد مكانٌ لا صديق به  
 وَ شَرُّ ما يكسبُ الإنسان ما يَصِمُ »  
 وَ شَرُّ ما قَنَصَتْه رَاحَتِي قَنَصُ شُهْبِ البُرْاةِ سِوَاةٍ فيه والرخم  
 بأى لفظٍ نقول الشعر زِعْنِفَةً تَجُوزُ عندك لا عُرْبٌ ولا عجم  
 وما عني بهذا إلا أبا فراس . . وكأنه طعن فى نسبه ، والله أعلم .  
 وقد جعل اللفظ كما ترى عنوان البيان ، وهو إن شاء الله كذلك ، وما  
 يروم النقد من فصل المعنى عنه ضرب من شق الشعر . والله دره اذ قال  
 يذكر عضد الدولة

« تُشْرِقُ تيجانه بغُرَّتِه إِشْراقَ أَلْفاظِه بِمعْنَاهَا »  
 وقد كان أبو الطيّب فى دهره الأول صيدحا ، يجمع إلى مرارة  
 الشكيمة أرنَ الحماسة وحيوية الشباب وحادّة الطموح (٢٥)  
 « فياليت ما بينى وبَيْنَ أَحِبَّتِي من البُعْدِ ما بَيْنِي وبين النَّوَابِ  
 يَهُونُ على مثلى إذا رامَ حَاجَةً وَقُوعُ العِوَالِي دُونَهَا والقَوَاضِيبُ  
 كَثِيرُ حَيَاةِ المرءِ مِثْلُ قَلِيلِهَا يَزُولُ وباقى عُمُرِهِ مِثْلُ ذَاهِبِ  
 إِلَيْكَ فاني لست مِمَّنْ إذا اتقى عِضَاضُ الأَفَاعِي نام فوق العقارب  
 أَتَانِي وعِيدُ الأَدِيعَاءِ وَأَنْتَهُمُ أَعَدُّوا لى السُّودَانِ فى كَفْرِ عَاقِبِ »  
 ما أعظم جِهارة هذا الشعر وأشجى رنينه  
 « فمالى وللدُّنيا طلابى نُجُومُهَا وَمَسْعَاىَ مِنْهَا فى شُدُوقِ الأَرَاقِمِ »

من الحِلْم أن تستعملَ الجهلَ دونه إذا اتسعت في الحِلْم طُرُق المَظَالِمِ «  
ولم يأخذ هذا من الجعدي « ولاخير في حلم إذا لم الخ » إلا من حيث ظاهر  
المعنى وإنما أخذ من بشار « إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن الخ » والشبه طريقة  
التأني والمنهج وروح الاقتداء من حيث فخامة الأرب وجلاله

«وَأَنْ تَرِدَ الْمَاءَ الَّذِي شَطَرَهُ دَمٌ فَتَسْقِي إِذَا لَمْ يَسْقِ مِنْ لَمْ يَزَاحِمِ  
وَمَنْ عَرَفَ الْيَوْمَ مَعْرِفَتِي بِهَا وَبِالنَّاسِ رَوَى رُحْمَهُ غَيْرَ رَاحِمِ  
فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفَرُوا بِهِ وَلَا فِي الرَّدَى الْجَارِي عَلَيْهِمْ بَأْثَمِ»  
وبعد هذه الآفاق البعيدة الأغوار أصداء الكهنوت والعرافة : (٢٦)  
«أَرَى دُونََ مَا بَيْنَ الْفِرَاتِ وَبَرْقَةٍ ضَرَابًا يُمَشِّي الْحِيلَ فَوْقَ الْجَمَاجِمِ  
وَطَعْنَ غَطَارِيفٍ كَأَنَّ أَكْفَهُمْ عَرَفْنَ الرُّدَيْنِيَّاتِ قَبْلَ الْمَعَاصِمِ  
حَمَّتْهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ  
سُيُوفَ بَنِي طُغْجٍ بَنِ جُفِّ الْقِمَاقِمِ»

أو كما قال الآخر

« قَتَلْنَا بَعْدَ اللَّهِ خَيْرَ لِسِدَاتِهِ ذُؤَابُ بُنِّ أَسْمَاءَ بِنِ زَيْدِ بِنِ قَارِبِ »  
قيل لو شاء لبلغ به معد بن عدنان . أو سد ذى القرنين

« هم المحسنون الكثر في حومة الوغى

وَأَحْسَنُ مِنْهُ كَرَّهَمُ فِي الْمَكَارِمِ

ولولا احتقار الأسد شبّهتها بهم ولكنها معدودة في البهائم

سرى النوم عني في سراي إلى الـ لذي صنائه تسرى إلى كُلى نائم

كريم نفضت الناس لما بلغته كأنهم ماجف من زاد قادم

وكاد سرورى لايفى بندامتى على تركه في عمرى المتقادم

هذا يقوله في ابن سادة كافور وهو مقبل من وراء الغيوب إلى مديح كافور  
وقد بقيت من مرارة أبى الطيّب—مرارة الحميّة والحماسة عهد الأمل

— بقية لاذعة بعد فراقه حلب . . بقية بعد إذ أمن تمنى معها الموت  
« كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا  
وحسبُ المنيا أن يَكُنَّ أمانيا  
تمنيتها لما تمنيت أن ترى  
صديقاً فأعيا أو عدواً مداجيا  
حببتك قلبى قبل حبك من نأى  
وقد كان غداً أرا فكن أنت وافيا  
أقلَّ اشتياقاً أيها القلبُ ربما  
رأيتك تُصفي الودَّ من ليس جازيا  
خلقتُ الوفاً لو رجعتُ إلى الصبا  
لفارقت شيبى موجع القلب باكيا »

قيل يعرض بسيف الدولة . والراجح التعريض بحلب كلها — وفيها  
محبوبة بآية قوله فى البائية التى مدح بها كافورا ؟ —  
« وللسرَّ منى مَوْضِعٌ لا يناله نَدِيمٌ ولا يُفْضَى إليه شراب  
وللخودِ منى ساعةٌ ثم بيننا فلاةٌ إلى غير اللقاء تجُاب »  
وكان كما قال :

« وما العشقُ الا غيرةٌ وطماعةٌ يُعرَّضُ قلبه نَفْسَه فتصاب  
وغير فؤادى للغوانى رميةٌ وغير بنانى للرخاخ ركاب »  
وما ذكر الرخاخ إلا وقد كان له بها عهد وربك أعلم أى ذلك كان .  
« فراق ومن فارقتُ غيرُ مذممٍ وأمٌّ ومن تمتُ خيرُ ميمم  
وما منزلُ اللذاتِ عندى بمنزل إذا لم أبجلْ عنده وأكرم  
سجيةُ نفيس ما تزال مُليحةً من الضيم مرّياً بها كلُّ مخرم  
رحلتُ فكم بك بأجفان شادن على وكم بك بأجفان ضيغم »  
وما عني أهله وجواريه ولكنَّ العقائل من آل حمدان . . . ولولا بعض هذا  
الشعور لما لهج فى مرأثيه لمن ببعض ما استنكره نقاد شعره ببغداد وجعله أبو

منصور من باب إساءة الأدب بالأدب كقوله :

« صَلَاةُ اللَّهِ خَالِقَنَا حَنْوُطٌ عَلَى الْوَجْهِ الْمَكْفَتْنِ بِالْجَمَالِ »

قال « فلا أدري هذه الاستعارة أحسن أم وصفه وجه والدته ملك يرثيها بالجمال أو قوله في وصف قرابتها وجواربها

« أَتُسَهَّنُ الْمُصِيبَةُ غَافِلَاتٍ فَدَمَعُ الْحَسَنِ فِي دَمْعِ الدَّلَالِ »

قال : « وكان أبو بكر الخوارزمي يقول ، لو عزاني لإنسان على حرمة لي بمثل هذا لألحقته بها الخ » في هذا المجري من الحسد الكالغ .

والحق أن أبا الطيب كان شاعر بلاط الأُمير ، تشركه فيه الكرائم . ولم يكن بذى فحشاء وكان ذلك من أمره معلوما . وكان بلاط الأُمير لا يخلو من دعوى رجعة إلى المجد القديم حين لم يكن الغزل نائرة إذ هو شريف ، عَهْدَ اخْتَفَى ابْنُ الرِّقِيَّاتِ عِنْدَ كَثِيرَةٍ ، وَتَشَفَّعَ بِأَمِّ الْبَنِينَ ، وَاعْتَذَرَ ابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ عَنْ مَدْحِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِمَدْحِ النِّسَاءِ وَفِيهِنَّ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ ، وَلَمْ يَزِدِ الْحِجَابُ ، وَكَانَ مَغْيَارًا مَعْرُوفًا بِذَلِكَ ، عَلَى تَوَعُّدِ النَّمِيرِيِّ لِمَا ذَكَرَ زَيْنَبُ أُخْتَهُ ، كَأَنَّ هَذَا كَانَ لَوْنًا مِنْ « النِّيْوَكَلاَسْكِيَّةِ » يَتَظَرَّفُ بِهِ بِلَاطُ الْأَمِيرِ الْحَمْدَانِيُّ التَّغْلِبِيُّ ظَرْفًا يَجْمَعُ بَيْنَ حَاضِرِهِ الْبَغْدَادِيِّ الشَّامِيِّ الْمُتَرَفِّ ، وَمَاضِيهِ الْبَدَوِيِّ السَّمِيعِ الْبَسِيطِ . . . وَمَصِيفِ الْبَادِيَةِ ظَرْفٍ مِنْ هَذَا . . . وَمَشْتَى الصَّحْصَحَانِ . . .

واصطناع الجزالة الذي عند ابن الرومية أبي فراس

« إِذَا خِفْتُ مِنْ أَخْوَالِي الرُّومَ خُطَّةً تَخَوَّفْتُ مِنْ أَعْمَامِي الْعُرُبِ أَرْبَعًا »

« وَفَارَقَ عَمْرُو بْنُ الزُّبَيْرِ شَقِيْقَهُ وَخَلَّى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَقِيلَ »

« وَلَا خَيْرَ فِي دَفْعِ الرَّدَى بِمِثْلِهِ كَمَا رَدَّهَا يَوْمًا بِسُوءَتِهِ عَمْرُو »

وما كان من بساب إساءة الأدب ذكر أبي الطيب النساء إذ رثى أُم سيف الدولة فقال :

« مَشَى الْأَمْرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَاةً كَأَنَّ الْمَرُوءَ مِنْ زِفِ الرِّثَالِ »

أى كأن الحجارة من ريش صغار النعام . . .

« وَأَخْرَجَتِ الْحِجَالَ مَخْبَاتٍ يَضَعْنَ النَّقْصَ أَمْكِنَةَ الْغَوَالِي »

وفيهن ذات البعير المقلد لاريب . .

«أَتَتَهُنَّ الْمَصِيبَةُ غَافِلَاتٍ فَدَمَعُ الْحَزَنِ فِي دَمْعِ الدَّلَالِ»

ونفر من هذا أبو منصور بذوقه المتفقه المتحصر المنتطس — وما أراد أبو الطيّب إلا أن يجعل الأميرات إزاء الأمراء، هؤلاء حفاة فوق المرو وهم الرقاق النعال، هؤلاء عليهنّ النقس وهنّ ذوات الدلال، ولا شك أن سيف الدولة والألى معه ما أنكروا من مقال أبي الطيّب شيئا وأنّ الأميرات قد أعجبهن وربما كن قد دسسن من يشير على الشاعر بأن يُذكَرْنَ .

ومثل هذا التأين فيه مدح ذن . .

«وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمَثَلِ هَذِي لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ  
وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ وما التذكير فخر للهلال» (٢٧).  
وقول أبي الطيّب :

«رَحَلْتُ فُكْمَ بَاكِ بِأَجْفَانِ شَادِنٍ عَلَى وَكَمِ بَاكِ بِأَجْفَانِ ضِيغَمٍ»

ومن هذا النهج . .

«وما ربة القرط المليح مكانه بأجزع من ربة الحسام المصمم  
ومع أنّ ظاهر المعنى يحتمل العموم ، أى الرجال أشد جزعا على فقدى من النساء والعهد فى شأن النساء أن يكنّ أكثر جزعا، إلا أنّ السياق يدلّ على امرأة بعينها ذات قرط مليح وفارس ضرب ذى حسام رهيب — وهو سيف الدولة بلاريب، إلا أنّ الباكي بأجفان الضيغم أشبه بأن يكون أبا العشائر وما ليّاه يلوم أبو الطيّب ولا إيّاها . . ولكنّ المعمّم ذا الحسام

«فلو كان مابى من حبيب مقنّع عذرت ولكن من حبيب معمم  
رمى واتقى رميى ومن دُون ما اتقى هوى كاسر كفتى وقوسى وأسهمى»  
وفى هذا على ما فى ظاهره من المجاز إشارة إلى ما كان من محاولة اغتياله عشية انتسب له راميّه إلى أبى العشائر . .

ثم يشوب المرارة حزن عميق . .

«إذا ساءَ فِعْلُ الْمَرْءِ ساءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمٍ  
وعادى مُحِبِّهِ بِقَوْلِ عُدَاتِهِ وَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشُّكِّ مَظْلَمٌ  
أَصَادِقُ نَفْسِ الْمَرْءِ مِنْ قَبْلِ جِسْمِهِ وَأَعْرِفُهَا فِي فِعْلِهِ وَالتَّكَلُّمِ»  
— مسكين أبو الطيّب —

«وأحْلَمَ عَنْ خِلَى وَأَعْلَمَ أَنَّهُ مَتَى أَجْزَاهُ حِلْمًا عَنْ الْجَهْلِ يَنْدَمُ»  
— وهذا احتِراسٌ به أمامَ كافورٍ حفاظاً على مكارمِ الأخلاقِ، وخَشْيَةً  
أَلَّا يَحْمِلَ مَقَالَهُ مَحْمَلُ حَقِّ الْهَجَاءِ لِمَنْ كَانَ مَمْدُوحَهُ مِنْ قَبْلِ —  
«وإنْ بَدَّلَ الْإِنْسَانُ لِي جُودَ عَابِسٍ جَزَيْتُ بِجُودِ التَّارِكِ الْمُبْسَمِ»  
هي «التارك» لا ريبَ ومن زعم أنها «البازل» لزمه أن يعتذر للتكرار فيما  
بين «جود» و «البازل» إذ ليس يعدو معنى «جود» ههنا معنى «فعل» (٢٨)  
لدلالة البازل عليه .

«وأهوى من الْفُتَيَانِ كُلِّ سَمِيذَعٍ نَجِيبٍ كَصَدْرِ السَّمْهَرِيِّ الْمَقُومِ  
خَطَّتْ تَحْتَهُ الْعَيْسُ الْفَلَاةُ وَخَالَطَتْ بِهِ الْخَيْلُ كِبَاتِ الْحَمِيسِ الْعَرَمَرَمِ  
وَلَا عِفَّةَ فِي سَيْفِهِ وَسِنَانِهِ وَلَكِنَّهَا فِي الْكِفِّ وَالْفَرْجِ وَالْقَمِ  
وَمَا كُلُّ هَاوٍ لِلْجَمِيلِ بِنَاعِلٍ وَمَا كُلُّ فَعَالٍ لَهُ بِمُتَمِّمٍ  
وقد عَرَضَ لِهَذَا الْمَعْنَى بَعِينُهُ مِنْ بَعْدِ، فَجَاءَ بِهِ خَالِيَا مِنَ الْمُرَاةِ، أَمَلًا بِرُوحِ  
الْحُزَنِ الْعَمِيقِ :

«عَجِبْتُ لِمَنْ لَهُ قَدْ وَحْدٌ وَيَنْبُو نَبْوَةَ الْقَضِيمِ الْكُهَامِ»  
يعنى سيف الدولة

«وَمَنْ يَجِدُ الطَّرِيقَ إِلَى الْمَعَالَى فَلَا يَذَرُ الْمَطَى بِلَا سَنَامٍ»  
يعنى نفسه

«وَلَمْ أَرَ فِي عَيُوبِ النَّاسِ شَيْئًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ»  
يعنى كافوراً

«أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ فَلَا وَرَائِي تَخُبُّ بَنَى الرِّكَابِ وَلَا أَمَامِي

وَمَلَنِي الْفِرَاشُ وَكَانَ جَنِيبي      يَمَلُّ لِقَاءَهُ فِي كُلِّ عَامٍ  
 قَلِيلٌ عَائِدِي سَقِيمٌ فُوَادِي      كَثِيرٌ حَاسِدِي صَعْبٌ مَرَامِي  
 وَإِذْ كَثُرُوا وَهُوَ مَنفَرِدٌ فَلَابَدٌ أَنَّهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَيْهِ آخِرَ الْأَمْرِ —

«عَلِيلُ الْجَنَسِ مُمْتَنِعُ الْقِيَامِ      شَدِيدُ الْسُكْرِ مِنْ غَيْرِ الْمُدَامِ  
 وَزَائِرَتِي كَانَ بِهَا حَيَسَاءٌ      فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ  
 «أَرَأَيْتَ وَقْتُهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ      مُرَاقِبَةُ الْمَشُوقِ الْمُسْتَهَامِ  
 وَيَصْدُقُ وَعُدهَا وَالصَّدْقُ شَرٌّ      إِذَا النِّقَالُ فِي الْكُرْبِ الْعِظَامِ»

— وَلَا يَنْبُثُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ —

أَبْنَتُ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بِنْتٍ      فَكَيْفَ وَصَلْتَ أَنْتِ مِنَ الرِّحَامِ  
 جَرَحْتَ مَجْرَحًا لَمْ يَبْقَ فِيهِ      مَكَانٌ لِلسُّيُوفِ وَلَا السَّهَامِ  
 أَلَا يَأْتِيَتْ شَعْرِي بِأَتْمُنِي      تَصَرَّفُ فِي عَيْنَانِ أَوْ زِمَامِ  
 وَهَلْ أَرُمِي هَوَايَ بِرَاقِصَاتٍ      مُحَلَّاتٍ الْمُتَقَاوِدِ بِاللُّغَامِ  
 فَرُبَّمَا شَفَيْتُ غَلِيلَ نَفْسِي      بِسَيْرٍ أَوْ قَنَاقَةٍ أَوْ حُسَامِ  
 وَضَاقَتْ خُطَّةٌ فَخَلَصْتُ مِنْهَا      خَلَاصَ الْحَمِيرِ مِنْ نَسْجِ الْفِدَامِ  
 هَذَا نَفْسٌ مِنْ عَهْدِهِ الْأَوَّلِ ، إِلَّا أَنْ أَعْيَاءُ التَّجَرُّبَةِ وَمَوْضُوعِيهَا أَغْلَبَ  
 عَلَى سِنِّهِ — وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَقْدَمَ أَبُو الطَّيِّبِ فَفَارَقَ كَافُورًا حَتَّى كَانَ  
 فِرَاقُهُ لَهُ شِفَاءً لِسُخِيْمَةِ نَفْسِهِ أَوْ كَمَا قَالَ :

فَرُبَّمَا شَفَيْتُ غَلِيلَ نَفْسِي ... الْخ

ذَهَبَتِ الْمَرَارَةُ بِأَسْرَهَا ، وَبَقِيَ رِضَا الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ وَمَنَالَةُ الْمَالِ ،  
 وَحَسِرَاتُ الْإِخْفَاقِ بَعْدَ انْفِلَالِ شِبَابِ الطُّمُوحِ . . عَلَى صَخْرَةِ الْحَيَاةِ :

«هُوَ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنَظَرُهُ      فَإِنَّمَا يَقْطَعُ الْعَيْنُ كَالْحُلُمِ  
 وَلَا تَشْكُ إِلَى خَلْقٍ فَتُشِمَّتْهُ      شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْغُرْبَانِ وَالرَّخَمِ»  
 إِذْ كَانَ يَسِيلُ دَمًا وَهُمْ يَلْعَقُونَ ، الْأَسْوَدُ اللَّابِيُّ وَالْجَوَارِحُ الَّتِي مَعَهُ . .  
 وَالْجَوَارِحُ الَّتِي لَقِيَ مِنْ قَبْلُ وَسِيلَقِي مِنْ بَعْدُ .

«وَكُنْ عَلَى حَدَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتُرُهُ وَلَا يَغْرُكَ مِنْهُمْ ثَغْرٌ مُبْتَسِمٍ»  
— كافور أو سواه —

«غَمَاضِ الْوَفَاءِ فَمَا تَلَقَّاهُ فِي عِدَةٍ وَأَعْوَزَ الصَّدْقُ فِي الْإِخْبَارِ وَالْقَسَمِ»  
كوعد كافور أو الذي نمي إليه من وعده ، وكقسم ابن حترابة وكان أكرم  
عنده أوّل الأمر وأوثق من أيمان ابن كيغلف المطردات ككعوب الرُمح في  
نسق . ولعلّه هو أيضا أن يضطر فيفعل كما يفعلون —

«سُبْحَانَ خَالِقِ نَفْسِي كَيْفَ لَدَتْهَا فِيَمَا النُّفُوسُ تَرَاهُ غَايَةَ الْأَلَمِ»  
الدهر يعجب من حملي نوائبه وصبر نفسي على أحداثه الحطم  
وقت يضيع وعمر ليت مدته في غير أمته من سالف الأئم  
أتى الزمان بنوه فسي شبيبته فسرههم وأتيناها على الهرم  
أى زمان تمنى أبو الطيب أن يكونه في مصر من عهودها السالفات . .  
أو من عهوده هو السالفات . .

«قَمِيصُ يَوْسُفَ فِي أَجْفَانِ يَعْقُوبِ»

«لَوْلَا الْعُلَى لَمْ تَجِبْ بِي مَا أَجُوبُ بِهَا»

وَجَنَاءُ حَرْفٍ وَلَا جِرْدَاءُ قَيْدُودُ  
وكان أطيب من سيفي مضاجعة أشباه روثقه الغيد الأماليد  
لاشك أنه كره الرحلة من مصر . وقد كان قال من قبل :

«مَنْ أَطَاقَ التِّمَاسَ شَيْءٌ غِلَابًا وَاغْتِصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالًا»  
وقد أعمل فكره وشعره لينال العلى في مصر بالسؤال عند عزيزها كافور ،  
إذ عمل القلم سؤال . ثم أخفق بعد أن كاد ينجح كما قد أخفق في أوّل الصبا  
من قبل حين رام العلى بالغلاب والاعتصاب في سماوة كلب بين البدو  
والطغام بعد أن كاد ينجح — لقد كانت وسائله في المرة الأولى هي المجدية  
لو كان التزم بها وحافظ عليها . ولكن شيطان الشغراء راوده عنها فأضله  
الضلال البعيد ، وذلك حيث يقول :



«مازلتُ أضحكُ لبلى كلِّما نظرتُ إلى مَنْ اختَضَبَتْ أخفها فهدمَ»  
— إلى دولة الخدم بلاريب ! —

«أسيرُهما بَيْنَ أضنامٍ أشاهدُها ولا أشاهدُ فيها عِفَّةَ الصنمِ»  
حتى رَجَعْتُ وأقلامى قَوَائِلُ إلى المجدِّ للِسيفِ لَيْسَ المجدُّ للقَلَمِ  
اكتُبْ بنا أبدأ بعدَ الكتابِ به فإنما نحنُ للأسيافِ كالخدمِ  
أسمعتنِي ودوائي ما أشرتَ به فإن غفلتُ فدائى قِلَّةُ الفهمِ  
من اقتضى بسوى الهندى حاجته أجاب كلَّ سؤالٍ عن هل يلم  
توهم القومُ أن العَجَزَ قَرَّبنا وفي التقربِ ما يدعوا إلى التَّهَمِ  
ولم تنزلْ قِلَّةُ الإنصافِ قاطِعةً بَيْنَ الرِّجالِ وإن كانوا ذوى رَحِمِ  
جهارة الشجى ، وموسيقا الأعماق التى من سينخِ شعر أبى الطيب قد فارقتها  
ههنا أرْن الشباب ، ومرارة النضال الباسل ، وطرب الخفَّة إلى الأمل ،  
وخالطها عناء السفر ومجاهدة اللُّغوب ، واستشعار المأساة :

«على لَاحِبٍ لا يُهتدى بِمَنارِهِ

إذا سافَه العودُ الدِّيا فَيُجرُّ جَرَّاراً» (٢٩)

تَقَطَّعَ أسبابُ اللُّبائَةِ والهُوى عِشَّةَ جَاوَزنا حِمَاةَ وَشَيْرَآ  
أو كما قال علقمة :

«هدانى إليك الفرقدان ولا حِبُّ لَه فوقَ أضواءِ المَتانِ علوبُ» (٣٠)  
بها جِيفُ الحَسْرِ فأما عِظامُها فَبَيْضٌ وأما جِلْدُها فَصَلِيبُ  
تُرَاد على دِمْنِ الحِيَاضِ فإن تَعَفُّ فإنَّ المندى رحلةً فرُكوبُ  
وقد أراد أبو الطيب نفسه العزوف على دمن الحياض فعافت فلم يبق إلا  
الرحلة فالركوب حتى تسقط بين جيف الحسرى . .

«ولم تنزلْ قِلَّةُ الإنصافِ قاطِعةً بَيْنَ الرِّجالِ وإن كانوا ذوى رَحِمِ»  
كإخراج سيف الدولة ابن عمه وقتل ناصر الدولة عمه . . أم المعرفة أقوى  
من جميع ذلك .

«فلا زيارَةَ إلا أن تزورَهُمُ أبدي نَشَانِ مَعَ المِصْقُولَةِ الخدمِ

مِنْ كُلِّ قَاضِيَةٍ بِالْمَوْتِ شُفْرَتَهُ      مَابَيْنَ مُنْتَقِمٍ مِنْهُ وَمُنْتَقِمٍ  
ماخرج أبو الطيّب من مصر إلّا وهو يريد العلى عن طريق السيف كما قال :  
«فلا زيارة إلّا أنْ تَزُورَهُمْ      أَيْدٍ نَشْأَنَ مَعَ الْمَصْقُولَةِ الْخُذْمِ»  
ومن «دُونِهَا غَوَلُ الطَّرِيقِ وَبَعْدُهُ»

وكلا هذين نبوءة وبيان . . هل كان أبو الطيّب لم يزل فى قلبه الحنين  
إلى حلب سيف الدولة وأنطاكية أبى العشائر

تَقُودُ مُسْتَحْسِنَ الْكَلَامِ ( له )      كما تقود السحاب عظامها

لعلّ شيئا من هذا قد كان ، والله تعالى أعلم .

## ( ٥ )

قال أبو الطيّب :

«عَدَ مَتٌ فِدْوَاداً لَمْ تَبِتْ فِيهِ فَضْلَةٌ لِغَيْرِ الثَّنَائِيَا الْغُرِّ وَالْحَدَقِ النَّجْلِ»  
 كأنّه ههنا أقرّ أنّهنّ يأخذن من الفؤاد قدرا عظيما . قال أبو تمام :  
 «أَهْنُ عَوَادِي يُوسُفُ وَصَوَاحِبُهُ فَعَزَّ مَا فَقَدُ مَا أَدْرَكَ النَّجَجَ طَالِبُهُ»  
 قال تعالى « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » - قيل حتى (١)  
 أبنتها ولم يشعرن . وقيل « حَزَّاءَ حَزَّاءَ » ، وهذا يدل على تعمّد منهنّ  
 والإكبار جعلهنّ لا يشعرن . ولازال الفتيان في بعض النواحي إذا  
 أعجبهم الفتيات حَزَّوا أَيْدِيَهُمْ بالسكاكين ، حَزَّاءَ حَزَّاءَ . كأنهن فعّلن ذلك  
 تسليما لها بعظم ما رأت واعترافا ، والله تعالى أعلم .

« ذَرِينِي أَنْزِلُ مَا لَا يُنَالُ مِنَ الْعُلَى

فَصَعَبُ الْعُلَى فِي الصَّعْبِ وَالسَّهْلُ فِي السَّهْلِ

تُرِيدِينَ لُقْيَانَ الْمَعَالَى رَخِيصَةً (٢)

ولابدّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ

أَي سِوَالَا وَالتَّمَاسَا كَمَا ظَنَّ بِمَصْرِ حِينَ أَعْجَبَتْهُ الدَّعَةُ وَالتَّبَسُّ عَلَيْهِ أَمْرُهَا

بأمر العلى . . حتى خاطب حُماة ربة الهودج من وراء التيه :

«مِمَّا أَضُرَّ بِأَهْلِ الْعِشْقِ أَنْتَهُمْ هَوُوا وَمَا عَرَفُوا الدُّنْيَا وَلَا فِطْنَهَا (٣)

تَفَنَّى عِيُونُهُمْ دَمْعًا وَأَنْفُسُهُمْ فِي إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجَنَّهُ حَسَنُ

تَحَمَّلُوا حَمَلَتَكُمْ كُلُّ نَاجِيَةٍ فَكُلُّ بَيْنٍ عَلَى الْيَوْمِ مُؤْتَمَنٌ (٤)

ما في هَوَادِجِكُمْ عَنْ مَهْجَتِي عِيَاضٌ

إِنْ مَتَّ شَوْقًا وَلَا فِيهَا لَهَا ثَمَنٌ

فإن كان المشوق إليها إنسان أبى العشائر فعلها أيضا كانت ذات دالة عند آل سيف الدولة . وقد رأى أبو الطيب خولة ، وكانت كبرى أختي سيف الدولة ، وذلك قوله :

«فما تَقَلَّدَ باليَاقُوتِ مُشَبِّهَهَا      وَلَا تَقَلَّدَ بِالْهِنْدِيَّةِ الْقُضْبِ  
وَلَا ذَكَرَتْ جَمِيلًا مِنْ صَنَائِعِهَا      إِلَّا بِكَيْتٍ وَلَا وَدٍّ بِلَا سَبَبِ (٥)  
قَدْ كَانَ كُلُّ حِجَابٍ دُونَ رُؤْيَيْهَا

فَهَلْ قَنِعَتْ لَهَا يَا أَرْضُ بِالْحُجْبِ  
وَلَا رَأَيْتِ عُيُونََ الْإِنْسِ تُدْرِكُهَا

فهل حسدت عليها أعين الشهب  
— ولم يقل تبصرها وما صنع أدق —

«وَهَلْ سَمِعْتَ سَلَامًا لِي أَلَمْ يَهَا

فقد أطلت وما سلّمت من كُتُبِ  
وإن جاز أن يكنى بها عن سيف الدولة جاز أن يكنى به عنها أو عن سواها  
من يمت إليهما متى سلم له السياق بذلك. قال أبو منصور: «وماله يُسلم على  
حُرْمِ الملوكة ويذكر منهن ما يذكركه المتغزل»

«وَكَيْفَ يَبْلُغُ مَوْتَانَا الَّتِي دُفِنَتْ      وَقَدْ يُقَصِّرُ عَنْ أَحْيَانَا الْغَيْبِ  
قال العكبري: «يُعرَضُ بسيف الدولة وأنه يقصر سلامه دونه . وأنكر ابن (٦)  
فورجة هذا التعريض ، وقال : هو على عمومه ، يريد أن السلام يقصر عن  
الحى الغائب فكيف عن الميت ، وليس فى الكلام سيف الدولة . » أ . ه .

وصدق ليس فى الكلام سيف الدولة ولكن حياً غائباً آخر ..

«يَا أَحْسَنَ الصَّبْرِ زُرْ أَوْلَى الْقُلُوبِ يَهَا»

وهو سيف الدولة ، أو أبو الطيب . ثم سيف الدولة بعد أنفع السحب ،  
وفى الكلام ، كما لا يخفى ، دعاء بالسقيا :

«وَقُلْ لِّصَاحِبِهِ يَا أَنْفَعَ السُّحُبِ»

وما أشبه أن تكون خولة قد كانت بَرَزَةً ذات حجب للمهابة والإمارة وكانت لها صنائع . وكان أبو الطيّب يُلِمُّ بها ويسلّم عليها أدبا وتكريمًا ويدكر حسن ابتسامها فضيلة لها :

« بَلَى وَحُرْمَةٌ مِنْ كَانَتْ مُرَاعِيَةً لِحُرْمَةِ الْمَجْدِ وَالْقَصَادِ وَالْأَدَبِ »  
وَمَنْ مَضَتْ غَيْرَ مَوْرُوثٍ خَلَّاقُهَا

وَأَن مَضَتْ يَدُهَا مَوْرُوثَةُ النَّشَبِ  
وَهَمُّهَا فِي الْعُلَى وَالْمَجْدِ نَاشِئَةٌ

— وَإِذْنٌ فَقَدْ تَقَدَّمَتْ بِهَا السَّنُ —

يَعْلَمَنَّ حِينَ تَحْيَا حُسْنَ مَبْسِمِهَا وَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ بِالشَّنَبِ»  
قال أبو منصور : « وكان أبو بكر الخوارزمي يقول لو عزاني إنسان  
عن حرمة لي بمثل هذا لأحقته بها وضربت عنقه على قبرها . » وخفي عنه  
ما في الفضيحة من ضرب عنق رجل على قبر حرمة له . وهذا بَجْحُ لَزَجُ  
وكان قد ألمَّ ببلاط سيف الدولة منتجعاً فماعداه هنا أن ذمّه وهو إنما يريد  
ذمَّ أبي الطيّب فتأمل .. وكالذي ذهب إليه كان يفعله البيهقي (٧)  
حين يتهمون أسود منهم بأمرأة بيضاء ، يؤمر بقدر فيملاًها ماءً ويوقدُها  
حتى إذا غلت أميراً فدّخلها حتى إذا همدو بردت ، حملها أصحابه فألقوا جنازته  
المنضجة على قبر البيضاء لتأكلها السباع — وتكون هي قد قتلت بالسم فيقال  
انتحرت أو ماتت موتاً طبعياً . وقد تكون هي أمرت الأسود فأطاع ، كالذي  
رامت امرأة العزيز وصواحبها من يوسف فعصمه العاصم وقال أبو الطيّب :  
« مَسْرَّةٌ فِي قُلُوبِ الطَّيِّبِ مَفْرَقُهَا وَحَسْرَةٌ فِي قُلُوبِ الْبَيْضِ وَالْيَلْبِ »  
اليلبُ الدروع اليمانية والبييضُ الخوذات . وهذا البيت من شواهد أنها  
مُسِنَّةٌ ، قد تضع من ثوبها غير متبرجة بزينة لتضع من الطيب على مفرقها وقد  
يكون من طيب ذات الهودج . وفي البيت صفة مشاهد . وأغضى عنه أبو  
منصور أن يجعله من باب إساعة الأدب بالأدب وجعله في باب إبعاد

الاستعارة والخروج بها عن حدّها ، قال : « فجعل للطّيبِ والبَيْضِ  
واليدَبِ قُلُوبًا »

« إذا رأى ورآها رَأْسَ لَابِسِهِ رأى المقانِعِ أَعْلَى مِنْهُ فى الرُّتَبِ »  
ورأس مفعول به لرأى الأولى . وفى البتين تفضيل لخولة على الرجال ،  
مطلق العموم ، وأخوها مستثنى — أم لعلّه فيهم — بحكم السياق . وهذا كقوله :  
« فَمَا تَقَلَّدَ بالياقوتِ مُشْبِهُهَا وَلَا تَقَلَّدَ بِالْهِنْدِيَّةِ الْقُضْبِ »

وفى تكرار هذا المعنى إشعار باجلال معرفة وسابقة من معروف وود . ولعلّ  
خولة كانت تشفع لأبى الطيّب عند أخيها وتدافع عنه من كيد أبى فراس  
وآله وتعلم من أمر ذات الهودج وتصون .

وكان سيف الدولة قد جزع لوفاة أخته الصغرى أيام أبو الطيّب بحلب ،  
فغزاه أبو الطيّب بلاميته :

«إِنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِي الرِّزْيَةِ فَضْلًا تَكُنْ الْأَفْضَلُ الْأَعَزُّ الْأَجَلًا  
قَا سَمَتَكَ الْمَنُونُ شَخْصَيْنِ جَوْرًا جعل القسم نفسه فيك عدلاً»  
أى أخذها ما أخذت جوراً وتركها ما تركت عدلاً — لا أن الكبرى  
أحب إلى سيف الدولة من الصغرى . —

«فإذا قِستَ ما أَخَذْتَ بِمَا أَعْدَرْنَ سَرَى عن الفؤاد وَسَلَى»  
لأنّهنَّ أبقيته وأبقينها . والفؤاد ههنا فيه عموم مطلق ؛ فؤاد سيف الدولة  
وفؤاد أبى الطيب وهلم جرا . ولا يخلو سيف الدولة أن يكون قد أنشد هذه  
اللامية أو أنشدها لما ألت مصيبة الكبرى بعد بين أبى الطيّب ، فحنّ إلى  
عزاء منه أو أشير عليه بذلك . . أشار عليه أبو العشائر مثلاً ، فكتب إليه  
ينعاه ، فذلك قوله :

«طَوَى الْحَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبَرٌ فَرَعْتُ مِنْهُ بِأَمَالِي إِلَى الْكُذْبِ  
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِي صِدْقَهُ أَمَلًا شَرِقْتُ بِالدَّمِّ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي»

أى حتى أختلط النخيج بالعبرات وتناثر الدمع فهذا قوله : « كاد يشرق بى »  
وأخذه من قول امرئ القيس :

« كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْتِ يَوْمَ تَحْمَلُوا لَدَى سَمُرَاتِ الْحَيِّ نَاقُفٌ حَذِظْلٍ »  
ومن صورة من صور صباه ظلت عالقة فى ذهنه - يدلك على ذلك أنه لم  
يقل حتى شرق بى ، ولكن كاد يشرق بى ، وفى هذا علاج وحركة  
ومكابدة كما ترى .

« تعثرت به فى الأفواه ألسنها » (٨)

وَالْبُرْدُ فِي الطَّرْقِ وَالْأَقْلَامُ وَالْكِتَبُ »

كأنه ههنا يرى أفواهاً تتعثر بنعيتها وبريداً يستن فى طرق يعلم وأقلاماً  
فى أكف بين حلب وأنطاكية وتحدود الغايات وفوقها الدموع « دموع » (٩)  
تُذيب الكحل فى العين النجل . .  
تبلى الثرى سوداً من المسك وحده

وقد قَطَرَتْ حُمُراً عَلَى الشَّعْرِ الْجَثْلِ »

وذلك أنها اختلطت بالدم - دم حمرة الحدود يرف ضوءها عليها وهى  
تسقط على الشعر الجثل ، ثم يخالطها سواده وسواد المسك فيجعله الشاعر  
أفواها فى المدام .

« شَرِقْتُ بِالدَّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي »

أم يذكر أبو الطيب عهد إذ نعت جدته لأُمّه ؟!  
غيبته فكتب إليها كتاباً فلمّا وصلها قبلته وفرحت وكانت قد يئست منه لطول  
وَحُمَتٍ مِنْ وَقْتِهَا لَمَّا غَلَبَ عَلَيْهَا السَّرُورُ فَمَاتَتْ .

« يَقُولُونَ لِي مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ وَمَا تَبْتَغِي ؟ ! مَا أَبْتَغِي جُلَّ أَنْ يُسَمَّى  
كَأَنَّ بَنِيهِمْ عَالِمُونَ بِأَنْنِي جُلُوبٌ إِلَيْهِمْ مِنْ مَعَادِنِهِ أَلَيْتُمَا »  
وذلك أنه خير اليتيم . توفى أبوه حين ترعرع وبرع . وأُمّه من قبل أو بعد ،  
وجدته التى صفة كتاب سيف الدولة الآن إنما هى من معدن كتابه إليها :

أَتَاهَا كِتَابِي بَعْدَ يَأْسٍ وَتَرْحَةٍ فَمَاتَتْ سُوراً بِي فَمُتْ بِهَا غَمّاً  
 حَرَامٌ عَلَى قَلْبِي السُّرُورُ فَإِنِّي أَعْدُ الَّذِي مَاتَتْ بِهِ بَعْدَهَا سُمّاً  
 تَعَجَّبُ مِنْ خَطِّي وَلَفْظِي كَأَنَّهَا تَرَى بِحُرُوفِ السَّطْرِ أُغْرِبَةً عَصْماً  
 وَتَلْثَمُهُ حَتَّى أَصَارَ مِسْدَادُهُ مَحَاجِرَ عَيْنَيْهَا وَأَنْبَاهَا سُحْماً  
 وَقَدْ هَزَىءَ الدُّكْتُورُ طَهَ مِنْ جَمِيعِ هَذَا بِأَنَّ الْمِدَادَ الَّذِي أَصَارَ مَحَاجِرَ عَيْنَيْهَا  
 وَأَنْبَاهَا سُحْماً لَعَلَّهُ هُوَ الَّذِي قَتَلَهَا . وَهَذَا فَرَضٌ بَعِيدٌ إِذِ الْغَالِبُ فِي مِدَادِ  
 الْبَدْوِ أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّكَنِ -- أَيْ سَوَادِ النَّارِ -- مَعَ الصَّمْغِ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ  
 فِي مَادَةِ صَمْغٍ : « وَحَبِيرٌ مُصَمَّغٌ أَيْ مُتَّخَذٌ مِنْهُ » .

وَقَدْ مَزَجَ أَبُو الطَّيِّبِ مَزْجاً مَذْهولاً كَمَا تَرَى بَيْنَ صُورَةِ سُورِهَا بِكِتَابَةِ  
 وَمَا كَانَ يَأْمَلُ مِنْ فَرْحٍ لِقَائِهَا وَعِنَاقِهَا -- كَمَزْجِهِ هَهُنَا بَيْنَ شَرْقِهِ بِالْذَمِّعِ بِهِ  
 وَتَعَثْرِ أَفْوَاهِهِ مِنْ يَحِبُّ بِمَنْعَى خَوْلَةٍ .. نَعَيْنِهَا إِلَيْهِ فِيمَا بَيْنَ أَنْطَاكِيَّةٍ وَحَلَبٍ .

وَقَدْ كَانَتْ جَدَّةُ أَبِي الطَّيِّبِ قَارِئَةً كَاتِبَةً -- وَكَأَنَّهُ كَانَتْ مِنْ خَوْلَةٍ فِيهَا (١٠)  
 مِثْلَهُ مِنْ حَزْمٍ وَكِرَمِ نَفْسٍ وَقُوَّةِ شَخْصِيَّةٍ وَحُبِّ لَأَبِي الطَّيِّبِ وَعُطْفٍ عَلَيْهِ  
 « وَمَا انْتَسَدَّتِ الدُّنْيَا عَلَى لُضِيقِهَا وَلَكِنْ طَرْفًا لَا أَرَاكَ بِهِ أَعْمَى  
 فَوْ أَسْفَا أَلَا أَكْبَبَ مَقْبِلًا لِرَأْسِكَ وَالصَّدْرَ الَّذِي مَلَأَ حَزْماً (١١)  
 وَ أَلَا أَلَا قِي رُوحَكَ الطَّيِّبَ الَّذِي كَانَ ذِكْرِي الْمَسْكُ كَانَ لَهُ جِسْمًا  
 وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتِ أَكْرَمِ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخْمَ كَوْنُكَ لِي أَمَّا  
 وَرَبِّمَا كَانَ مِنْ آيَةِ حَزْمِهَا أَنَّهَا رَامَتْ صَدَّهَ عَنِ الشَّامِ إِذْ عَادَ إِلَى الْكُوفَةِ بَعْدَ  
 مَوْتِ أَبِيهِ . وَزَعَمَ أَبُو الْعَلَاءِ فِي الْغَفَرَانِ أَنَّ أَوَّلَ طُلُوعِهِ الشَّامَ كَانَ عَامَ أَحَدٍ  
 وَعَشْرِينَ وَثَلَاثِينَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانَ عَشْرَةَ ، وَأَنَّهُ عَادَ بَعْدُ إِلَى الْعِرَاقِ فَلَمْ يَقَمْ إِلَّا  
 قَلِيلاً وَذَلِكَ حِينَ نَظَّمَ كَلِمَتَهُ :

« كَفَيْتَنِي أَرَانِي وَيَكْ لَوْ مَكَ الْيَوْمَا »

وَالرَّاجِحُ مَا ذَكَرَ الثَّعَالِبِيُّ وَهُوَ أَقْرَبُ دَاراً وَعَهْداً بِمَبْدَأِ أَمْرِ أَبِي الطَّيِّبِ  
 وَمُنْتَهَاهُ ، قَالَ : « ذَكَرَتِ الرَّوَاةُ أَنَّهُ وَلِدَ بِالْكُوفَةِ فِي كِسْدَةِ سَنَةِ ثَلَاثِ



وثلاثمائة وأنّ أباه سافر إلى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضرها ومن مدرها إلى وبرها ويسلمه في المكاتب ويردّده في القبائل، ونحايه نواطق بالحسنى عنه وضوا من النجاح فيه حتى توفي أبوه وقد ترعرع أبو الطيّب وشعرَ وبرَع الخ . . . فهذا خبر مثبت كما ترى . ويجوز أنْ نظمت هذه الميمية بعد وفاة أبيه وقبل دعواه مادعى ببادية الشام ، قال أبو العلاء : « وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من دونه ، وإنمّا هي مقادير » .

وتكون عودته إليها بعد خروجه من السجن بزمان  
«أردتُ لِمَا حَظّاً فَمَاتَتْ وَفَاتَنِي وَقَدْ رَضِيتُ بِي لَوْرَضِيتُ بِهَا قَسَمًا»  
وهذا يدلُّ على أنّها وحدها التي بقيت من أهله .  
ولعلّه كان من بيت فضل ودين إذ لا يسلمه أبوه إلى المكاتب ، وتكون جدّته تقرأ :

«تَعَجَّبُ مِنْ خَطِّي وَلَقِيْظِي كَأَنَّهُمَا  
تَرَى بِحُرُوفِ السَّطْرِ أَغْرِبَهُ عَصْمًا» (١٢)  
ويكون مع ذلك من أجلاف البدو . وبل ربّما يدلُّ هذا على أنّهم كانوا من مشايخ الحىّ الذى كانوا فيه من كندة وأكثرها ما يكون المشايخ من قريش ، قد ينتسبون في القبيلة التي يصحبونها وتختلف حالهم في الفقر والغنى بحسب أحوال القبيلة وأحوال بعضهم من بعض . ولا يقدح في الذى نطن ههنا ما قيل من أن أباه كان سقاءً فقد يضطر البدوى إلى أن يكون سقاء بالحاضرة وليس ذلك بناقصه عند نفسه أو عند قبيلته . وما أشبه أن يكون البغداديون قد ألصقوا هذا بأبى الطيّب كما ألصقوه بأبى تمام كأنه نبر ينزون به كلّ من قدم عليهم من فضلاء البدو ففلج أمره . وقد ألمع ابن خلكان إلى شيء من سنخ هذا المعنى في معرض ترجمته له ولأبى تمام .  
وفي شعر أبى الطيّب مما يدلُّ على كرم أصله شواهد مثل قوله :

«لَا بَقْوَمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا يَجْدُو دِي  
وَبِهِمْ فَخَرُّ كُلِّ مَنْ تَنَطَّقَ الضَّاءُ دَوْغوثُ الْجَنَانِي وَعَوْنُ الطَّرِيدِ»

وكفوله :

«وَأَسْتُ بِقَارِعٍ مِّنْ كُلِّ فَخْرٍ بِأَنْ أُعْزَى إِلَى جَدِّ هُمَامٍ»  
فهذا يدلُّ على افتخار بالحدود . . . وكذلك قوله :  
«آتَانِي وَعِيدُ الْأَدْعِيَاءِ وَأَنَّهُمْ أَعَدُّوا لِيَ السُّودَانَ فِي كَفْرِ عَمَاقِبٍ»  
فلو كان دَعِيًّا ما قاله ، وقد كثرت القالة فيه فما ذكروا أَنَّهُ دَعِيٌّ . (١٣)  
ولم يكن ليقول في ابن كيعلغ :

«وَأَرْفُقُ بِنَفْسِكَ إِنَّا خَلَقْنَا نَاقِصٌ وَاسْتَرُ أَبَاكَ فَإِنَّ أَصْلَكَ مُظْلِمٌ»  
وقال أبو العلاء في رسالة الغفران : «وقد دلَّت أشياء في ديوانه أَنَّهُ  
كان مُتَأَلِّهَا ومثل غيره من الناس مُتَدَلِّهَا ، فمن ذلك قوله : (١٤)  
«وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِحَالِقِهِ حُكْمًا»

وقوله :

«مَا أَقْدَرَ اللَّهَ أَنْ يُخْزِي خَلِيقَتَهُ وَلَا يُصَدِّقَ قَوْمًا فِي الذِّى زَعَمُوا»  
الخ ماقال « - ولكأنَّ أبا العلاء ما أراد بقوله « ومثل غيره من الناس » أحدا  
سوى نفسه . قياسا على قوله على لسان لبيد بن ربيعة في بيته :  
«تَرَاكَ أُمُكِّنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَرْتَبِطَ بَعْضُ النَّفْسِ حِمَامُهَا»  
(وإنَّما أردت نفسى ، وهذا كما تقول للرجل إذا ذهب مالك أعطاك  
بعض الناس مالا وأنت تعنى نفسك فى الحقيقة، وظاهر الكلام واقع على كل  
إنسان .)

وقد كان أبو العلاء من بيت علم ودين فى الحضر . . وفى شعر أبى  
الطيب تصوف كثير راسخ من لدن قال :

«أَنَا مُبْصِرٌ وَأُظُنُّ أَنَّنِي نَائِمٌ مِنْ كَانَ يَحْلُمُ بِالْإِلَهِ فَأَحْلَمَا»  
«فان يكن المهدى من بان هدىه فهذا وإلا فالهدى ذا فما المهدى»  
يُعَلِّمُنَا هَذَا الزَّمَانُ بِذَا الْوَعْدِ وَيَحْدَعُ عَمَّا فِي يَدَيْهِ مِنَ النَّقْدِ

إلى أن قال :

«هل الحَيْرُ شَيْءٌ لَيْسَ بِالْخَيْرِ غَائِبٌ

أَمْ الرُّشْدُ شَيْءٌ غَائِبٌ لَيْسَ بِالرُّشْدِ»

هل كان أبو الطيّب يُعَدِّلُ نفسه لضرب من المهدية ؟!

أم لم تكن نبوته التي ادعى في الحق إلّا مهديّة صوفيّة السُّنخ ثم نبوة من بعد كما ينز الشعراء . .

«وإنّى لمن قَوْمٍ كأنّ نَفْسَهُمْ

بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا»

هل كان أبو الطيّب كاذباً ، كما احتس أبو العلاء لنفسه إذ قال

«وإذا رُجِعَ للحقائق فإنّ نطق اللسان لا ينبىء عن اعتقاد الإنسان، لأنّ العالم

مجبول على الكذب والنفاق الخ»

«كذّاً أنا يا دُنْيَا إذا شِئْتَ فاذْهَبِي

ويا نَفْسُ زِيْدِي فِي كَرَائِبِهَا قَدْ مَا

فلا عَبَرْتُ بِي سَاعَةً لَا تُعِزُّنِي وَلَا صَحِبتُنِي مُهْجَةً تَقْبَلُ الظلما

وإذ صَدَقَ فِي هَذَا فَلِمَ يَكُونُ كَذَبَ فِي ذَاكَ؟

«إلى أى حين أنت في زى محرم وحَتَّى مَتَى فِي شِقْوَةٍ وَإِلَى كَم

وإنْ لَا تَمُتَ تَحْتَ السُّيُوفِ مَكْرَمًا

تَمُتْ وَتُقَاسِ الذِّلَّ غَيْرَ مُكْرَمٍ

فَتِيبُ وَاثِقَ بِاللَّهِ وَثَبَةً مَاجِدَ

يرى الموت في الهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ»

هيهات ذلك الزمان إذ يهيب نفسه للخروج في مثل سن مسلم ابن عقيل (١٥)

ومن زمانه وهو يمدح دليز بن لشكروز ويذكر عهد البيضاء : (١٦)

«فلا تَنْدُكَ اللَّيَالِي إِنْ أَيْدِيهَا إِذَا ضَرَبْنَ كَسَرْنَ النَّبْعَ بِالْغَرْبِ (١٧)

ولا يُعِينُ عَدُوًّا بَتَّ قَاهِرَهُ فَاتَّهَنُ يَصِيدُن الصَّقْرَ بِالْخَرْبِ

وان سَرَرْنَ بِمَحْبُوبٍ فَجَعْنُ بِهِ وَقَدْ أَتَيْتُكَ فِي الْحَالَيْنِ بِالْعَجَبِ

وَرُبَّمَا احْتَسَبَ الْإِنْسَانُ غَايَتَهَا وَفَتَاجَأَتْهُ بِأَمْرِ غَيْرٍ مُّحْتَسَبٍ «  
 هل كان أبو الطيّب يؤمل العودة إلى حلب ؟ !  
 وَمَا قَضَى أَحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ وَمَا انْتَهَى أَرْبٌ إِلَّا إِلَى أَرْبٍ  
 وهذا ينبىء عن قلق فى الأعماق . .  
 « تَخَالَفَ النَّاسَ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ لَهُمْ  
 إِلَّا عَلَى شَجَبٍ وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ  
 فَقِيلَ تَخَلَّصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً  
 وَقِيلَ تَشْرَكَ جِسْمُ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ  
 وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الدُّنْيَا وَمُهَنْجَتِهِ  
 أَقَامَهُ الْفِكْرُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالتَّعَبِ «  
 غناء وعزاء وحديث حزين . لعلّما كان تحدث ببعضه إلى أبى نصر  
 الفارابى أول سنتيه مع سيف الدولة .  
 « تَقُولِينَ مَا فِي النَّاسِ مِثْلُكَ عَاشِقٌ  
 جَدِى مِثْلُ مَنْ أَحَبَبَتْهُ تَجِدِى مِثْلِي  
 مُحِبٌّ كُنْتِ بِالْبَيْضِ عَنْ مَرْهَقَاتِهِ  
 وَبِالْحُسْنِ فِي أَجْسَامِهِنَّ عَنْ الصَّقْلِ  
 وَبِالسُّمْرِ عَنْ سُمْرِ الْقَنَاءِ غَيْرَ أَنْنِي  
 جَنَاهَا أَحِبَّائِي وَأَطْرَافُهَا رُسُلِي  
 ذَرِينِي أَنْلُ مَا لَا يُنَالُ مِنَ الْعُلَى  
 فَصَعَبُ الْعُلَى فِي الصَّعْبِ وَالسَّهْلُ فِي السَّهْلِ  
 تُرِيدِينَ لِقْيَانَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً  
 وَلَا بَدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ لَبَرِ النَّحْلِ «  
 وما هو إلا أن جاءه كتاب سيف الدولة يستدعيه . .  
 « وَلَيْسَ الَّذِي يَتَّبِعُ الْوَبْلَ رَائِدًا كَمَنْ جَاءَهُ فِي دَارِهِ رَائِدُ الْوَبْلِ

وما أنا ممن يدعى الشوق قلبه  
ويحتج في ترك الزيارة بالشغل»  
ولكنه احتج : -

« وما عاقني غير قول الوشاة وإن الوشائيات طرق الكذب »  
وفهم سيف الدولة أن هذا رفض ، وعمل أعداء أبي الطيب على تأكيد  
هذا الفهم وكادوه به الكيد القاتل . وكان اتجاه أبي الطيب إلى فارس يريد  
عصدة الدولة قد قوى حجتهم .

على أن الراجع أن أبا الطيب ما توجه إلى فارس وهو يلتمس لنفسه أن  
يروي في الأمر . . . أيعود أم لا . . .  
« وما قست كل ملوك البلاد فدع ذكرك بعض بن في حلب »  
وكان أعداءه أحسوا هذا من قصده أو توقعوه فعملوا على أن يحولوا  
دونه . . . وكان أبو فراس في الأسر إلا أنه قد خفف عنه وأذن له في  
الحركة ، وهادن الدمستق وفاوضه . . .

« أرى المسلمين مع المشركين ن إماماً لعجز وإماماً رهيب  
وأنت مع الله في جانب ودان البرية بابن وأب  
وكانت سخينة أمه ، وابنتها ومن حولهما ، كل أولئك يوافونه بأنباء (١٩)  
أبي الطيب وما كان من أمره . وكتب إلى سيف الدولة يعرض بلاشك ،  
بانصراف أبي الطيب عنه إلى المشرق : « مفادتي أن تعذرت فأذن لي في  
مكاتبة أهل خراسان ومراسلتهم ليفادوني وينوبوا عنك في أمري » قال  
أبو منصور « فأجابه سيف الدولة بكلام حسن وقال ومن يعرفك بخراسان ؟ !  
فكتب إليه أبو فراس : أسيف الهدى وقريع العرب الخ »

والقصيدة كما ترى مجازاة لبائية أبي الطيب وفيها يقول :  
« وإن خراسان إن أنكرت عسلاي فقد عرفتتها حلب  
ومن أين ينكرني الأبعدون أمن نقص جد أمن نقص أب »

أَلَسْتُ وَ إِيَّاكَ مِنْ أُسْرَةٍ وَبَيْنِي وَبَيْنَكَ عِزُّ الْقُرْبَى النَّسَبِ»  
ولعله لم يبعث إليه بكتاب وإنما بعث بهذه القصيدة بدءاً .  
ومما يقوى أن بعض ذوى أبى فراس ومن يكون على رأيهم حدّس أن  
أبا الطيّب عائد إلى حلب، أبيات قيل أنها وجدت في رحل أبى الطيب، من  
الشعر الذى ليس فى ديوانه ، منها كلمة مطلعها :  
«أَفَيْتَا خُمَارُ الْهَمِّ بَغْضَنِي الْحَمْرَا وَسُكْرِي مِنَ الْأَيَّامِ جَنَّبَنِي السُّكْرَا»  
حوكى فيها أسلوب أبى الطيب ليس به ، وفيها من ذم كافور :  
«نُؤْيِبِيَّةٌ لَمْ تَدْرُ أَنَّ بُنْيَاهَا النُّؤْيِبِيُّ دُونَ اللَّهِ يُعْبَدُ فِى مِصْرَا»  
وهو من قوله « فالحر مستعبد والعبد معبود » وركاكة « دون الله »  
ورقاعتها لاتخفى ولو كان كافور نوبيا لقال أبو الطيّب « كأن الأسود النوبى »  
ولم يقل « اللابى » وكان يعرف أنه من الجبال وأنه من جنس السودان زنجى  
لأنوبى وقد كان يعرف من أجناس مصر وما حولها كقوله « وَكُلُّ نَجْمَةٍ (٢٠)  
بُأَجَاوِيَّةٍ » مثلاً .. فالذى قال هذا جاهل بذلك لاريب .  
وكلمة أخرى مطلعها :  
« قَطَعْتُ بِسَيْرِي كُلَّ يَهْمَاءَ مَفْزَعٍ وَجَبْتُ بِخَيْلِي كُلَّ صَرْمَاءَ بَلْقَعٍ »  
وفيه من ذم كافور :  
« أَقِيمْ عَلَى عَبْدٍ خَصِيٍّ مُنَافِقٍ لَيْمٍ رَدَى الْفَعْلَ لِلْجُودِ مُدَّعٍ »  
وهذا من قول أبى الطيّب « إِنِّى حَمَلْتُ بِكَذَابِينَ الْخِ » وقوله « منافق  
لئيم الخ » ضعيف. كما ترى وهذه الأبيات تشبه أسلوب أبى فراس وكان  
بطبعه يقلد أبا الطيّب فإذا تعمد من ذلك شيئا ما كان ليزيده التعمد كبير  
خروج عن الديدن الذى درب عليه . ومما كان يقلد أبا الطيّب فيه ، مذهبه فى  
تفخيم بعض المطالع مما يقع فيه عجز البيت كأنه استمرار لصدره أو صوت  
يباريه ويجاوبه كقوله :  
« عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ  
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ »

وقوله :

« لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا  
وَعَادَةُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعَدَا »

وقوله :

« طَوَّالٌ قَنَّا تَطَاعِنُهَا قِصَارٌ وَقَطَرُكَ فِي وَغَى وَنَدَى بَحَارُ  
غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ مَتَى اسْتَقَامَ لَهُ صَدْرُ الْبَيْتِ كَقَوْلِهِ :  
« أَبِي غَرَبُ هَذَا الدَّمِمْ إِلَّا تَسْرُعًا »  
لحقه إعياء في عجزه فجاء به كأنه تكرر له أو صدى فائر منه كما في  
قوله :

« وَمَا كُنُونُ هَذَا الْحُبِّ إِلَّا تَضَوُّعًا »

وقوله :

« أَمَا لِحَمِيلٍ عِنْدَكَ ثَوَابٌ وَمَا لِمِيسٍ عِنْدَكَ مَتَابٌ »

وقوله :

« دَعَاؤُكَ لِلْجَفْنِ الْقَرِيحِ الْمُسَهَّدِ إِلَى وَلَلْنَوْمِ الْقَلِيلِ الْمَشْرَدِ »  
ومطالعاً القصديدين من هذا السنيخ :

قوله :

« أَفَيَقَا خُمَارُ الْهَمِّ بَغَضَنِي الْخَمْرَا  
وَسُكْرِي مِنَ الْيَامِ جَنَّبَنِي السُّكْرَا »  
العجزُ تكرر للصدر كما ترى من غير زيادة أو حسن تفریع .

وقوله :

« قَطَعْتُ بِسَيْرِي كُلَّ يَمَاءٍ مَفْرَعٍ وَجُبْتُ بِخَيْلِي كُلَّ صَرْمَاءٍ بَلْقَعٍ »  
العجزُ أيضاً تكرر للصدر جعل فيه الخيل مكان السير والصرماء البلقع  
مكان الهماء المفرع ، وهذا بعيد من نحو ما قدمنا من مطالع أبي الطيب ،  
ومن نحو قوله :

« ذِي الْمَعَالِي فَلْيَعْلُوْنَ مَنْ تَعَالَى هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَتَلَا »  
وقوله :

« كَدَّ عَوَاكَ كُلُّ يَدَّ عِي صِحَّةَ الْعَقْلِ  
وَمَنْذَأَ الَّذِي يَدْرِى بِمَا فِيهِ مِنْ جَهْلٍ »

وقوله :

« بِغَيْرِكَ رَاعِيًا عَبَثَ الذَّنَابُ وَغَيْرَكَ صَارِمًا ثَلَمَ الضَّرَابُ »  
تأمل اختلاف معانى الأعجاز عن معانى الصدور فى كل ذلك أو مايقع فيها  
من زيادة أو تفريع حين اشتداد التشابه .

هذا وكلتا هاتين القصيدتين اللتين نسبتا إلى أبى الطيب فيهما إلحاح  
على تفضيل سيف الدولة وإظهار الندم على فراقه كقوله :  
« وَفَارَقْتُ خَيْرَ النَّاسِ قَاصِدَ شَرِّهِمْ وَأَكْرَمَهُمْ طَرًّا لِأَلَامِهِمْ طَرًّا  
فَعَاقَبَنِي الْمَخْصِيُّ بِالْغَدْرِ جَازِيًا لِأَنَّ رَحِيلِي عَنْ كَانَ حَلَبٍ غَدْرًا »  
وكقوله :

وَقَدَّرْتُ مِنْ فَرَطِ الْجَهَالَةِ أَنِّى أَقِيمُ عَلَى كِذْبِ رَصِيفِ مُصَنِّعٍ  
أَقِيمُ عَلَى عَبْدِ خَصِيٍّ مُنَافِقٍ لِيُمِى رَدَىءُ الْفَعْلِ لِلْجُودِ مُدَّعِي  
وَأَتْرُكُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْمَلِكِ الرِّضَا كَرِيمَ الْمُحْيَا أُرُوعَ وَأَبْنَ أُرُوعَ  
مما كأنه رمز ممن صنع هذا الكلام الغث ( لله درأبى منصور إذ أعرض  
عنه اعراضا فلم يذكر له وجودا وهو الذى قيل رواه فتأمل) عما كان (٢١)  
يعتقده من نية أبى الطيب العودة إلى حلب بعد الانصراف من شيراز .

ومع الرمز نوع من الشماتة بمصرع أبى الطيب والسخرية به ، تحسُّه  
من محاكاة أسلوبه ، ونسبة مالم يكن قسط ليقوله فى معارض ما كأنه كان  
يقول ، من ذلك مثلا :

« لَبِسْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ أَخْشَنَ مَلْبَسِ  
فَعَرَّقَنِي نَابًا وَمَزَّقَنِي ظُفْرًا »



وفى كل لحظ لي ومسمع نعمة  
يُلاحِظني شزرا ويسمعني هجرا  
سد كُت بصرف الدهر طفلاً وبافعا  
فأفنيته عزماً ولم يُفني صبراً  
أريد من الأيام ما لا يُريده  
سواي ولا يحري بخاطره فيكرا

ومثلاً :

«وثلّمت سيفي في رؤوسٍ وأذرعٍ وحطّمت رُحى في نحورٍ وأضلعٍ  
وصيرت عزمي بعد رأيي رائدي وخالفْتُ آراءً توالّت بمسمعِي  
ولم أتركُ أمراً أخافُ اغتيالَه ولا طمّحت نفسي إلى غير مطمعٍ»  
وكان جماعة سدكوا بأبي فراس يقترحون عليه، أخذاً من ألفاظ (٢٢)  
أبي الطيّب ومعانيه، وتحليلاً لنفسيته بجهد ما تستطيعه نفسياتهم، وهو يصوغ.  
وأقل تأمل يربك مجازاة ميمّته في جدّته وسواها من نحو: «وما  
علّمتني غير ما القلبُ عالمه» «أودُّ من الأيام ما لا تودّه»  
«وأعلّم قوما خالفوني فشرقوا الخ» وهلم جرا .  
ومما جُورِي به هجاؤه كافورا :

«ومصرٌ لعمرى أهلُ كُلِّ عَجِيبةٍ  
ومما مثلُ ذا المخصيِّ أعجوبةٌ بكرا  
يُعدُّ إذا عدَّ العجائب أولاً  
كما يتندا في العدِّ بالأصبع الصُغرى  
فيا هَرَمَ الدُّنيا ويا عبْرَةَ الوري  
ويايها المخصيُّ من أمْلَكَ البَطْرا  
نُويبيّةٌ لم تدّر أن بُنيّها النويي  
دُونَ اللهِ يُعبَدُ في مِصرَا

وَيَسْتَخْدِمُ الْبَيْضَ الْكَوَاعِبَ كَالدُّمَى  
 وَرُومَ الْعَبْدَى وَالْغَطَارِفَةَ الْغُرَا (٢٣)  
 قَضَاءُ مِنْ اللَّهِ الْعَظِيمِ أَرَادَهُ أَلَا رُبَّمَا كَانَتْ إِرَادَتُهُ شَرًّا  
 وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا نَفْحَةٌ أَبِي الطَّيِّبِ ، وَالطَّعْنَ عَلَى عَقِيدَتِهِ فِي  
 الْبَيْتِ الْأَخِيرِ لَا يَخْفَى كَأَنَّهُ مِنْ حِكْمِهِ الْفَلَسْفِيَّةِ مِنْ طَرَازٍ « تَمَتَّعْ مِنْ سُهُادٍ أَوْ  
 رُقَادٍ » وَقِيلَ تَتَشَرَّكَ جِسْمُ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ « تَيَقَّنْتُ أَنَّ الْمَوْتَ ضَرَّبَ  
 مِنْ الْقَتْلِ » وَقَدْ تَقَدَّمَ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْخَطَأِ فِي نَعْتِ كَافُورٍ بِأَنَّهُ نُوْبِي . وَمَا كَانَ  
 أَبُو الطَّيِّبِ لِيَصِفَ مِنْ هَجَاهِمٍ فَقَالَ « رَخِمَ رُومٌ وَبِهَاتِمٌ وَعَبِيدَتِي » بِقَوْلِهِ  
 « الْغَطَارِفَةُ الْغُرَا » فَهَذَا هُوَ الْعِيُّ وَالْحَصَرُ - وَالاعْتِمَادُ بَعْدُ عَلَى الْفَافِظِ أَبِي  
 الطَّيِّبِ لَا يَخْفَى .. « وَرُومَ الْعَبْدَى هَاطَلَاتُ غَمَامَةٍ » « مُهْدَى الْكَوَاعِبِ  
 وَالْجُرْدُ السَّلَاحِبِ » « وَخَلَّتِي الْعَذَارَى وَالْبَطَارِيْقُ وَالْقُرَى » « فَيَا  
 شَوْقُ مَا أَبْقَى وَيَا أَلَى مِنَ النَّوَى » « أَقْوَمَهُ الْبَيْضُ أَمْ أَبَاؤُهُ الصَّيْدُ »

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ :

« وَمَصْرُ لَعَمْرِي دَارُ كُلِّ عَجَبِيَّةٍ وَمَا مِثْلُ ذَا الْمَخْصِيِّ أُعْجُوبَةٌ بِكُورَا »  
 فَمِنْ « وَمَاذَا بَصَرَ مِنَ الْمُضْحَكَاتِ » وَ « أَفَدْتُ بَلَحِظِي  
 مِشْفَرِيكَ الْمَلَاهِيَا » وَ « فَمَا يَفْعَلُ الْفَعْلَاتُ إِلَّا عِذَارِيَا »

وَشَاهِدُ الْإِنْحَالِ بَعْدُ ، الصَّوْتُ الصَّحِيلُ وَالتَّكْرَارُ فِي الْأَعْجَازِ بَعْدُ (٢٤)  
 الصَّدُورُ مِمَّا بَرَى الْمُتَنَبَّى مِنْهُ فِي شَعْرِ صَبَاهُ فَكَيْفَ بَعْدَ أَنْ اشْتَدَّ أَسْرُهُ  
 وَاسْتَمَرَّتْ قَوَاهُ وَلِلَّهِ دَرَهُ إِذْ قَالَ :

« وَمَا قُلْتُ مِنْ شِعْرِ تَكَادُ بَيُوتُهُ  
 إِذَا كُتِبَتْ يَبْيِضُ مِنْ نُورِهَا الْحَبْرُ »

وَإِذَا قَالَ :

« بَلَّغْتُ بِسَيِّفِ الدُّوَلَةِ النُّورَ رُتْبَةً أَثَرْتُ بِهَا مَا بَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ  
 إِذَا شَاءَ أَنْ يَكْهُوَ بِلَحِيَّةٍ أَحْمَقٍ أَرَاهُ غُبَارِي ثُمَّ قَالَ لَهُ الْحَقُّ

وما كَمَدُ الحُسَّادِ شَيْئاً قَصَدَتْهُ وَآكَنَتْهُ مَنْ يَزُحِمُ الْبَحْرَ يَغْرَقِ  
ولعلَّ المجلس الذي انتحل القصيدتين انتظم بُعِيدَ خلاص أبي فراس  
من الأسر ، في الفترة التي كان فيها فرحاً . . . قال أبو منصور : « لم تطل  
أيام فرحته » . . لكن المؤامرة حيكت منذ عهد بعيد « عشيّة شَرْقَى الحَدِّ إِلَى  
وَعَرْبِ » وأحكمت أيامَ التخفيف ومهادنة الدمستق . .

« وَغَرَّ الدَّمُسْتُقُ قَوْلُ العُدَاةِ أَنْ عَليّاً ثَقِيلٌ وَصَبٌ

«وقد عَلِمَتْ خَيْلُهُ أَنَّهُ إِذَا هَمَّ وَهُوَ عَليلاً رَكِبَ»

ولما قال أبو الطيّب :

«وقد رأيتُ الملوكة قاطِبةً وَسِرتُ حَتَّى رأيتُ مَوَلاها»

وذكر الشامية التي ذكر فقال :

« شاميةٌ طالما لَهَوَتْ بِهَا تَبْصِيرُ فِي نَاطِرِي مُيَّاهَا

فِيهِنَّ مَنْ تَقَطَّرُ السَّيُوفُ دَمًا إِذَا لِسَانُ الْمُحِبِّ سَمَّاهَا»

أخذ الوشاة في التقليل والتكثير . وعاد أعداء أبي الطيّب إلى أسلوبهم  
القديم من طاب الترخيص لهم في دمه . وكان آل حمدان منذ مبدأ أمرهم  
فُتَّاكاً لهم بالشعراء فِتْنَةً . ومن تغرير ابن حمدان ماطح ابن المعتز من قبل  
وطاح ابن حمدان معه . ولعلَّ السامري ، إنْ كان حيّاً ، سعى في دم أبي  
الطيّيب هذه المرّة كسعيه عشيّة يوم إنشاده الميمية « وأحرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ  
شَبِمْ » . ولعلَّه كان طرفاً من هذا الكيد أمرُ الجارية الرومية التي قيل « كان (٢٥)  
سيف الدولة لا يرى الدنيا إلّا بها فحسدتها سائر حظاياها على لطف محلها منه  
وأزمن إيقاع مكروه بها من سم أو غيره » فقال في ذلك :

« راقبتُني العيونُ فيكَ فأشفَقَتْ ولمْ أخلُ قطُّ من إشفاق (٢٦)

ورأيتُ العذولَ يَحْسُدُنِي فيكَ مُجْدٍ يا أنْفَسَ الأَعْلَاقِ »

إلى آخر ما قال . ولعلَّ العذول كانت أخت أبي فراس والجارية كانت  
تودُّ آل أبي العشائر . ولعلَّه كان لناصر الدولة بالموصل ضلع في هذا الأمر .  
وكان مقام أبي الطيّب في فارس ما كان إلا حلماً :

«وَكَمْ دُونَ الثَّوِيَّةِ مِنْ حَزِينٍ يَقُولُ لَهُ قُدُومِي ذَا بِيذَاكَ  
وَمِنْ عَذَابِ الرُّضَابِ إِذَا أَنْخَنَّا يُقْبِلُ رَحْلَ تَرْوِكَ وَالْوَرَاكَ  
يُحَرِّمُ أَنْ يَمَسَّ الطَّيِّبَ بَعْدَى وَقَدْ عَبِقَ الْعَبِيرُ بِهِ وَصَاكَ  
وَيَمْنَعُ ثَغْرَهُ مِنْ كُلِّ صَبٍّ وَيَمْنَعُهُ الْبَشَامَةَ وَالْأَرَاكَ  
يُحَدِّثُ مُقْلَتِيهِ النَّوْمَ عَنِّي فَلَيْتَ النَّوْمَ حَدَّثَ عَنْ نَدَاكَ  
وَلَا بَخْتٍ لَا يُعْرِقُنْ إِلَّا وَقَدْ أَنْضَى الْعُذَافِرَةَ اللَّكَاكَ  
وَمَا أَرْضَى لِمُقْلَتِيهِ بِحُلْمٍ إِذَا انْتَبَهَتْ تَوَهَّمَهُ ابْتِشَاكَ»

وقد كان «المتنبه» كما كان يقول المغاربة فيما نقل ابن خلكان عن  
أبي القاسم الوزير . فعلم أن الذي كان فيه جميعه حلم ، متى انتبه من (٢٧)  
النوم ، وإنما كان نومه هو ، وجده ابتشاكا أي كذبا .

«فَزُلْ يَا بُعْدُ عَنْ أَيْدِي رِكَابٍ لَهَا وَقَعُ الْأَسِنَّةُ فِي حَشَاكَ  
وَأَيَّا شَيْتٍ يَا طِرْفِي فَكُونِي أَذَاةً أَوْ نَجَاةً أَوْ هَلَاكًا»  
قال أبو منصور ، ونص على أن هذه القصيدة آخر شعره وأمره «جعل  
قافية البيت الهلاك فهلك» — قال العكبري : « قيل أن عضد الدولة قال  
تطيرت عليه من تركه النجاة بين الأذاة والهلاك »

«فَلَوْ سِرْنَا فِي تَشْرِينَ خَمْسٍ رَأُونِي قَبْلَ أَنْ يَرَوْا السَّمَاءَ»  
قالوا « يشير إلى سرعة السير » قال العكبري فكأنه يقول : « إذا أخذ  
السَّمَاءَ فِي الطَّلُوعِ وَأَخَذْتَ فِي السَّيْرِ سَبْقَتَهُ إِلَى أَهْلِ الْكَوْفَةِ » ا . ه .

هذا على تقدير ردِّ الضمير من « رأوني » إلى أهله بالكوفة ، وطلوع  
السماك في خمس تشرين ( أكتوبر ) — أم كان ينظر من عين الغيب إلى  
الراصدين ليصرعوه عند دير العاقول . . . قبل أن يصل إلى بغداد فيتلبس به  
الطريق إلى الكوفة فالشام .

وَرُوحُ الْحُلُمِ وَالْوَهْمِ وَالنَّشْوَةِ الْمَتَزَوِّدَةِ الْعَاجِلَةِ . . .  
انعمْ وَلَدٌ فَلْأَمُورِ أَوَّخِرْ أَبْدَأْ إِذَا كَانَتْ لُحْنٌ أَوَائِلُ

لَلَّهْنُو آوِنَةُ تَمَرٌ كَأَنَّهَا قُبَلٌ يُزَوِّدُهَا حَبِيبٌ رَاحِلٌ  
كل ذلك مستبين في شعره بفارس ، من لدن قال بُعَيْدَ لِقَائِهِ  
عَضُدَ الدَّوْلَةِ :

«أَوْهَ بَدَلٌ مِّنْ قَوْلَتِي وَأَمَّا لِمَنِ نَأَتْ وَالْبَدِيلُ ذِكْرَاهَا»  
إلى أن قال فُبَيْل وداعه له :

«فلو أنِّي اسْتَطَعْتُ خَفَضْتُ طَرْفِي فَلَمْ أَبْصُرْ بِهِ حَتَّى أَرَاكَ  
وهَذَا الشَّوْقُ قَبْلَ الْبَيْنِ سَيْفٌ فَهَآنَا مَا ضُرِبْتُ وَقَدْ أَحَاكَ  
إِذَا التَّوْدِيعُ أَعْرَضَ قَالَ قَلْبِي عَلَيْكَ الصَّمْتُ لِصَاحِبَتِ فَكَأ  
وَلَوْلَا أَنَّ أَكْثَرَ مَا تَمَنَّى مُعَاوَدَةً لَّقُلْتُ وَلَا مُنَاكَ  
قَدْ اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ وَأَقْتُلُ مَا أَعْلَكَ مَا شَفَاكَ  
وَكَمْ طَرِبَ الْمَسَامِعَ لَيْسَ يَدْرِي أَيَطْرَبُ مِنْ ثَنَائِي أَمْ عُلَاكَ (٢٨)  
إِذَا اشْتَبَهَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى»  
وقد بلغ الحلم ههنا أوجهُ فصار نبوءة ، وامترج فيه الحزن العميق  
عند قوله :

«زَوَّدِنَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِكَ مَاذَا مَوْحُسْنُ الْوُجُوهِ حَالُ تَحْوَلِ»

بالبهجة اثملة في قوله !

«مَلَاعِبُ جَنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا سُلَيْمَانٌ لَسَّارَ بِيَتْرَجُمان  
ولكنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ  
لَهَا ثَمَرٌ تُشِيرُ إِلَيْكَ مِنْهَا بِأَشْرِبَةٍ وَقَفْنِ بِلَا أَوَانِي»  
وكان أبو الطيّب أثملاً ما كان إذ نظم هذه القصيدة - أثمله الرُّوضُ  
السَّاحِرُ وَالْأَمِيرُ الْمَسْحُورُ . . . كم ودَّ لو أن سيف الدولة ارتفع إلى بعض  
كفايته على حبه وعهده ووفائه له والشوق إلى أطياف ذراه . . .  
«وَأِنِّي لَا تُنْبِغُ تَذَكَّارُهُ صَلَاةَ الْإِلَهِ وَسَقَى السُّحْبُ  
وَأُنِنِي عَلَيْهِ بِآلَائِهِ وَأَقْرُبُ مِنْهُ نَأَى أَوْ قَرُبُ

وإن فارقتنِي أَمْطَارُهُ فَأَكْثَرُ غُدْرَانِهَا مَا نَضَبَ

وإنما كان غدرانها الشوق والجهد والذكريات :

أَرَوْضُ النَّاسِ مِنْ تَرْبٍ وَخَوْفٍ وَأَرْضُ أَبِي شُجَاعٍ مِنْ أَمَانٍ  
تُذِمُّ عَلَى اللَّصُوصِ لِكُلِّ تَجَرٍّ وَتَضْمَنُ لِلصَّوَارِمِ كُلِّ جَانٍ  
واللصوص لقوه بعد أن فصل من ملك فناخسرو . . . والحناة أصابوه  
قبيل أن يدخل بغداد .

وما أيسر ماصرف الحافظ الذهبي نفسه عن قضية مصرع أبي الطيب  
إذ قال: في حوادث سنة ٣٥٤ هـ في كتابه العبر: « وفيها المتنبي شاعر العصر ،  
أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفي الكوفي ، في رمضان ، بين  
شiraz والعراق ، وله احدى وخمسون سنة ، قتلته قطّاع الطرق ، وأخذوا  
المال الذي كان معه ، وقد مدح عِدَّة ملوك ، وقيل إنّه وصل إليه من ابن  
العميد ثلاثون ألف دينار ، ومن عضد الدولة بشiraz مثلها ، وليس في العالم  
أحد أشعر منه ، أما مثله فقليل » ا . هـ . والقليل عند أهل اللغة والمعدوم  
كأنهما بمعنى .

أما قول الحافظ الذهبي : « قتلته قُطّاع الطريق » فيندرج تحته تفكير  
كثير مع انصراف عن الحرص على اتهم أحد ، والله تعالى أعلم .

«أَرَوْضُ النَّاسِ مِنْ تَرْبٍ وَخَوْفٍ وَأَرْضُ أَبِي شُجَاعٍ مِنْ أَمَانٍ  
تُذِمُّ عَلَى اللَّصُوصِ لِكُلِّ تَجَرٍّ وَتَضْمَنُ لِلصَّوَارِمِ كُلِّ جَانٍ  
إِذَا طَلَبَتْ وَدَائِعُهُمْ ثِقَاتٍ دُفِعْنَ إِلَى الْمَحَانِي وَالرَّعَانِ  
فَبَاتَتْ فَوْقَهُنَّ بِلَا حِجَابٍ تَصِيحُ بِنِ يَمُرُّ أَمَّا تَرَانِي  
« حَمَى أَطْرَافَ فَارَسٍ شَمَرِيٍّ يَحْضُ عَلَى التَّبَاقِي بِالتَّفَانِي  
بِضَرْبِ هَاجِ أَطْرَابِ الْمَنِيَا سِوَى ضَرْبِ الْمَثَالِثِ وَالْمَثَانِي » (٢٩)  
أو كما قال :

« أَتَى الظُّعْنُ حَتَّى مَا تَطِيرُ رَشَاشُهُ مِنْ الدَّمِ إِلَّا فِي نُحُورِ الْعَوَاتِقِ » (٣٠)

ثمَّ تجاوزت أصداء الماضي مع الحاضر . .  
« كَأَنَّ دَمَ الْجَمَّاجِمِ فِي الْعَنَاصِي كَسَا الْبُلْدَانَ رِيَشَ الْحَيْقُطَانِ »  
وهو طائر ذو ريش ألوان - وهذا كقوله من قبل « كالرَّيْحَانِ تَحْتَ  
الشَّقَائِقِ » - والأَنغام والألوان ذكَرَت أبا الطَّيِّبَ حصي الثَّوِيَّةِ  
والحدق الحسن . .

« فَلَوْ طَرِحَتْ قُلُوبُ الْعِشْقِ فِيهَا لَمَّا خَافَتْ مِنَ الْحَدَقِ الْحَسَنِ »  
وغوطة دمشق والثرد اللبيق

« مَنَازِلُ كَمْ يَنزَلُ مِنْهَا خِيَالٌ يُشَيِّعُنِي إِلَى النَّوْبِ نَدَجَانِ  
إِذَا غَنَّى الْحَمَامُ الْوُرُقُ فِيهَا أَجَابَتْهُ أَغَانِيُ الْقِيَانِ  
وَمِنَ الشَّعْبِ أَحْوَجُ مِنْ حَمَامٍ إِذَا غَنَّى وَنَاحَ إِلَى الْبِيَانِ »  
إنَّ الحسام أقوى بيانا من القيان إذ هيَّجَ أبا الطَّيِّبَ فذكره الصحراء  
فحنَّ إليها . . . أو من بالشعب هو أبو الطَّيِّبَ ، ولا بد له من البيان إذا غَنَّى  
وناح وَوَدَّ لو لم يقدر أن يبين . . . وإذن لسعد سعادة الحمام وسعادة القيان .  
« وَقَدْ يَتَقَارَبُ الْوَصْفَانِ جِدًّا وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ  
يَقُولُ بِشَعْبٍ بَوَّانٍ حَصَانِي أَعَنَ هَذَا يُسَارُّ إِلَى الطَّعَانِ  
أَبُوكُم آدَمُ سَنَ الْمَعَاصِي وَعَلَّمَكُمْ مُفَارَقَةَ الْجِنَانِ »

إلى حلب عن طريق دَيْرِ العاقول . . ! (٣١)

« مَا أَجْدَرَ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِي  
بِأَنْ تَقُولَ مَالَهُ وَمَالِي  
لَا أَنْ يَكُونَ هَكَذَا مَقَالِي  
فَتَى بِنِيرَانِ الْحُرُوبِ صَالِي  
مِنْهَا شَرَابِي وَبِهَا اغْتَسَالِي  
لَا تَخْطُرُ الْفَحْشَاءُ لِي بِبَالِي »

وإنَّما وثب إلى هذا المعنى لاتصال فكرة الموت في الحرب - الاغتسال  
الدم - بفكرة الاغتيال ، وهذا المعنى بعينه هو الذى فى الميمية حيث قال :

«ما أبعدَ العيبَ والنقصانَ عَنْ شَرَفِي

أنا الثريا وذانِ الشَّيبِ وَالْهَرَمِ»

وانحسر ثمل النونية عن حزن يسير . . .

«سَقِيًّا لَدَشْتِ الْأَرْزُنِ الطُّوَالِ  
بَيْنَ الْمُرُوجِ الْفَيْحِ وَالْأَغْيَالِ  
مُجَاوِرِ الْحِزْرِ وَالرُّبَالِ  
دَانِي الْخَنَائِصِ مِنَ الْأَشْبَالِ  
مُسْتَشْرِفِ الدُّبِّ عَلَى الْغَزَالِ  
مُجْتَمِعِ الْأَضْدَادِ وَالْأَشْكَالِ»

- أخذ أبو العلاء من هنا فى رسالة الغفران والله أعلم -

«كَأَنَّ فَنَّاخُسْرَ ذَا الْإِفْضَالِ  
خَافَ عَلَيْهَا عَوَزَ الْكَمَالِ  
فَجَاءَهَا بِالْفَيْلِ وَالْفَيْالِ  
«فَاحْشَ نَجْدٍ مِنْهُ فِي بَلْبَالِ»  
«نَوَافِرُ الضُّبَابِ وَالْأُورَالِ»  
«وَالْخَاضِبَاتِ الرُّبْدِ وَالرُّئَالِ  
وَالظُّبَى وَالْخُنَسَاءِ وَالذِّيَالِ  
يَسْمَعْنَ مِنْ أَخْبَارِهِ الْأَزْوَالِ  
مَا يَبْعَثُ الْخُرْسُ عَلَى السُّؤَالِ»  
«لَمْ يَبْقَ إِلَّا طَرْدُ السَّعَالِ  
فِي الظُّلَمِ الْغَائِبَةِ الْهَلَالِ  
عَلَى ظُهُورِ الْإِبِلِ الْأُبَالِ»



« فِي لَا مَكَانَ عِنْدَ لَا مَنَالِ »  
« وَرُبَّ قَبْحٍ وَحُلِيٍّ ثَقَالِ »  
أَحْسَنَ مِنْهَا الْحُسْنُ فِي الْمَعْطَالِ  
فَخَرُّ الْفَتَى بِالنَّفْسِ وَالْأَفْعَالِ  
مِنْ قَبْلِهِ بِالْعَمِّ وَالْأَخْوَالِ »

أترى أبا الطيب ههنا يأخذ على قومه العرب غلوهم في أمر الأنساب ؟  
.. والمعنى قديم عنده ..

« أرى الأجداد تغلبها كثيرا على الأولاد أخلاق اللئسام »  
وحديثه في كافور من مجراه ... ولا ريب أن الفضل الذي رأى  
بفارس قد راعه ... وحسب المرء الفضائل فذلك أعلى من كل نسب ...  
« قَالَتْ أَلَا تَصْحَوْ فَقُلْتُ لَهَا أَعَلِمْتَنِي أَنَّ الْهَوَى ثَمَلُ  
لَا يَسْتَحْي أَحَدٌ يُقَالُ لَهُ فَضْلُكَ آلُ بُوَيْهِ أَوْ نَضَلُوا  
قَدَّرُوا عَقُّوا وَعَدُّوا وَفَوَّاسُئِلُوا أَعْطَوْا عَكَّوْا أَعْلَوْا وَلَوْ أَعْدَلُوا  
فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ مَا طَلَبُوا فَإِذَا أَرَادُوا غَايَةَ نَزَلُوا  
قَطَعَتْ مَكَارِمَهُمْ صَوَارِمَهُمْ فَإِذَا تَعَذَّرَ كَاذِبٌ قَبِلُوا  
لَا يَشْهَرُونَ عَلَى مُخَالِفِهِمْ سَيْفًا يَقُومُ مَقَامَهُ الْعَدَلُ  
لَا أَقْبَلُوا سِرًّا وَلَا ظَفَرًا وَلَا نَصَرْتَهُمُ الْغِيْلُ (٣٢)  
لَا تَلْقَ أَفْرَسَ مِنْكَ تَعْرِفُهُ إِلَّا إِذَا ضَاقَتْ بِكَ الْحِيَلُ »  
وقد يكون أفرس منك يُقْبَلُ سرًّا ويظفر غدرًا وتنصره الغيالات ...  
وقد ضاقت بأبي الطيب الحيل فحمل الجراز إلى البراز وما أياه يحشى ، فما  
كان أحد في ذلك بأفرس منه .

وقد أحكم أعداؤه الخطة كما لم يحكموها من قبل ..  
« أَتَانِي وَعَيْدُ الْأَدْعِيَاءِ وَأَنْهَمُ أَعْدَاؤِي السُّودَانِ فِي كَفْرِ عَاقِبِ  
وَلَوْ صَدَّقُوا فِي جَدِّهِمْ لَحَدَرْتُهُمْ فَهَلْ فِي وَحْدِي قَوْلُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ »

إذ كانوا حيراصا على أن يبادروه قبل أن يصل هو إلى الذي رخص (٣٣)  
 في دمه فيخلص خلاص الحمر من نسج الفدام . . ويعود الأمر جذعة :  
 « فَوْتُ الْعَدُوِّ الَّذِي يَمَمَّتْهُ ظَفْرُ فِي طِيَّةٍ أَسْفَ فِي طِيَّةٍ نِعَمَ  
 قَدْ نَابَ عَنْكَ شَدِيدُ الْخَوْفِ وَاصْطَنَعَتْ  
 لَكَ الْمَهَابَةُ مَا لَا تَصْنَعُ الْبُهَمُ  
 يَا عَدْلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي  
 فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكَمُ  
 أُعِيدُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةٌ  
 أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ . .  
 وَمَا انْتِفَاعُ أَخَى الدُّنْيَا بِنَظَرِهِ . .

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي . . »

« قتلته قطاع الطرق » . . . بهذه العبارة الموجزة رفض الذهبي قصة  
 انتقام فاتك وخبر « ما أنصف القوم ضبة » . . وهلم جرا .

. . . زعم البديعي أن أبا الطيب « كان يكتم نسبه فسئل عن ذلك فقال  
 إني أنزل دائما على قبائل العرب وأحب ألا يعرفوني خيفة أن يكون لهم في  
 قومي ثار » . ا . ه . كأن هذا فرع من خبر فاتك .

وكان سيف الدولة قريب السن من أبي الطيب . وما كان بقاؤه بعده  
 إلا سنة وأشهرًا . قالوا مات بعسر البول وما بقي عنده من عزاء عنه بعد موته  
 غير غبار القصائد التي صنعها فيه يجيئه به أبو فراس والمتشاعرون . . . وغير  
 نفص غبار الغزوات التي غزاها وكان قد جمع منه « شيئا وعمله لبنة بقدر  
 الكف وأوصى أن يوضع عليها خده فنفذت وصيته في ذلك »

« لَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ ضَجْعَةٍ لَا تَقْلِبُ الْمُضْجَعَ عَنْ جَنْبِهِ »  
 « وَغَايَةُ الْمَفْرِطِ فِي سِلْمِهِ كَغَايَةِ الْمُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ »

قال ابن خالويه — فيما روى ابن خلكان — «لما مات سيف الدولة عزم أبو فراس على التغلب على حمص، فأتصل خبره بأبي المعالي بن سيف الدولة و غلام أبيه فرغوية فأنفذوا إليه من قتله . وقد ضرب ضربات فمات في الطريق.» وفي الخبر اختزال وطى كما ترى إذ كان ابن خالوية ضلعه مع (٣٤) أبي فراس.. وما كان أبو المعالي إلا ابن عشر وست أو خمس آنذاك. وعن بعضهم أن أبا فراس كان خاله . وليس بمحقق ، ويدل ذلك على ذلك أن ابن خالويه لا ينص عليه . قيل ولم يعلم — ( ولعله قد علم ) بمقتل أبي فراس حين قتل و «بقيت جثته مطروحة بالبرية إلى أن جاء بعض الأعراب فكفنه ودفنه» — أو بعثهم أخلاء أبي فراس ليفعلوا ذلك . وذلك قول ابن خالويه « فمات في الطريق » . وما أشبه الأبيات : « زين الشباب أبو فراس » أن يكون صنعها وهو في أسر الروم ، إذ ليس فيها شيء يدل على قتله كما لاحظ ابن خلكان .

وأغلب الظن أن أبا فراس إنما أطاح في ثأر أبي الطيب وأن فتكة فرغوية ما كانت إلا عن ملا من إحدى المخبآت اللاتي يضعن النفس (٣٥) أمكنة الغوالي لعنصر الشفى الذى فيها كما ترى . وقد كان لأبي الطيب عند غلمان سيف الدولة أياذ كما كانت له عند مولاهم : مدحهم فى معرض مدحه له كقوله يصف الجيش :

« حَوَالِيهِ بَحْرٌ لِلتَّجَافِيفِ مَائِجٌ يَسِيرُ بِهِ طَوْدٌ مِنَ الْخَيْلِ أَيْهَمُ  
وَكُلُّ فِتْنٍ لِلْحَرْبِ فَوْقَ جَبِينِهِ مِنَ الضَّرْبِ سَطَرٌ بِالْأَسْنَةِ مُعْجَمٌ  
يَمُدُّ يَدَيْهِ فِي الْمَفَاضَةِ ضَيْغَمٌ وَعَيْنَيْهِ مِنْ تَحْتِ التَّرِيكَةِ أَرْقَمٌ »  
ومدحهم برثائه الذى رثى يماك حيث قال :

« لَا بَقَى يَمَّاكَ فِي فَوَادَى صَبَابَةٍ إِلَى كُلِّ تَرْكِي النَّجَارِ جَلِيبِ  
وَمَا كُلُّ وَجْهِ أَيْضُ بِمُبَارَكٍ وَلَا كُلُّ جَفْنٍ ضَيْقِي بِنَجِيبِ  
لَسْنٍ ظَهَرَتْ فِينَا عَلَيْهِ كِتَابَةٌ لَقَدْ ظَهَرَتْ فِي حَدِّ كُلِّ قَضِيبِ  
وَفِي كُلِّ قَوْسٍ كُلِّ يَوْمٍ تَنَاضُلٍ وَفِي كُلِّ طَرَفٍ كُلِّ يَوْمٍ رُكُوبِ »

وإنّما عني بهذا رهطه من الأتراك إذ قد كان هو مسنّاً منهم بدليل قوله  
« وَأَوْفَى حَيَاةِ الْغَابِرِينَ لِصَاحِبِ حَيَاةٍ أَمْرِي خَانَتُهُ بَعْدَ مَشِيبِ »  
وكان أبو الطيّب صاحب خيل وسهام وطراد فأغلب الظنّ أنّه كان  
قويّ الصلّة بغلمان مولاه . ولعلّ منهم من أعانه على الحرب ، ليلة غادر حلب  
وَمَنْ حَذَرَهُ مَادَبَّرَهُ لَهُ حِزْبُ أَبِي فِرَاسٍ ، ليلة هُمّ باغتيالة ... وقد كان  
شاعرهم إذ كان شاعر أميرهم . وإنّ كان سيف الدولة قد رخص في دمه  
فلا بدّ أن يكون قد ندم ندماً مضاً على ذلك . ومهما يك من الأمر فلا بدّ  
أنّه حزن لما بلغه موته وظهر ذلك منه .

وما كانت عداوة أبي فراس لأبي الطيّب يسرّ .

ولما خرج أبو فراس بعد موت سيف الدولة كانت تلك فرصة الانتقام ..  
وما كانت ذات الهودج عنها بعيد . . . والقِتْلَةُ الَّتِي قَتَلَهَا أَبُو فِرَاسٍ  
دَالَّةٌ عَلَى رُوحٍ مِنْ تَشَفٍّ مَرِيرٍ . .

« وَفِي تَعَبٍ مِنْ يَحْسُدُ الشَّمْسُ ضَوْءَهَا »

وَيَجْهَدُ أَنْ يَأْتِيَ لَهَا بِضَرْبٍ

رحمهم الله جميعاً إنّهُ غفور رحيم . .

قال أبو الطيب :

« يَقُولُ كَلَى الطَّيِّبُ أَكَلْتُ شَيْئًا وَدَاؤُكَ فِي شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ  
وَمَا فِي طَبِّهِ أَنَّنِي جَوَادٌ أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طَوْلُ الْحِمَامِ  
تَعَوَّدَ أَنْ يُغَبَّرَ فِي السَّرَابِ وَيَدْخُلَ مِنْ قَتَامٍ فِي قَتَامِ  
فَأَمْسَكَ لَا يُطَالُ لَهُ فَيَرْعَى وَلَا هُوَ فِي الْعَلِقِ وَلَا الدِّجَامِ  
فَإِنْ أَمْرَضُ فَمَا مَرَضَ اضْطَبَارِي وَإِنْ أَحْمَمُ فَمَا حُمَّ اعْتَرَامِي  
وَأَنْ أَسْلَمْتُ فَمَا أَبْقَى وَلَكِنْ سَلِمْتُ مِنَ الْحِمَامِ إِلَى الْحِمَامِ »

فكان كما قال وكان يعلم ما يقول :

« تَمَتَّعْ مِنْ سُهَادٍ أَوْ رُقَادٍ وَلَا تَأْمُلْ كَرَى تَحْتَ الرَّجَامِ (٣٦) »

فَإِنَّ لِثَالِثِ الْحَالَيْنِ مَعْنَى سِوَى مَعْنَى انْتِبَاهِيكَ وَالْمَنَامُ  
قال أبو منصور: « قال ابن جنّي أرجو ألاّ يكون أراد بذلك أنّ نومة  
القبر لا انتباه لها . » ولم يُردْ - على الأرجح - من ذلك شيئاً ، إنّما أراد  
مَحْضُ التَّفَكُّرِ في نفسه وفي خلق السموات والأرض ، وحسبه هذا شافعا  
عند ربه ، إنّه عليم بذات الصدور ،

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

عبد الله الطيّب



## تذيسل

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى وآله وصحبه وسلم تسليما .  
أما بعد، فقد أشار على بعض أهل الفضل ممن قرأوا الطبعة الأولى  
فإذا الكتاب أن الحق به ذيلًا يشرح بعض مغمضه . وهذا حين أبدأ بأذن  
الله تعالى وعونه .

### المُسْقَدُ مَسَّةُ

١ - وقد حمّل امرؤ القيس معه صحراء العرب -

« تَطَاوَلَ اللَّيْلُ عَلَيْنَا دَمُونٌ »

الإشارة ههنا إلى أن امرأ القيس قد كان شديد الحنين إلى ديار بني أسد  
حيث نشأ ، وحيث كان ملك أبيه . وقد كان يحس هذا وهو بدْمُونُ  
فكيف به حين صار إلى القسطنطينية ؟!

٢ - وقد حمل أبو الطيّب ملتقاها بالسواد : أى ملتقى الصحراء بالسواد إذ  
قد نشأ بالكوفة وثم كان مصارع الشهداء من آل البيت إذ قد قتل  
الحسين رضى الله عنه بكر بلاء ممنوعا من ورود ماء الفرات .

٣ - ولكنه بعد ما عدا أنه ألم به غبار الخ - ههنا إشارة إلى قول أبي الطيّب  
يذكر أن سيف الدولة كان إذا أراد أن يسخر من شاعر كلّفه أن يجاريه  
وذلك ما لا استطاع :

« إذا شاء أن يلهو بلحية أحمقٍ أراه غُبَارِي ثُمَّ قَالَ لَهُ الْحَقِّ »

٤ - كأخذ امرئ القيس حين يقول الخ

« كَحَقِيقَةِ النَّقَا يَمْشِي الْوَلِيدَانِ فَوْقَهُ »

بِمَا احْتَسَبَا مِنْ لَيْنِ مَسٍ وَتَسْهَالِ

أى مثل كتيب الرمل ، أى عجزها لنا وامتلاء وحسنا كأنه كتيب الرمل

الذى يستلذُّ الولدان الصغيران المشى فوقه لنعومته ويسره . والشاهد  
ههنا أخذ امرئ القيس أما من تجربة مشاهدته لطفلين يتسابقان على  
كثيب أو من زمان طفولته حين كان هو يفعل ذلك .

« دَرِيرٌ كَمَخْذَرُوفٍ الْوَلِيدِ أَمَرَهُ تَتَابِعْ كَفَيْهِ بِحَيْطٍ مُوَصَّلٍ »  
هذا فى المعلقة يصف به جرى حصانه وأنه فى سرعته وانخراطه مثل  
النحلة التى يلعب بها الولد الصغير بحيط يُمِرُّه بين كَفَيْهِ واللعبة من  
لعب الاطفال معروفة .

« أَصَاحِ تَرَى بَرْقًا أَرِيَانًا وَمِيضَهُ كَالْمَعِ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَمَّلٍ »  
فى المعلقة يصف برقًا ويقول انظر إلى التماع ذلك البرق كحركة يدين  
يلمع بهما صاحبهما إشارة أو نداء من مكان بعيد وهذا من التجارب  
المشاهدة . ويجوز أن يكون عنى بلمع اليدين ههنا حركة إشارة اليدين  
من الفتاة التى فى أوائل القصيدة حيث قال :

« تَصُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقِي بِنَاظِرَةً مِنْ وَحْشٍ وَجِرَّةً مُطْفَلٍ  
وَتَعْطُو بِرُخْصٍ غَيْرِ شَيْءٍ كَأَنَّهُ أَسَارِيْعٌ ظَبْيٌ أَوْ مَسَاوِيكٌ إِسْحَلٍ »  
وهذا كأنه أقوى فى التأويل عندى والله تعالى أعلم .

ه — كعودات امرئ القيس إلى عهد طفولته فى أمثال قوله

« يَنْزِلُ الْغَلَامُ الْخُفَّ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ وَيَلْوِي بِأَثْوَابِ الْعَنِيفِ الثَّمْثَلِ »  
فأشبهه شىء أن يكون الغلام الخف هذا أراد به الشاعر نفسه أيام كان  
غلامًا ويكون العنيف المثلث شخصا آخر يعرض هو به أو هو نفسه بعد  
أن ذهب عنه الشباب وصار إلى الذكريات . والله أعلم .



## الفصل الأول

١ — « كقولہ يحمى الخ. » البيت من قصيدة أبى الطيب التى مطلعها :  
« لِحَوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لَا تُعْلَمُ عَرَضًا نَظَرْتُ وَخِلْتُ أَنِّي أَسْلَمُ »  
وهى فى هجاء ابن كىغلغ ومدح أبى العشائر . والبيت هو :  
« يحمى ابن كىغلغ الطريق وعيرسُهُ مابسينَ رجليها الطريقُ الأعظمُ »  
أى هو يحمى الطريق لمنعه إيتاى من السفر ، وحبسى كيما أمدحه مضطرا ،  
وكان أولى به أن يحمى امرأته فلا تفجر — وهذا من خبيث الهجاء  
وبذيته كما ترى .

٢ — « أُرْسَلَتْ تَسْأَلُنِي الْمَدِيحَ سَفَاهَةً صَفَرَاءُ أَضِيقُ مِنْكَ مَاذَا أَرْعُمُ »  
هكذا البيت كاملا وهو من فاحش القول واتهمه فيه أنه مأبون والبيت  
من القصيدة المشار اليها فى (١) .

٣ — شَمَّ رِيحَ الموت — هذا من قول الحارث بن هشام يعتذر من فراره يوم  
بدر :

« وَشَمَمْتُ رِيحَ الموتِ مِنْ تِلْقَائِهِمْ وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أَقَاتِلُ أَجْهَدُ  
وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أَقَاتِلُ وَاحِدًا أَقْتُلُ وَلَا يَضُرُّ عَدُوِّي مَشْهَدِي »  
٤ — هذا هو المجلس الذى انشد فيه أبو الطيب قصيدته المشهورة :

« وَاحِرٌ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِيحٌ وَمِنْ الْجَسْمِ وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ »  
فقد أغضب سيف الدولة حتى رماه بدواة . وسعى السامريُّ هذا لدى  
سيف الدولة ليأذن للسادة الذين حضروا المجلس آنئذ أو من كان على  
رأيهم فى قتله . ومثل هذا كان قد يحدث فى مجالس امراء ذلك الزمان  
— بل لعلَّه لم يخل من نحوه زمان . وقد رَوَوْا أَنَّ أَحَدَ النَّاسِ قَالَ لِلْمَأْمُونِ  
فِي مَجَادَلَةٍ ، لَعَلَّهَا كَانَتْ فِي خَلْقِ الْقُرْآنِ أَوْ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ « يَا  
أَمِيرَ الْكَافِرِينَ » فَتَخَطَّفَتْهُ السُّيُوفُ . وَيَذْكُرُونَ أَنَّ أَحَدَ أَعْضَاءِ مَجْلِسِ

الشيخ بروما بعد عهد اغسطوس قال كلمة حق أو باطل مما عسى أن يكون لا يرضاه الإمبراطور فاغمد أحد زملائه فيه خنجرا وأعانته آخرون يتقربون بذلك إلى الملك فسبحان الله القادر .

٥ - وفي البائية الخ - المراد قوله :

« أَغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ »

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ وَالْوَصْلِ أَعْجَبُ »  
وهي من عيون شعر أبي الطيب، مدح بها كافورا وأنشدها إيّاه. قوله :  
« وَكَمْ لِي ظِلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ »  
أي أنت مدين لليل بحسنات كثيرة تدلُّ على بطلان مذهب المانويين .  
وهؤلاء كانوا يَرَوْنَ الليلَ والظلامَ كذَّه رمزا للشر والشيطان وهم  
التنوية أتباع ماني وانتشر مذهبهم بفارس في الدهر القديم وأخذ الزنادقة  
بطرف منه ومن حسنات الليل التي يقصدها أبو الطيب أنه ستره عن  
الأعداء فوقاه من أن يقتلوه مع أنه كان يجتاز بديارهم ومن حسناته  
أنه زاره فيه ذو الدلال المُحَجَّب، فمن ذو الدلال المُحَجَّب ومتى  
زاره ؟ هذا إذا أراد التدقيق . ويجوز حمل الكلام على عمومه أي  
زارك فيه الأحباء فلم يرهم من يغار عليهم . ويسوغ لنا أن نطلب  
التخصيص والتحديد علمنا أنه أخذ قوله في صدر البيت « وراك  
رَدَى الأعداء » من التجربة الشخصية مباشرة . وقد قال :

« وَيَوْمَ كَلِيلِ الْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ أَرَأَيْتَ فِيهِ الشَّمْسَ أَيْتَانَ تَغْرُبُ »

فدلَّ على أنه ماهرب إلا ليلا، وأنه كان كامنا بالنهار يترقب مجيء  
الليل، وكان نهاره هذا قد طال جدا من شدة قلقه هو وانتظاره؛ كما يطول  
ليل العاشق الذي يسهر يتذكر حبيبته أو يتوقعه أن يزور فلا يزور .

٦ - رائية امرئ القيس هي التي مطلعها :

« سَمَا كَلَّتْ شَوْقُ بَعْدَمَا كَانَ أَقْصَرَا »

وَحَلَّتْ سُلَيْمَى بَطْنُ ظَبْيٍ فَعَرَّعَرَا »

نظمها يحنُّ فيها إلى بلاد العرب ويصف طريقه إلى قيصر وقد وصف  
فيها خيل البريد وهي خيل غير عربية وذلك قوله :

« عَلَى كُلِّ مَقْصُوصٍ الذُّنَابِي مُعَاوِد  
بَرِيدَ السَّرَى بِاللَّيْلِ مِنْ خَيْلِ بَرَبَرَا  
إِذَا زُعْتَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ كَلَيْهِمَا مَشَى الْهَيْدَبَى فِي دَفْعِهِ ثُمَّ فَرَفَرَا »  
٧ - وهو غير التي قال فيها :

« وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بَهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ »  
وهذه كما لا يخفى هي الحمى وقد وصفها في القصيدة التي منها هذا  
البيت وهو أوّل أبيات وصفها . ومطلع القصيدة :  
« مَلُومُكُمْ مَا يَحِيلُ عَيْنِ الْمَلَامِ وَوَقَعَ فَعَالِيهِ فَوْقَ الْكَلَامِ »  
٨ - ولا ينبغي له الخ قول أبي الطيّب :

« كَأَنَّ فَعْلَةً لَمْ تَمَلَأْ مَوَاكِبُهَا دِيَارَ بَكْرِ وَلَمْ تَخْلَعْ وَلَمْ تَهَبِ »  
فيه نهاية التهذيب والاحتراس . والمراد بقوله « فعلة » هو خولة ولكن  
أبا الطيّب رأى أنّ هذا موضع كناية لا ينبغي أن يذكر فيها اسم الحرّم .  
ولم تكن الأذواق عهد أبي الطيّب لإشديدة التقبل لمثل هذا الاحتراس  
منه . وفي بعض طبقات ديوان أبي الطيّب يضعون « خولة » وليس  
بجيد إلا أن ثبتت به رواية « صحيحة » عن الشاعر وهذا بعيد جدا .  
٩ - قال أبو الطيّب :

« لَقِيتُ بِدَرْبِ الْقَلَّةِ الْفَجَرَ لَقِيَّةً شَمَتَ كَمْدِي وَاللَّيْلُ فِيهِ قَتِيلُ »  
أى كنت مع حبيبي ليلة كاملة حتى طلع الفجر علينا بدرب القلة  
فكأننى قد قتلت الليل ذا الظلماء بنور إشراق الحبيب فانتصل نوره  
بنور الفجر وشفى ذلك كمدى إذ بذلك اللقاء الباهر قد انتقمت من الليل  
الذى طالما أمضىنى قبل بالسهر فى ظلماته والهموم .  
يشعرنا السياق أنّ لقاء أبي الطيّب من لاقى قد كان أثناء السير وهم  
فى طريقهم إلى قتال الروم .  
فمن الطعينة التي لاقاها أبو الطيّب وسابرها حتى طلع عليهم الفجر فى  
درب القلة فودّعها وهو راضٍ ذاهبُ الكمد ؟

١٠ - وآخر القصيدة بلاريب قوله :

«يَهُونُ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ جُسُومُنَا وَتُسَلَّمَ أَعْرَاضُ لَنَا وَعُقُولُ»

هذا نقوله على وجه من وجوه الخدس والترجيح لأن آخر القصيدة في الديوان معروف . والذي يتأمل شعر أبي الطيب في سيف الدولة يجد أن في كثير من قصائده زيادات لا يحتملها السياق الذي عليه بيان الشاعر . ولم يكن أبو الطيب بالضعيف الركيك الذي يخلط الساقط من القول بالجلد ولا يأبه لذلك في عهد نضجه الذي نعلم . ويختل إلى أن بعض من كانوا يحبون أبا الطيب ويشفقون عليه كانوا يحملونه على أن يذكر سيف الدولة بالمدح الصريح كلما ألفوه قد انهمك في نعت السير والقتال ومقدمات النسيب وما أشبه ذلك مما هو بعيد من الممدوح . ومن أجل هذا ما كان ( فيما نحسب ) يلوذ أبو الطيب بالتلاعب بمعنى السيف ليضمّنه معنى سيف الدولة وهلّم جرّاً ، استجابة لصدقائه . من ذلك مثلاً ، آخر هذه القصيدة اللامية وفيه البيت المشهور :

«إذا كان بعضُ النَّاسِ سَيْفًا لِدَوْلَةٍ

فَفِي النَّاسِ بُوقَاتٌ كَلَمًا وَطُطْبُولُ»

ومن ذلك مثلاً الأبيات التي بعد النسيب في قصيدته «فَدَيْتَاكَ

مِنْ رُبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرُبًا» - من نحو قوله :

«تَهَابُ سَيْوْفُ الْهِنْدِ وَهَيْ حِدَائِدُ فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ نِزَارِيَّةً عُرُبًا

وَيُرْهَبُ نَابُ اللَّيْثِ وَاللَّيْثُ وَحْدَهُ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ اللَّيْثُ لَهُ صَحْبًا

وَيُخْشَى عُبَابُ الْبَحْرِ وَهُوَ مَكَانَهُ

فَكَيْفَ بِمَنْ يَغْشَى الْبِلَادَ إِذَا عَبَا»

والله تعالى أعلم .

١١ - وفي النونية بِمِ التَّعَلُّلُ - هي التي مطلعها :

«بِمِ التَّعَلُّلُ لَا أَهْلٌ وَلَا وَطَنُ وَلَا نَدِيمٌ وَلَا كَأْسٌ وَلَا سَكَنُ

أُرِيدُ مِنْ زَمَنِي ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِي مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ»

١٢ - الرياح النكب: أى المائلة المنحرفة . أى سمت النظام غالب على دولته حتى الرياح المائلة تستقيم به .

١٣ - هذا البيت :

«إِذَا سَارَتْ الْأَحْدَاثُ فَيُوقَ نَبَاتُهُ تَفَاوَحَ مِسْلُكَ الْغَانِيَاتِ وَرُنْدُهُ»  
جميل جداً . الأحداج هى الموادج . أى إذا سارت الموادج فوق مروج هذا المكان ذوات الرند، وهو من النبات العطر ، عمّ السرور والبشر الشذى الطيب - المسك يتفاح من ثياب الغانيات وابشارهن ، ومن طيب النبات وزهره ذى العبير ، ولا يخفى ما يشيعه مثل هذا الجو من البهجة وانسراح الصدور .

١٤ - تمام البيت « وَمَا سُرَاهُ عَلَى خَفٍّ وَلَا قَدَمٍ » وهو مطلع قصيدة من جِيَاد شعر أبى الطيب ، ذكر فيها وفاة فاتك وخروجه هو من مصر .

١٥ - قَرِيٌّ : بوزن فعيل أى جدول والمراد ههنا من أسلوب كذا وكذا وجمع قري (قاف مفتوحة وراء مكسورة وياء مشددة) قَرِيَّانَ بضم القاف وسكون الراء وياء بعدها الف ونون وأبو العلاء قد يؤثر هذه الكلمة أحيانا ومنه اخذناها . والبيت « ملومكما » تمامه :

« مَلُومُكُمَا يَجِلُّ عَيْنَ الْمَلَامِ وَوَقَعُ فَعَالِهِ فَيُوقَ الْكَلَامِ »  
وهو مطلع قصيدة نظمها أبو الطيب بمصر وذكر فيها الحمى وشكا الدهر ، قالوا وأنشدوا كافورا فكأنه لم يرض عنها .

١٦ - إلى النّوبندجان ، إشارة إلى قول أبى الطيب :

« مَنَازِلُ لَمْ يَزَلْ مِنْهَا خَيَالُ يُلَاحِظُنِي إِلَى النَّوْبَنْدَجَانِ »

وهو من قصيدته المشهورة التى مطلعها :

« مَغَانِي الشَّعْبِ طَيْبًا فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ »

وقولنا إلى دمشق لبيق الرد الخ

أى وقد لاحقه خيال كما قال هو إلى النوبندجان . ثم قد سرح فكره

فى الذكريات فرأى أطياف دمشق — دمشق ذات الرجل الشهم الكريم  
الذى كان يصنع له الثريد الجيّد ( هذا معنى قوله لبيق الرد ويقدم  
للأضياف فى الجفان الصّينيات ، وهذا يكون سيف الدولة أو  
أبا العشائر أو من كان هو أى أبو الطيّب ضيفا لديه من آل حمدان  
وإليه الإشارة فى القصيدة الهائية

« أحبُّ حمصاً إلى خنصرة وكل نفس تُحبُّ حَمِيَّاهَا  
حيثُ التَّمَتَّى خَدُّها وتَفَتَّحَ لُبُّها انْ وَثَغَرِي عَمَلِي حَمِيَّاهَا »

١٧ — قلائدُ كافور وعقيانه . . . البيت — وهو مابعده من القصيدة :  
« أودُّ من الأيامِ مالا تودُّه وأشكو إليها بيننا وهى جُنْدُه »  
وقالها فى مدح كافور ومنها البيت :

« إذا سارتِ الأحداجُ فوقَ نَباتِه تَفْماوَحَ مِسْلُكُ الغانياتِ ورَندُه »  
رقم ١٣ من قبل .

١٨ — ذلك بأن الله قد كتب على ابن آدم الخروج من الجنة بعد أن أذله  
الشيطان هو وأمنا حواء فأخرجهما ممّا كانا فيه . والقصة معروفة  
وذكر الطبرى أنّ ابن اسحق كان يرى أن وسوسة إبليس لآدم فى  
الجنة كانت من نوع وسوسته لابنائه من بعد ، لا أنّه اختفى فى فم  
الحية وأدخلته الجنة فتحدّث إلى آدم وحواء. هذه العبارة التى فى هذا  
الكتاب معناها أنّ ابن آدم مجبول فى طبعه على القلق حتى بالنعماء،  
ولذلك قال حصان أبى الطيّب :

« أبوكُم آدمٌ سَنَّ المَعاصِي وَعَآمَكُم مُفَارَقَةَ الجِنَانِ »

١٩ — تمامه : « والسيفُ والرُمحُ والقرطاسُ والنقلمُ »

٢٠ — تمامه : « أنا أهوى وقلبك الممتبول »

وهو مطلع قصيدة بعث بها أبو الطيّب إلى سيف الدولة بعد انصرافه  
من مصر

٢١ - فتاة : أى الشمس . وزادت أبها كَمَا العطبول - أى التى هى أبها كما زادتني ضنًى وسقما .. وهى أنت العطبول . والعطبول هى المرأة الحسنة الجيدة الجسم .

٢٢ - ويوما كأن الحسن الخ ، راجع رقم ٨ من قبل - أى لقيت الفجر بدرب القلّة فشفيت نفسى من الليل ثم أشرق يوم جميل ، كان حسنه علامة منك ، وشمسه رسول بعثت أنت به ؛ وذلك لأنه استمر يسايرها فاتّصلت سعادة ليله بسعادة نهاره كما ترى والله تعالى أعلم .

٢٣ - أى تنظر فى عينى فترى صورة نفسها ، فقبّلت عينى وإنّما قبّلت فاها .  
٢٤ - وهُنَّ درُّ فذبن أمواها : أى بكن فتساقط منهُنَّ الدرُّ وهنَّ درُّ . وذلك لصفاء أبشارهنَّ مثل صفاء الدرِّ ودموعهنَّ الذائبات على أبشارهنَّ الصافيات الألوان كلُّ أولئك فسبحان الخالق القدير .

٢٥ - أو عرّضت عانةً مُقزّعةً ، أى : قطع متفرق من حُمُرِ الوحش .

## الفصل الثاني

١ - وفي النفس بعدُ من تراجم ... الخ  
وذلك لشدة احتراسه كما تقدّم في النص . ولعلّه إنّما سمّي الثعالبي لا لبيعه فراء الثعالب ولكن لثعلبيّة كانت فيه ، ولعلّه ما كتب اليتيمة كله إلاّ من أجل هذا الفصل الذي عقده لأبي الطيّب لشدة حيويّته إذا قيس ذلك إلى سائر الكتاب وليس مصدر ذلك حيويّة الشاعر ولكن حيويّة أبي منصور نفسه . وقد يستطيع الكاتب البارد أن يكتب عن أبي الطيّب كتابا باردا كالذي فعل يوسف البديعيّ في كتابه الصبح المنبى عن حييّة المتنبي .

٢ - الشاهد ههنا أنّ الأبيات التي ذكرها أبو منصور من جيّد شعر أبي الطيّب وأصدق تمثيلا للصفات التي ذكرها هو في محاسنه . « مخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب الخ » ولكنه احتراسا لنفسه وصفها بأنها ربّما دخلت في باب إساءة الأدب بالأدب لجرأتها وما فيها من الدعاوى التي كان ينكرها خصوم أبي الطيّب وخصوم ذكره . وإذا جاز أن تقع من أبي الطيّب إساءة الأدب بالأدب في مدح سيف الدولة ، فكيف يكون شأنه مع منافس له مثل أبي فراس وهو القائل :

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتِ ضِبْنِي شُوَيْعِرٌ ضَعِيفٌ يُفَاوِينِي قَصِيرٌ يُطَاوِلُ  
لله دَرُّهُ !

٣ - أمّم : أي قريب : أي أمر الجهلاء من العلماء غير قريب . وحسبنا عزاء أنّنا جهلاء إذ الله تعالى يقول : وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا . وإنّما العلم خشيةُ الله ، واتقوا الله ويعلّمكم الله . وجزاء التقوى يوم يقوم الأشهاد . ولو شاء الديّان لنصر الآن وهو على كل شيء قدير .



٤ — «حب ماخف عنكم»، «أى أقل سلامي حبًا للتخفيف عنكم، كأنه متى سلّم على كافور كان كأنه يذكره بالوعد الذي وعده إيّاه من إعطائه ولاية وهلم جرا .

٥ — الملاب : ضرب من الطيب

٦ — موضع الماخذ هو أن المداعبة في هذا المقام تناقض روح الشرف التي ينبغي أن ينعت بها الممدوح وهذا هو ماذهب إليه أبو الطيّب حيث قال «يُثَبِّنُكَ بِالَّذِي أَوْلَيْتَ شُكْرًا وَأَيْنَ مِنَ الَّذِي تُؤَلِّي الثَّوَابُ وَلَيْسَ مَصِيرُهُنَّ إِلَيْكَ شَيْئًا وَلَا فِي صَوْنِهِنَّ لَدَيْكَ عِيَابُ» تأمل قوله : « في صونهن لديك » فمثل هذا تتقطع دونه الأعناق . . أعناق أبي فراس وغيره . والله أعلم .

٧ — وعلى نحو قوله — تمام الكلام بعد الأبيات . هكذا اعتمد الثعالبي في الوصف الذي وصفه لغزوات سيف الدولة .

٨ — فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ وَإِنْ زِدْنَا كَثْرًا

فإنّك كنت الشرق للشّمس والغربا

هذا هو مطلع القصيدة . ثم نصف البيت « سراياك تترى » تمامه : «سراياك تترى والدُّمُسْتُقُ هاربٌ وأصحابه قتلوا وأمواله نهبى وتمام « على قدر أهل العزم » هو :

«عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ

وَتَأْتِي عَلَى قَدَرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

٩ — يضح مضارع وضح مثل وزن يزن أى انضح يتضح

١٠ — تمامه : «إِنْ قَاتَلُوا جَبَنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجَعُوا»

١١ — أى كلُّ نبوغ له ثمن وكل نابغة تجد فيه عيبا . ولكن خصّ الله أصحاب النبوات بالكمال لعنايته هو جلّ شأنه التي أسبغها على أنبيائه حتّى

يتحملوا أعباء الرسالة ويبلغوها والله أعلم .

١٢ — للإمام الغزالي في ربيع المهلكات من كتابه إحياء علوم الدين فصل رائع عن الحسد وقد ذكر رضى الله عنه للحسد أدوية وهذا يخالف ما قاله أبو الطيب :

« سِوَى حَسَدِ الْحَسَادِ دَاوٍ فَإِنَّهُ إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ »  
ويحمل كلام الغزالي ، إن شاء الله ، على أن يدرك المرء الحسد قبل أن يخلّ ويستفحل والله تعالى أعلم .

١٣ — لماذا أرسل أبو العشائر أشخاصا ليغتالوا أبا الطيب ؟  
يجوز أن يكون أناس قد وشّوا بأبي الطيب عند أبي العشائر وإذا صَحَّ  
أنّه قد كانت بين أبي الطيب وبعض نساء أبي العشائر مودة فالوشاية  
أقرب شيء أن تكون في هذا المجرى .

والفرض المفترض ههنا هو أنّ أبا العشائر لم يرسل هؤلاء المغتالين ولكن  
أرسلهم أبو فراس وقالوا لأبي الطيب إنهم غلمان أبي العشائر على  
وجه التهديد له . . . كأنّهم يجابهونه بأنّ الذى بينه وبين بعض آل أبي  
العشائر جريمة تستوجب قتله . وأنّه إن أفلتت هذه المرأة فلن يُفْلِتَ مَرَّةً  
أخرى تلى . وما فرّ أبو الطيب من حلب إلّا وهو يحسّ أنّ حوله  
خطرا عظيما والله تعالى أعلم .

١٤ — تمامه : « شَدِيدُ السُّكْرِ مِنْ غَيْرِ النُّمْدَامِ . »

١٥ — تمامه : أَبَعْدَ مَا بَانَ عَنكَ خُرْدُهَا . وهو مطلع قصيدة .

١٦ — عَيْنِيَّةٌ مُتَمِّمٌ بِنُورِ يَرِثِي بِهَا أَخَاهُ مَالِكُ بْنُ نُورِةٍ فِي الْمَفْضَلِيَّاتِ  
مطلعها :

« لَعَمْرِي وَمَا دَهْرِي بِتَأْيِينِ هَالِكٍ وَلَا جَزَعٌ مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعَا »  
وهي من عيون المراثي في الشعر العربي .

١٧ — وهانا : يستحسن في اللغة أن يحىء اسم الإشارة بعد الضمير فيقال

هانذا وقد روى هانا وليس في الذروة من الفصاحة والله أعلم .

١٨ - تمامه : « مِنْنِي بِحُلْمِي الَّذِي أَعْطَيْتُ وَتَجَرَّيْبِي . »  
أبو الطيب منصف .. ونحن إذا تمنينا الصبا تمنينا أيضا معه أن تبقى معنا  
تجاربنا وحلمنا لكي نجتمع بين قوتى الشباب والنضج وذلك هو المستحيل .  
إلا عند أهل الجنة إذ كلهم شباب ، وكما وصفهم الله تعالى : لا  
يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قليلا سلاما سلاما .

١٩ - شواهد الحسد في قوله : « ياناعم الثوب » « ياراكب الخيل » وشاهد  
الغرور قوله « فآرق فيك الجمال أجملها » ... ومن كان سمينا  
عند نفسه والله در أبى الطيب إذ قال :  
« أَعْيِذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً »

« أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فَيَمَنَ شَحْمُهُ وَرَمُ »  
٢٠ - النبع ضرب شديد من الخشب ، والغرب ضعيف ، والصقر من أشد  
الطيور الجوارح ، والحرب من ضعاف الطير .

٢١ - « أَبْنَيْتَنِي لَا تَجْزَعِي » : الأبيات ستأتى من بعد كاملة .  
وابن خالويه كان من أعداء أبى الطيب وشجّه بمفتاح

### الفصل الثالث

١ — قال أبو الطيّب ، « وما أنا إلا عاشقٌ » — هذا من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :

« وَفَاؤُكُمْ كَمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ »

بأن تُسعدا والدَّعُ أشْفَاهُ سَاجِمُهُ »

أى أنا عاشق . وكل عاشق فالتذى يلومه من بين أصدقائه قاس عليه .

٢ — الذى يُرَجِّحُ أَنَّهَا عَيْنُ الْمَحْبُوبَةِ الَّتِي فِي الدَّالِيَّةِ أَوْ قُلْ هِيَ الَّتِي أَهْمْتُ نَسِيبَ الدَّالِيَّةِ كَمَا أَهْمْتُ نَسِيبَ الْمِيمِيَّةِ كَمَا أَهْمْتُ نَسِيبًا كَثِيرًا عِنْدَ أَبِي الطَّيِّبِ هُوَ تَكَرُّارُ الصُّورَةِ الدَّالَّةِ عَلَيْهَا وَتَشَابُهِهَا . مِنْ ذَلِكَ ، هَذَا الطَّيِّبُ وَالْأَرْجُ وَإِحْسَاسُ الْإِنْشِرَاحِ وَالْبَهْجَةِ — الْغَالِبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَّفِقُ مَجْرَدَ اتِّفَاقٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَبْعُثُهُ فِي الْأَصْلِ وَاحِدًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٣ — « وَحَالِ كِلَاهُنَّ رُمْتُ بُلُوغَهَا — »

تشبيه الحال باحداهن فيه نوع من العهد والخصوصية والتجربة الذاتية .  
أى رُبَّ حَالٍ أَطْلُبُهَا هِيَ فِي شِدَّةِ رَغْبَتِي إِلَيْهَا وَعَسْرِ مَنَالِهَا كِفْلَانَةَ الْعَزِيزَةِ الْبَعِيدَةِ الْمَنَالِ — أَلَا تَرَى أَنَّ بَعْضَ مَا نَذْهَبُ إِلَيْهِ فِي هَذَا الصَّدَدِ عَسَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَجْهٌ قَوِيٌّ يَبْرُرُهُ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٤ — هَذَا الْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ لِحَرَّانِ الْعَوْدِ فِي دِيْوَانِهِ الْمَطْبُوعِ ( دَارُ الْكِتَابِ ) وَقَدْ اسْتَشْهَدَ بِهَذَا الْبَيْتِ وَآخِرُ مِنْهَا أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعْرِيُّ فِي رِسَالَةِ الْغَفْرَانِ وَهُمَا :

« وَأَمْسَكْنِي دُونِي كَلَّ حُجْزَةً مِئْزَرَ لِهْنٍ وَطَاحَ النَّوْفَلِيُّ الْمُزْخَرَفُ  
وَقُلْنِي تَمَتَّعَ لَيْلَةَ النَّأْيِ هِذِهِ فَإِنَّكَ مَرْجُومٌ غَدًا أَوْ مُسَيِّفٌ »  
أى ، قلن لى تمتع بالأنس معنا فى أخرى ليايلك هذه . وكشفن عن أوجههن وطاح النوفلى أى الحمار النوفلى — وهو ضرب من الثياب الرقاق — الذى عليه الزخرف وأبجن القبل ولكنهن منعن ما وراء ذلك

وَأَمْسَكْنَ حُجْزَاتِ مَآزِرِهِنَّ أَيَّ مَعَاقِدَ مَآزِرِهِنَّ وَقَلْنَ فِي امْتِنَاعٍ  
وَمَدَاعِبَةِ إِيَّاكَ وَهَذَا فَإِنَّهُ يَجْرُ عَلَيْكَ الْقَتْلُ أَمَا رَجَمَا وَأَمَا بِالسَّيْفِ — ثُمَّ  
يُشْعِرُ قَوْلَهُنَّ لَهُ : « فَإِنَّكَ مَرَجُومٌ غَدَاً أَوْ مُسَيِّفٌ » أَنَّ هَذَا الَّذِي  
اخْتَلَسَهُ مِنَ اللّٰهُوَ رَبِّمَا جَرَّ عَلَيْهِ الرَّجْمُ أَوْ السَّيْفُ إِنْ فَطِنَ لَهُ بَعْضٌ مِنْ  
يَغْسَارِ عَلَيْهِنَّ . وَلَا يَخْفَى بَعْدُ مَا فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ مِنْ رُوحِ الْإِنْسِ  
وَالْمَرْحِ . وَهَذِهِ الْفَائِيَّةُ نَظَرَ فِيهَا جِرَانَ الْعُودِ إِلَى مِنْهَجِ الْفَرَزْدَقِ فِي فَائِيَّتِهِ :

« عَزَفْتُ بِأَعْيَاشٍ وَمَا كِدْتُ تَعَزُّفُ  
وَأَنْكَرْتُ مِنْ حُدْرَاءِ مَا كُنْتُ تَأَلَّفُ »

وإلى منهج رائيّة عمر بن أبي ربيعة :

« أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرٌ غَدَاةَ غَدٍ أَوْ رَائِحٍ فَمُهَجِّرٌ »  
ثُمَّ هِيَ بَعْدَ نَسِيجٍ وَحْدَهَا فِي بَابِهَا وَاللّٰهُ أَعْلَمُ .

٥ — مَضْغُ الْكَلَامِ ، يَسْتَحْسِنُ الْقَلِيلُ مِنْهُ فِي مَذْهَبِ الْمَلَاةِ وَعَلَى أَوْجِهِ  
خَاصَّةً . وَهُوَ فِي جَمَلَتِهِ مَتَكَلَّفٌ بَغِيضٌ مَتَى خَرَجَ عَنْ هَذَا الْمَذْهَبِ  
الَّذِي قَدَمْنَا .

٦ — مِمَّا يَنْظُرُونَ بَعِينَ الْكَشْفِ : أَيُّ كَثِيرًا مَا يَنْظُرُونَ أَوْ رَبِّمَا يَنْظُرُونَ وَمِمَّا  
تَسْتَعْمَلُ فِي الْعَرَبِيَّةِ لِإِفَادَةِ مَعْنَى التَّكْثِيرِ .

٧ — مَوْضِعُ السُّؤَالِ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ : وَطُلْتُ حَتَّى كَلَاكُمَا وَاحِدًا — فَالْإِلْحَاحُ  
عَلَى ذِكْرِ الطَّوْلِ يُشْعِرُ أَنَّ التَّيَّ أَوْحَتْ هَذَا الْكَلَامَ عَسَى كَانَتْ ذَاتُ  
طَوْلٍ . وَقَدْ قَالَ فِي لَامِيَّتِهِ « مَا لَنَا كُلُّنَا جَوَّ يَارَسُولُ » :  
« مِثْلُهَا أَنْتَ لَوْحَتِي وَأَضْنَيْتَ وَزَادَتْ أَبْهَآكُمَا الْعُطْبُولُ »  
وَالْعُطْبُولُ هِيَ الطَّوِيلَةُ الْحَسَنَةُ .

وَفِي شَعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ مَا يُفِيدُ أَنَّهَا كَانَتْ قَصِيرَةً وَهَذِهِ يَجُوزُ أَنْ تَدُلَّ  
عَلَى قَصْرِ الْقَامَةِ أَوْ عَلَى أَنَّهَا مَقْصُورَةٌ . وَهَذَا الْمَعْنَى فَصَّلْنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ .  
وَالْفِكْرَةُ هَهُنَا أَنَّ بَعْدَ الْمَسَافَةِ بَيْنَ أَبِي الطَّيِّبِ وَبَيْنَهَا جَعَلَ شَخْصَهَا  
تَتَضَاعَفُ أَبْعَادُهُ فِي تَخْيُّلَتِهِ فَرَأَى طَيْفَهَا الْبَعِيدَ كَأَنَّهُ يَمْلَأُ آفَاقَ السَّمَاءِ .

ومثل هذا صنعه امرؤ القيس حينما تأمل نار محبوبته البعيدة فخيّل إليه أنّه يراها وهو بأذرعَات وهي بيثرب وتلك مسافة بعيدة. بل لعلّه رآها رؤية حقيقية بعين قلبه . وأحيانا إذا أبصرت عين القلب صحت الرؤيا لدى عين البصر لأن عين البصر إنّما ترى بضوء القلب — قال تعالى : « فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ. » ومن العجب قول امرؤ القيس أنّه رأى النور — نور المحبوب وهو بالشام والمحبوب بيثرب . ولا يصح مثل هذا المعنى إلّا في معنى صوفيٍّ مدار النَّسِيبِ فيه الذَّاتُ الْمُحَمَّدِيَّةُ . ولعلّ امرؤ القيس نظر بعين الكشف فأحسّ اقتراب عهد النبوة فانطقه الله بهذا القول الحسن البديع . والله تعالى أعلم .

٨ — كان جاهلا : ههنا الإشارة إلى قول العكبري ينتقد تصريح أبي الطيّب باسم ضبّة في قصيدته المقذعة

« ما أنصف القومُ ضبّةً وأمّه الطُّرُطُبّة »

فقد قال العكبري « كان جاهلا » — كأنه يشفق عليه ويعاتبه به من وراء الدهور .

٩ — أي يدّعون حبّاً عذريّاً للغلمان والوصفاء، وينظمون الشعر في ذلك ويضمون من المعاني والتجارب ما هو مراد به حقّاً غزل النساء . ولكن روح الغيرة والمحافظة على تكريم النساء بالحجاب هي التي ألزمتهم هذه الدعوى لا الانحراف الجنسي كما قد يتبادر للناقد أحيانا والله أعلم .

١٠ — أو يغارون على النساء فيقتلون الرجال غيرةً عليهنّ أو طلبا لرضاهنّ . وانما أرادت هند بقولها :

« نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقِ الطَّيِّبِ فِي الْمَفَارِقِ  
وَالدُّرُّ فِي الْمَخَانِقِ »

تَحْرِضُ فَرَسَانَ قَرِيْشَ فَاِمَامًا مِّنْعُوْهُنَّ . وَاِمَا اُبَا حُوْهَنَّ . وَالْقَوْمَ الَّذِيْنَ  
صَحَبَهُمْ اَبُو الطَّيِّبِ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ . . وَدَعَا اِلَى ذِكْرِ اَبِيَّاتِ هِنْدَ  
مَا فِيْهِنَّ مَنْ ذَكَرَ الطَّيِّبِ وَالْدُّرَّ وَهِيَ مَعَانٍ يُلْحِقُ اَبُو الطَّيِّبِ عَلَيْهَا .  
وَقَوْلُنَا : وَيَكُوْنُ الْقَنِيصُ الْعَاشِقُ وَذَلِكَ بَقَايَا الطَّيِّبِ « اَيُّ اَنْ الْغَوَانِي  
يَقْتُلْنَ قَنِيصَهُنَّ وَهُوَ عَاشِقُهُنَّ بِفَضْلَةِ الطَّيِّبِ الَّذِي كَسَرَنَّهُ فِي مَفَارِقَهُنَّ .  
كَصْنِيعِ فَرَسَانَ الْبَدُوِّ الَّذِيْنَ صَحَبَهُمْ اَبُو الطَّيِّبِ حِيْنَ يَذْبَحُوْنَ  
مَا يَصِيْدُوْنَ بِفَضْلَةِ السِّيُوفِ وَالرَّمَاكِ الَّتِي كَسَرُوْهَا فِي مَفَارِقِ اَعْدَائِهِمْ .  
هَذَا سِلَاحُهُمْ وَقَتْلُهُمْ كَمَا ذَكَرَ سِلَاحُهُنَّ وَقَتْلُهُنَّ . وَاللّٰهُ اَعْلَمُ .

١١ — وَالْحَدِيثُ الْمُخْفِيَّةُ : اَيُّ الَّذِي يَخْفِيهِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ

١٢ — اَيُّ لَيْسَتْ الثَّوِيَّةُ هِيَ الْمَوْضِعُ الَّذِي قَرِبَ الْكُوفَةِ وَبِهِ مَاتَ زِيَادُ وَرَثَاةِ  
حَارِثَةَ بْنِ بَدْرِ الْغَدَانِيِّ وَقَالَ الْاَبِيَّاتُ

« صَلَّى الْاِلَٰهَ عَلَى قَبْرِ وَطَهَّرَهُ عِنْدَ الثَّوِيَّةِ يُسْفَتِيْ فَوْقَهُ الْمُورُ  
زَفَّتْ اِلَيْهِ قُرَيْشٌ نَعَشَ سَيِّدَهَا فَشَمَّ كُلُّ الثَّقَفِيْ وَالْبَرِّ مَقْبُورُ  
اَبَا الْمَغِيْرَةِ وَالْاَلَمِيَّةِ مُفَجَّعَةً وَإِنْ مَنَ غَرَّتْ الدُّنْيَا لَمَغْرُورُ  
قَدْ كَانَ عِنْدَكَ لَمَغْرُوفٍ مَعْرِفَةٌ وَكَانَ عِنْدَكَ لِلنَّكْرَاءِ تَنَكُّيرُ »  
وَهِيَ فِي الْكَامِلِ لِلْمَبْرَدِ .

وَلَكِنْ الثَّوِيَّةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْاَرْضُ الَّتِي نَزَلَ بِهَا اَبُو الطَّيِّبِ فَكَانَ بِهَا  
ضَيْفًا عِنْدَ الْبَدُوِّ ذَاتَ لَيْلَةٍ . هَذَا تَقْرِيْبٌ لِّلْمَعْنَى .

١٣ — اِنْ كَانَ الْحَزِيْنَ بِهَا اَرَادَ — اَيُّ اِنْ كَانَ مَرَادُهُ الشَّخْصَ الْحَزِيْنَ  
لِفِرَاقِهِ السَّاكِنِ بِهَا وَهُوَ مَحْبُوْبَتُهُ .

١٤ — لَهَا مُحِبَّانِ مِنْ هَمْزِيَّةِ اَبِيْ نَوَاسٍ :

دَعُ عَنَّا لَوَمِيْ اِنْ اَلَلَّوْمَ اِغْرَاءً وَدَاوِنِيْ بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ  
مِنْ كَيْفِ ذَاتِ حَيْرٍ فِي زِيٍّ ذِيْ ذَكَرٍ

لَهَا مُحِبَّانِ لُوْطِيٍّ وَزَنَاءُ

وَالْعِيَاذُ بِاللّٰهِ !

١٥ — زعم أبو الفرج الببغاء أنه رأى عند أبي الطيّب غلاما. وكان أبو الطيّب منصرفا عنه يقرأ أو يكتب . ثم لما انتصف الليل صرف الغلام وأعطاه مالا جسيما فقال له أبو الفرج إنه غلام مبتذل يرضى بما دون ذلك — وهذا الخبر موضع شك عظيم ونظر . والله أعلم .

١٦ — المراد هنا الترجيح أن قول أبي الطيّب :

«ولا ترد الغدران إلا وماؤها من الدّم كالريحان تحت الشقائق»

صَدَرَ عن تجربة حقيقية. ذلك بأن تشبيه المناظر الدامية بالوادعة جداً كالريحان تحت الشقائق بعيد جداً لا يسوغ إلا في حالة الزخرف البديعي المحض . والزخرف البديعي يغلب عليه روح الذكاء والبادرة الذهنية اللفظية أو المعنوية ولكن لا يخالطه انفعال وحيوية تنبئ عن تجربة . ولا أحسب القارئ ينكر أن بيت أبي الطيّب هذا فيه حيوية وانفعال ينبئ بوجود منظر ريحان وشقائق شاهده الشاعر فعلا وسجله ههنا . فأين شهيدَه ولماذا علق بذهنه كل هذا العلق ؟!

١٧ — هذه الصورة دامية جداً، صورة الطعن في حومة القتال الشديد كالذى اشتد حتى قارب حيث الطعائن وجعل الدم يتطاير حتى سقط على نحور العواتق حين يتساقط حولهنّ الفرسان ممّن يعطفن عليهم من بعولتهنّ ومحارمهنّ . ولعلّ هذا المنظر قد شاهده أبو الطيّب أيضا وعلق بذهنه . والشبه بين جمال العواتق — إذ لم يقل العواتق إلا وهو يريد أن ينبه على جمالهن — يتطاير دم القتال حولهنّ وبين الريحان تحت الشقائق لا يخفى ، متى ذكرنا أن الشاعر بنى صورته البيانية ههنا كلّها على المزج الرهيب بين صور القتال والجمال .

١٨ — راجع ١١ من قبل

١٩ — بما كان قصيراً أحرق كذاباً — هذه صفات كثيرة في الأغاني وسواه



مما ترجموا له فيه والمراد ههنا التنبيه إلى عنصر التحامل على كثير لا  
لشيء إلاّ لأنّه قد كان كيسانيّ المذهب . كيف يكون من كان في  
مثل بلاغته وأدبه كيسانياً إلاّ أن يكون أحق ممرورا . . . هذا هو  
الافتراض .

ومصدره كما لا يخفى الرغبة في الدفاع عن العقيدة الصحيحة ولا تحتاج  
إلى أن يدافع عنها بمثل هذا من ضروب التعصّب والله تعالى أعلم .

٢٠ — أى الطول في المرأة الطويلة يُكسِبُها نوعاً من تذكير فتحتاج إلى  
مزيد في الصنّاعة لتخفف من أثر ذلك . ومن أجل هذا ما قال كعب  
بن زهير :

« غَرَاءُ فَرَعَاءٍ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا لَا يَشْتَكِي قِصَرٌ مِنْهَا وَلَا طُولٌ »  
٢١ — وازن بين الصُّور في قول فتاة آل حمدان

« أجل عينيك في عيني ... الأبيات »

والصورة التي في شعر أبي الطيّب . عسى أن يكون جميع هذا قد وقع  
اتفاقاً . ولكن يغلب الظن أن الصورة التي يحدّثنا عنها أبو الطيّب  
والتي تحدثنا عنها الفتاة كان مصدرهما من التجربة واحد لشدة التشابه :  
قول الفتاة « أَجِلُ عَيْنَيْكَ فِي عَيْنِي » يشبه جداً في معناه قول أبي  
الطيّيب « فَتَقَبَّلَتْ نَازِرِي تَغَالُطُنِي » وقد سبق شرحه في الفصل الأوّل  
وقولها « صافحني » يسجل نفس التجربة التي في « ياطفلة الكف  
عبلة الساعد » وقولها « خُذْ سَمْعِي إِلَيْكَ » فيه معنى « لا كل سمع  
عن سواها بعائق » على نحو ما هو مفصّل في النصّ . والله أعلم .

٢٢ — قال الوليد . . . الخ ؛ هذه جملة معترضة واستطراد ويقال قال ذلك يزيد  
بن عبد الملك ومن يشابه أبه فما ظلم .

٢٣ — هذا من القصيدة التي مطلعها :

« نَسِيتُ وَمَا أَنْسَى عِقَابَا عَمَلِي الصَّدِّ »

ولاخيفة را زادت به حُمرة الحدِّ »

وهى فى مدح ابن العميد . والسببُ بكسر السين وسكون الباء جلدٌ رقيق كانت تصنع منه النعال الرقاق . وفيه قول عنتره :  
«بَطَلْ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ يُخَذَى نِعَالُ السَّبْتِ لَيْسَ بِيَتَوَّامٍ»  
أى هذه الإبل كرعن بمشافر كأنها من رقتها سبت مياه نام حولها الورد .  
لاحظ أن هذه هى نفس الصورة «الريحان تحت الشقائق» أو مقاربة لها والله أعلم .

٢٤ — هذا البيت لجرير، ومحل الاستشهاد قوله فى رواية من رواه «إذا ما استحين الماء» بالياء . فان هذا يعطى الإبل لونا من الرمزية والكناية لمعنى الحياء الذى أسبغه الشاعر عليها . والشاعر قد يكنى بالإبل عن نفسه وعن أحبائه . وإذا المقام مقام انصراف وتوديع جاز الاستشهاد ببيت جرير الحلو :

«أَتَذْكُرْ إِذْ تُودِّعُنَا سَلِيمَى بِفَرْعَ بَشَامَةِ سُقَيْى الْبَشَامُ»  
وإنما هذه الدنيا لحظات من السعادة تُخْتَلَسُ وتُسَجَّلُ ثم سائرها رتيب والله أعلم .

٢٥ — أى فارس الحصان الأحمر الذى تشرع إليه القنات من كل جانب أو فارس الظعينة ذات الهودج الأحمر الذى تشرع القنات نحو حُصَمَاتِهِ من كل جانب وهذه الصورة الثانية تكون مأخوذة من خبر غزوة الحمل ومثلها يكون حيًّا فى مثل خيال أبى الطيّب المتشيع .  
وقول عنتره :

«يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرَّمَا حُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بِيْشْرِ فِي لَبَانِ الْأَدْهَمِ»  
أى الرماح مشرعة نحوه وهو على حصانه الأدهم وقد وردته بالطعن فصارت لطولها وكثرتها حوله مثل أشطان البشر . أى حبال البشر؛ لأن الغرب؛ أى الدلو الكبير تكون الحبال متصلة به فى شكل مخروطى ويجوز أن يكون عنتره ههنا يصف بشرا لها واردون كثيرون .

ونظرُ أبي الطيّب إلى هذه الصورة من بيان عنزة لا يخفى .  
وقول أبي الطيّب «المشرع القنا قبله» فيه تسجيل دقيق لصورة تحفّز  
الرماح بالحصان وانفعالة الحصان إزاءها مزورا مقدما – فمن أجل هذا  
زعمنا أنه نظر أيضا إلى قول عنزة :  
« فازورّ من وقع القنا بلبّانه وشكا إلى بعبرةٍ وتحّمحمٍ »  
والله تعالى أعلم .

٢٦ – في الملتقى والعجاج والعجّلة – رمى الدرب بالجرّد الجياد  
إلى العدا – شوائل تشوّال العقارب بالقنا .  
هذان الشطران من القصيدة اللامية :  
« لياليّ بعد الظاعنين شكّولُ »

وتمامها :

« رمى الدرب بالجرّد الجياد إلى العدا  
وما علموا أنّ السّهام خيولُ »  
« شوائل تشوّال العقارب بالقنا لها مَرَحٌ من تحته وصهيلُ »  
والذي دعا إلى الاستشهاد والاستطراد بهما ههنا هو طلب الإيقاع في  
ذهن القارئ وقوّة التشابه بين روح المرح والنشاط عند قول أبي  
الطيّب :

« ودراع سيفته فخرّ لقيّ ... البيت »

وبين هذه الأبيات والجزء الذي هما منه في قصيدتيهما والله أعلم .

٢٧ – « من نفروهُ وأنفدوا حيّله »

أى غلبوه والمنافرة كانت نوعا من المغالبة يعتمد إليه المختصون فسى  
الجاهليّة يفاخر أحدهما الآخر في الشرف ويحتكمان إلى كاهن أو  
نحوه فيحكم لأحدهما على الآخر فيكون الغالب نافرا والمغلوب  
منفورا تقول نافرته أنافره فأنا أنفره أى أغلبه ( باب نصر )

وكانت أم أبي فراس جارية رومية فهذا كان يجعله بلاريب دون أبي  
العشائر إذ لم يذكروا أن هذا هجين. فلا يخلو قول أبي الطيب « مَنْ  
نَفَرُوهُ وَأَنْفَذُوا حَيْلَهُ » من نوع تعريض، ولا يستبعد أن يكون  
أبو فراس داخلا في هذا التعريض والله أعلم .

٢٨ - لا يخفى أن ههنا تنبيها للقارئ لعلوق معنى الطيب بقلب أبي الطيب  
وههنا أيضا إشارة إلى قوله :

« مَا أَسَّارَتْ فِي يَدَيِ ذَوَائِبُهَا جَمَعَلَتْهُ فِي الْمُدَامِ أَفْوَاهَا »  
أى كان يلمس ذوائب شعرها فيعلق بيده الطيب فحرصا منه على هذا  
الطيب يجعله أفواها أى طيبا وبهارات يُطَيَّبُ به كئوس مدامته .  
لاحظ قوله « ما أسارت » أى ما أبقت . هو نفسه قوله :

« مَا أَسَّارَتْ فِي الْقَعْبِ مِنْ لَبَنِ تَرَ كَتَّهُ وَهُوَ الْمِسْلُكُ وَالْعَسَلُ »  
أى ما أبقت، لأن فمها زاك وهى كلُّها عِطْرَةٌ فإذا تناولت قعب لبن  
بالبادية تشرب منه علق طيبها به .

وأحسب أن أبا الطيب اختار كلمة « أسارت » ليرمز إلى أنه ( والله  
تعالى أعلم ) قد شرب من سؤرها إذ سؤر المؤمن شفاء وكذلك  
سؤر المحبوب إذ الحب من الايمان - متى كان خالصا لله وقد كان  
أبو الطيب متألها - هكذا قال أبو العلاء ولعلّه لعميق الحاده كان يحسده  
ذلك والله تعالى أعلم .

٢٩ - هذا افتراض وذهاب مع أبي الطيب فى جوٍّ من أحلامه - هل هذه  
الصورة التى صوّرها لفناحسر وإنما هى صورة حليمٍ بها لنفسه  
بعد أن يرجع ظافرا إلى الشام ويلقى بدويته التى فُتنت بها الحلال وينشد  
روائعه كما كان يفعل أيامه الأول ويخسأ أبو فراس ومن كانوا حزبه  
من الناس والنسّاس ؟ !

٣٠ - دَيْرُ العاقول الذى أصيب فيه أبو الطيب كما حَقَّقَ ابن خلد كان  
وكما ذكر الثعالبي وهو كالمعاصر كان قريبا جِدًّا من بغداد ، وبعض

المعاصرين قد يهيمُ فيحسب أنه بعيدٌ جيداً عن بغداد إذ لا يستبعد أن كان اسم « العاقول » يطلق على أكثر من دَيْرٍ واحد . والله أعلم .

٣١- أى إنما ينبُت القنا الذى تصنع منه الرماح من أجل أن يحملها الناس ليخوضوا الشدائد فيلقوا الممدوح إمّا ينصرونه فينالوا من جدواه أو يقاتلونه فينالوا من جدواه أو يمدحوه مجتازين بديار العدو واللصوص كما فعل أبو الطيّب .

٣٢- لاحظ قوله حصى أرض وجعله هذا الحصى موضع تقبيل، وإعطاءك صوتاً مشعراً بهذا التقبيل فى قوله يلى - ألا يقوى هذا عندك معنى مارأيناه من الربط المعنوى بين صورة الحصى هنا وفى قوله :  
وامّواهُ يَصِلُ بها حصّاهَا صَلِيلَ الحَلَى فى أيدى الغوانى وفى قوله :

« بلادٌ إذ ازارَ الحسانَ يغيرها حصى تُربّها ثقبَته للمخانيقِ » وفى قوله :

وملمومةٌ سيفيّةٌ ربّعيّةٌ يَصِيحُ الحصى فيها صياح اللقالق يشعر بتجربة عميقة متصلة بالحصى فى نفس أبى الطيّب ؟ الله أعلم .  
٣٣- الذى يميل بنا إلى الخدس أنّها لثغاء قول أبى الطيّب وسيأتى فى النصّ :  
« تشير وبلعجلانُ فيها خَفِيّةٌ كدَرائِنَ فى أَلِفاظِ الشَّغِ ناطِقِ »  
فهذه تجربة وأشبه شىء أن تكون الصورة التى بقيت فى ذهن الشاعر وخياله صورة لثغاء تَخْلُط بين الراعين .

ثم أنّ الشاعر فى اللامية أعطانا صورة مقارنة لإنسان محبوب مقارنة آنسةً ، ولكنها غير ذات عِناق ، قريبةً منه جداً مثل شكَلَتْنى نَصَبُ :  
« دَوْنَ التَّعَانُقِ نَاحِلَيْنِ كَشَكَلَتْنى نَصَبٌ أَدَقَّهَا وَضَمَّ الشَّاكِلُ »  
فمذهبه فى التصوير ههنا يشبهه جيداً مذهبه فى تصوير الراعين فى أَلِفاظ

الألثغ – هل التجربة واحدة تشير إلى شخص واحد ؟ هذا ما نرجّحه  
حدسا والله أعلم .  
قوله بلعجلان أى بنو العجلان .

٣٤ – « ديار اللواتى » الأبيات من القصيدة الميمية التى مطلعها :  
« انا لا نَمِيَّ إِن كُنْتَ وَقَّتَ اللّوَأْمُ عَلِمْتُ بِمِا بِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ »  
وقالها فى الإخشيد قبل اتصاله بأبى العشائر بزمان .  
٣٥ – من قصيدة فى سيف الدولة مطلعها :

« أيدرى الربع أى دَمٍ أَرَأَقَا      وأى قلوبِ هَذَا الرِّكْبِ شَاقَا »  
٣٦ – تَعْتَجِرُ بِهِ تَلْفُفُهُ حَوْلَ خَصْرِهَا . تقول : اعتجر بالعمامة إذا لفّها  
على رأسه .

٣٧ – هذه العبارة مقتبسة من لفظ أبى حنّان التوحيدى يصف أحد الأدباء  
المرتزقين من حاشية الصاحب بن عباد فليُرجع إليها هناك فى ترجمة  
ياقوت له وللصاحب ، وفى كتاب مثالب الوزيرين وقد طبع منذ حين  
قريب .

٣٨ – نفرض أنها أخت أبى العشائر استنادا على البيت : « يَا أُخْتَ مُعْتَنِقِ  
الْفَوَارِسِ فى الوَغَى » وهو من القصيدة :  
« لَهَوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةً لَا تُعْلَمُ »

راجع الفصل الأوّل (١) . ومعتنق الفوارس على هذا الفرض يكون  
أبا العشائر . ثم إن سياق الكلام من بعد يتخلّى عن هذا الفرض ليجعل  
المرأة المعينة زوجة أبى العشائر وراجع النص .

ههنا تنبيه على أن قول أبى الطيب : « فَالشَّيْبُ مِنْ قَبْلِ الْأَوَانِ تَلَشُّمُ »  
كأنّه وضّحه ويبيّنه فى قوله : « وَتَكْمَلَةُ الْعِيشِ الصَّبَا وَعَقِيبة .. البيت » إذ  
هذا يدلُّ على أن عَارِضَى أبى الطيب قد خالط سوادهما بياض . فغالبُ  
لونهما السّوادُ الخالصُ أيّامَ كان فى رونق الشباب . وقادم البياض

حين يصير شيخا . ولم يعيش رحمه الله ليدرك تلك السن إذ قتلوه  
وهو ابن إحدى وخمسين .

٣٩ — هذا الاستطراد المراد منه أن بيت أبي الطيّب :

«وَفَوْقَ حَوَاشِي كُلِّ ثَوْبٍ مَوْجِهٌ مِنَ الدُّرِّ سِمْطٌ لَمْ يَثْمَبْهُ نَاطِمُهُ»  
يجوز حمله على ظاهره وهو أنه يصف صورة النساء اللاتي في نقش  
الفازة ( الحيمة ) ووشيهما . ويجوز أن يحمل على أنه التفات إلى فتاة  
النسيب التي في أول القصيدة :

«حَبِيبٌ كَانَ الْحُسْنُ كَانَ يُحِبُّهُ فَأَثَرَهُ أَوْجَارَ فِي الْحُسْنِ قَاسِمُهُ  
يَظَلُّ غُبَارُ الْخَيْلِ أَذْنَى سَتُورِهِ وَآخِرُهَا نَشْرُ الْكِبَاءِ الْمُلَازِمُهُ»  
وصويحباتها فهن الحور المقصورات في الخيام اللاتي لم يطمثهن إنس  
ولاجان — أو كما قال :

«تَحُولُ رِمَاحُ الْخَطِّ دُونَ سَبَائِهِ وَتُسَبِّي لَهُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ كَرَائِمُهُ»  
والله أعلم .

٤٠ — أي هذا الوصف المتقدم للفارس أشبه بالذي ذكره بدءا في قوله :  
«يَا أَخْتِ مُعْتَنِقِ الْفَوَارِسِ فِي الْوَعَى»

فمثل هذا هو الذي يعتنق الفوارس مقاتلا لهم . وقد صرح هنا أن هذا  
في وصف أبي العشائر ، فيكون معتنق الفوارس إذن هو أبو العشائر ،  
وأخته هي موضوع نسيب أبي الطيّب . ويستمر تفريع الحدس وتفصيله  
على النحو الذي ورد في النص كما سبقت إلى ذلك الإشارة . والله أعلم .

٤١ — وهنا إشارة إلى قوله :

«رَاعَتُكَ رَائِعَةُ الْبَيَاضِ بِمُفْرَقِي وَلَوْ أَنَّهَا الْأُولَى لَرَاعَ الْأَسْحَمُ»  
ليس موضوع وقوفنا ههنا هو عجز البيت إذ لا يخفى أن هذه فكرة  
ليس إلا ، وقد كررها أبو الطيّب في قوله :  
«وَمَا خِضَبَ النَّاسِ الْبَيَاضُ لِإِنَّهُ قَبِيحٌ وَآكِنٌ أَحْسَنُ الشَّعْرِ فَاحِمُهُ»

ولكنَّ موضع وقوفنا هنا قوله «رَأَيْتُكَ رَائِعَةً الْبَيَاضِ» فهذا يُسَجَّلُ  
 انفعالة تجربة . فمن التي ارتاعت للشبهة التي ظهرت بـمفرق أبي الطيّب ؟  
 هل هي أخت معتق الفوارس ؟  
 ولم ير أبو الطيّب أنْ يصبغ تلك الشبهة لأن البياض — بَيَاضِ  
 الشَّيْبِ — في ذاتِ نفسه غَيْرُ قَبِيحٍ . ومن ههنا يظهر معنى الربط  
 الذي ربطناه بين هذه المعاني وبين قوله :  
 « وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مُمَوَّهَةً  
 تَرَكَتْ لَوْنَ مَشِيْبِي غَيْرَ مَخْضُوبِ  
 وَمِنْ هَوَى الصَّدْقِ فِي نَفْسِي وَعَادَتِهِ  
 رَغِبْتُ عَنْ شَعَرٍ فِي الْوَجْهِ مَكْذُوبِ »

٤٢ — ههنا إشارة لقوله :

« يَرْنُو إِلَيْكَ مَعَ الْعَفَافِ وَعِنْدَهُ أَنْ الْمَجُوسَ تُصِيبُ فِيمَا تَحْكُمُ »  
 وههنا يجوز لنا أنْ نُؤَوِّلَ تأويلا آخر وهو الذي استقر عليه سياق آخر  
 هذا الفصل — وذلك أن معتق الفوارس في الوغى هو أبو الطيّب نفسه  
 وتكون هي أخته في الوداد وهو يرنو إليها مع العفاف ، وإذ جعلها  
 أختا جاز له أن يتظرف بهذا الذي ذَكَرَ من أمرِ المَجُوسِ .  
 لا يستبعد أن يكون معتق الفوارس في الوغى هو الشاعر وأبو العشائر  
 معا ، لأن أخيلة الشعر أشبه شيء برؤى الأحلام تجتمع فيها الأضداد  
 والأشباه ، ويكون المرثى جامدا ثم يطير ثم يصير شيئا آخر وهكذا  
 وهلم جرا والله أعلم .

٤٣ — أى أبو الطيّب في قوله :

« وَأُنْكَرَ خَاتَمَايَ الْخِنْصَرَا »

سَجَّلَ تجربة خاصة لعلها شعور بـمفرق أو نحو ذلك . والله أعلم .



## الفصل الرابع

- ١ - كالصائح المحكى مثلاً - أى كأبى الطيب لأنه قال :  
« وَدَعَّ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنِّي  
أنا الصائحُ المَحْكِيُّ والآخِرُ الصَّيِّدِي »
- ٢ - قول أبى الطيب :

« فَتَى مَسْرِينَا فِي ظُهُورِ جُدُونَا

إِلَى عَصْرِهِ إِلَّا نُرَجِي التَّلَاقِيَا »

فيه إشارة إلى عالم الذرّ ، وذلك حين جمع الله بنى آدم من ظهور آبائهم فدبوا كالذرّ ؛ أى صغار النمل ثم قال لهم ألسنت بربكم - قال تعالى ( سورة الاعراف ) : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . »

- ٣ - « فَرُبَّمَا شَرِبْتَ بِمَاءٍ ... الْخِ » أى فربما نلت العزير النادر الذى لا استطاع .
- ٤ - ابن حنّابة هذا هو ابن الفرات وزير كافور . والغرض ههنا أن كافور لم يعد أباً الطيب ولاية ولكن حاشية كافور زعموا ذلك لأبى الطيب وزينوه له . والله أعلم .

- ٥ - أى وجد أنفع المال أنواع الجرى وأنواع التقريب التى عند الخيل . والتقريب نوع من عدو الخيل ذلك بأنّها وفّت لى لمّا رأيت أن صروف الدهر جعلت تغدر بى . ووافؤها أنّها حملتني وفاتت بى الأعداء الذين كانوا يترصدوننى وحاولوا اللحاق بى لمّا خرجت من حلب ووفّت لى أيضاً الرماح ، وهى صمّ الأنايب ؛ أى القنا الذى عليه أسننتها ذو أنابيب صمّ . أى فصوص سالمة صمّاء لا عيب فيها . الجرد السّراحيب أى

الحيل الحسان الطوال القليلات الشعر . وذلك من محاسنها فيما ذكروا .

٦ - ذكر ابن الأثير ذلك فى كتاب المثل السائر اعتمادا على الأشياء الضعيفة التي لا تنكر ممّا روى لأبى الطيّب وثبت فى ديوانه ، ومنذ الذى لا تعدّ معائبه لكنّ عبارته يستفاد منها أنّ متن أسلوب أبى الطيّب كلّّه فيه ضعف وليس فصيحافصاحة أبى تَمّام والبحترى . وفى هذا نظر . وهذه الأبيات الثلاثة ونحوها من الجزالة بمنزلة تتقطع دونها الأعناق - وبذا وهو كثير عنده بذّ الشعراء وسبحان المانح .  
«تَهْوَى بِمَنْجَرْد ، يعنى نفسه لمّا جعل خيله جرّدا - أى قليلات الشعر - جعل نفسه منجرّدا أى منكمشا مستمرا فى أمره جادّا لا يلوى على شىء .

٧ - قوله : «يرمى النجوم... الخ» أى تسموهمته إلى النجم . وقد نظر المعرى إلى صياغة أبى الطيّب لأنّه أشبه النجوم بالسلب الذى ينتهيه صاحب الغارة . فزعم المعرى فى اللصوص الذين وصفهم يذكر انتشارهم وشرّهم فى الطريق ما بين العراق والشام أنّهم ذئاب جائعة من ذئاب الإنس يبلغ بها الشره أن تطمع فى جدى السماء لو وجدت إليه سبيلا . لمّا جعلهم ذئابا جعل شدّة طموحهم تبلغ بهم إلى أن يظنوا جدى النجوم شيئا يؤكل . مسبوتا : أى نائما .

٨ - ذكر برتراند رسل فى تاريخ الفلسفة أنّ طوما اكويناس اعتذر لإباحة الجماع ( لاتصاله بمزاعم النصرانى فى الخطيئة ) بأنّه وسيلة النسل وعاب إلاكثار منه لأنّه حينئذ يخرج إلى الاستئناس بالخطيئة . وقد ذهب مذهباً غير جد بعيد من هذا بعض من فسّروا قوله تعالى : «وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» بالولد إلاّ أنّ طريقهم أقصد إذ جعلوا المراد ما أباحه الله تعالى ، ويدخل فى ذلك ما كان حلالا من الرفث والله أعلم .  
٩ - إلى تهزّم الشجو البعيد - كصوت سواقى النيل . تقول تَهْزَم الدُّف ،

وتَهَزَّمَت القِدْرُ وهى تغلى .

١٠ — وهل البحر إلاّ النيل — لا يكاد أهل النيل عندنا يسمونه بغير البحر .  
وليس البحر ما كان مائحا ضربة لازب فالقرآن يفيد جواز إطلاقه على  
العذب .

١١ — « كليل تَوَسَّدْنَا الثَّوِيَّةَ » إشارة إلى قوله :

وَلَيْلٍ تَوَسَّدْنَا الثَّوِيَّةَ تَحْتَهُ كَأَنَّ ثَرَاها عَنَبَرٌ فى المَرافق  
فهذه الليلة كانت مما أحسن فيه الدهر إلى أبى الطيّب .

١٢ — وان من الشعر لحكما . . . الخ ، كأنّ هذا يقولونه لانفسهم .

١٣ — إشارة إلى قول « روميو » اطلعى أَيْتُهُمَا الشمس الجميلة واكسفى القمر  
الحاسد لك — الفصل الثانى — المنظر الثانى ، من روميو وجولييت  
قال جرير :

« الشمس طالعة ليست بكاسفة تَبْكِي عليك نجوم الليل والقمر »

١٤ — بمن استشار كافور : أى بمن استشاره كافور .

١٥ — عَيْر ، أى حمار الوحش . وهيق هو ذكر النعام ، وخنساء هى البقرة  
الوحشية ، وذِيَال هو الثور الوحشى . والمراد أنّ فاتكا صاحب صيد  
له من الوحش ماتختار أسنّته لسبق خيله وحذقه وحذقهنّ بالصيد .

١٦ — ممّا يفسد إنشاده صفاء المجلس عند كافور متى أريد به حاقّ الكيد .  
أى أنّ أعداء أبى الطيّب قد يكفيهم أن ينشدوا كافورا شعره أيّام شبابه  
ويعلّقوا عليه بأصناف الإشارات يوحون بها إلى أطماعه وانطواء نفسه  
على طلب السلطان بايتما وسيلة تنهياً له وأنه لا يؤمن من جانبه ،  
وأنّ ضبّطه والتضييق عليه والحذر منه كل ذلك ممّا يقتضيه الحزم .

١٧ — الحبس وأكل الأزواد — إشارة إلى قوله :

« جَمُوعَانُ يَأْكُلُ مِن زَادِي وَيُمْسِكُنِي »

لِكَيْ يَقَالَ عَظِيمُ الْقَدْرِ مَقْصُودُ

- ١٨ — وقلعت سخينة أم أبي فراس — ولامن ... الخ .  
 موضع الاستشهاد بالبيت أنه مما يرجح عندنا أن أبا الطيب إنما قاله  
 يعرض بأم أبي فراس ، إذ كانت أمه غير ذات شأن — لا يمشى الأمراء  
 حوالها حفاة على المرو — أى الحصى — فلا يشكون لذعه ولا رمضائه  
 وكأنما يسرون على ريش أولاد صغار النعام .
- ١٩ — ورميت جثته للكلاب — طرحتها فى العراء كالقائها للكلاب بل هو  
 إلقاء لها إلى الكلاب ، لاريب . والله أعلم .
- ٢٠ — « يستحل دم الحجاج فى الحرم » — أوله :  
 « شَيْخٌ يَرَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ نَافِلَةً »  
 من قصيدته : « ضَيْفٌ أَلَمَ بِرَأْسِي غَيْرَ مُتَحَشِّمٍ » .  
 وقد استحل القرامطة الحرم وانتزعوا الحجر الأسود من موضعه .
- ٢١ — « كالذى قام » — من لزوميات المعرى .
- ٢٢ — « كان أسود بصا » : هكذا نعت كافور فى ابن خلكان .
- ٢٣ — وكان أبا الطيب لم يكن يرى السواد .. الخ — والغالب عيب السواد والظن  
 به النقص فما كان أبو الطيب ليخرج من جملة أحكام بيئته . وقد كره  
 الفقهاء السفر والاتجار بأرض العدو وبأرض السودان . وإنما أردنا  
 التنبيه على أن أبا الطيب لم يكن صاحب عنصرية لونية انفراد بها .  
 ولعله كان أقل انصرافا فى خويصة أعماق نفسه عن سواد كافور ممن  
 كانوا يحيطون به من اضراب ابن حنظلة ورجال البلاط . والله أعلم .
- ٢٤ — إذ بلغ به كراهه السكاك الخ — إشارة إلى قوله  
 « وَمَنْ بَلَغَ التُّرَابَ بِهِ كِرَاهَ وَإِنْ بَلَغَتْ بِهِ الْحَالُ السُّكَاكَ »
- ٢٥ — أرن الحماسة ، أى نشاط الحماسة بفتح الهمزة والراء من أرن ( باب  
 فرح ) يَأْرَنُ .

٢٦ — أصداء الكهنوت والعرافة — وقد كان الشعراء في الزمان الماضي في الجاهلية بعض أصناف الكهّان. والمراد ههنا أن نعت أبي الطيّب لحال القتال والفتنة فيما بين الفرات وبرقة مع أنه صفة أمر واقع يخالطه نوع من النبوءة بفتنة وأحداث ستكون .

٢٧ — « وما التأنيث لاسم الشمس عيب » — الذي عند كثير من الفقهاء أن الأنوثة نقص ، يجعل منزلة الأنثى الحرة عند بعضهم دون منزلة العبد الذكر لأن العبودية قد تفارقه فيصير حراً وكذلك الصغير قد يكبر وهو إن كان حراً متقدماً على العبد — وقال صاحب الرسالة في الشهادة ومائة امرأة كأمرأتين . . الخ واستدل أبو الوليد الباجي من الحديث « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » أن فيه رخصةً للزوج في منعهن . والغيرة من الإيمان متى كان الغيور من أهل الفضل ، وإلا فالحيوانية المتصلة بعنصر التملك فيها وحسب السيطرة لا تخفى ، والله أعلم .

٢٨ — معنى « فعل » لدلالة البازل عليه .  
المراد أن رواية من روى « البازل » لاجدوى ولاطائل فيها ولازيادة معنى على مالهو كان قد قال :

« وإن بذل الإنسان لى جود عابِسٍ  
جَزَيْتُ بِفِعْلِ الْبَازِلِ الْمُتَبَسِّمِ »

إذ كلمة جود ههنا لايزيد معناها على كلمة فعل بشيء والله أعلم .

٢٩ — « على لا حب لا يهتدى بناره » — هذا شعرا مريء القيس يذكر سفره إذ توجه إلى القيصر ، على لا حب ، أى على طريق ليس فيه منار فيهتدى به ، تنكره إبل الشام لأنه ليس بطريق إبل ولكن طريق وعر لحيل الروم وبراذينها . وقد انقطعت بين الشاعر وكيانه كلمة الأسباب بعد مجاورة شيزر وحماة والإيغال فى بلاد الروم .

٣٠ — أصواء المِتان أى الأصواء ، أى العلامات التى تكون فوق ما غلظ من متون الأرض . والعلوب الآثار . أى تبدو آثار الطريق عند الأصواء

التي فوق المتان. ثمّ قال إنّه يريد ناقلته على الشرب من الحياض المتكدرة.  
ولاماء إلّا الحياض المتكدرة. فإنّ عافت فإنّ طعامها من بعد الرحلة  
والركوب — هذا معنى « فإنّ المندّى رحلة فركوب ». والركوب  
من الرحلة فالقاء لتدلّ على الاتصال وهو من شواهد سيويه ، أحسبه  
استشهد به في باب حتّى. والله تعالى أعلم .

## الفصل الخامس

١ — « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ... الخ » — للمفسرين وجوه فى تأويل هذه الآية. ولا يستبعد أنه كان من عادة القوم إذا استحسّوا جمالاً أن يحزّوا الأيدى إشعاراً بذلك. وليس فى ظاهر لفظ الآية ما ينفى هذا الوجه. وفى قول الطبرى « حَزّاً حَزّاً » فى بعض ما ذكر من وجوه التأويل ما عسى أن يشعر بجواز معنى من هذا التأويل والله أعلم.

قيل حتّى أبنتها — من أبان بمعنى أبعد وقطع قطعاً فاصلاً. وهذا القول فى خبر سيّدنا يوسف عليه السلام فى تفسير الطبرى.

٢ — « لُقْيَانُ الْمَعَالَى . . . » — قالوا رُوِيَ بضمّ اللام ، وخطأ بعضهم أبا الطيّب فى ذلك محتجاً بأنّ اللقيان بكسر اللام — وانظر شرح العبرى . . . وهذه الأبيات « ذَرَيْتَنِي أَنْتَلُ مَا لَا يُتَالُ مِنَ الْعَلَى . . . » من لامية جيّدة لأبى الطيّب أراها من حسناته.

٣ — حُمَاةُ رَبَّةِ الْهُودَجِ — إشارة إلى قوله :

« يَبِيتُ غُبَارُ الْخَيْلِ أَدْنَى سَتُورِهِ

وَأَخِيرُهَا نَشْرُ الْكِبَاءِ الْمَلَاذِمُ »

فالخيل تحمى الهودج الذى هى فيه — وربّة الهودج هى محبوبة أبى الطيّب إن صح أمرها. وقولنا من وراء التّيه ، فهو الصحراء . . . وقد كان هو بمصر لما قال الأبيات النونية ، فتيه سناء وأرض الشام كلّ ذلك كان بينه وبينها .

٤ — « تَحْمَلُوا . . . الْبَيْتَ » — أى اذهبوا ليت الإبل تذهب بكم .

٥ — قوله : « إِلَّا بِكَيْتٍ وَلَا وَدّاً بَلَا سَبَبٍ » عجيب فى بابه ، ولا بدّ للبكاء من سبب وإنّما أخفاه كما ترى ، ولسبب هو الودّ بلا ريب ، لا العشق ، فإن كانت تجمع بينه وبين محبوبته فقد كانت تودّه والله أعلم .

٦ -- قال العكبريُّ ، يعرض بسيف الدولة . قلت هذا ظاهر الكلام وباطنه  
أسىً على أنه لا يستطيع لقاء الأ حباب الأ حياء .

٧ -- وكالَّذي ذهب إليه الخـ هـكذا جاء في قصّة «مادنجو» ينسبه إلى رواية  
ونصوص محققة وما أشبه ذلك أن يكون . والله أعلم .

٨ -- « تَعَثَّرَتْ به . . . » يُرْوَى أحيانا : « تَعَثَّرَتْ بك . . . » والكاف  
خطاب للخبر ، والهاء أحبُّ إلى . والعرب ممّا تختصر حركة أمثال هذه الهاء  
أحيانا كثيرة . ومن ذلك في القرآن « يَرْضَهُ لَكُمْ » في سورة تنزيل في  
رواية حفص عن عاصم ، وغيره يقرأها بإشباع ضمة الهاء .

وتَعَثَّرُ أفواه من يحبـ إشارة إلى البيت «تعثّرت به في الأفواه» -  
أى لمّا وصف أبو الطيّب حاله إذ جاءه الخبر فاضطرب له وعبّر عن  
ذلك بقوله :

« شَرِقْتُ بالدِّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي »

ذكر محبوبته ومن حولها وأنها لاشك يكون قد ساءها خبر موت خولة  
إذ سمعت به ولعلّها كانت بأنطاكية فسمعت نعيها هناك فهذا تَعَثَّرُ  
خيل البريد به في الطريق ، وتعثّر أفواه الناعين إذ ذكروا الخبر المؤسف  
لها ، وتعثّر لسانها هي وحزنها وشرقها بالدمع كما شرق أبو الطيّب .

قولنا من يحب إذ نعينها إليه - الالضمير المذكّر يعود إلى لفظ من  
على إفراده وتذكيره اللفظي ولك أن تقول : إذ نعينها إليها وعيبُ  
هذا تكرارُ ضمير المؤنث ثم هو ينصّ على المحبوبة والضمير المذكّر  
بحكم عودته على من يدل عليها وعلى من يكون معها كأبي العشائر  
وكجواربها وهلمّ جرّاً والله أعلم .

٩ -- « دموع تذيب . . . » صدره :

« تركتَ دموعَ النِّغَانِيَّاتِ وفوقها »

وهو من قصيدة رثى بها ابنا لسيف الدولة ، هو أبو أبو الهيجاء عبد الله .



ثمَّ يخالطها سواده وسواد المسك ... الخ — الأرب ههنا إشعار القارىء  
الكريم أن قول أبى الطيب :

« تَبْلُ الثَّرَى سُوداً من المسك وَحْدَهُ  
وَقَدْ قَطَرَتْ حُمُراً عَلَى الشَّعْرِ الْجَثَلِ »

فيه صورحيّة منبثة عن مشاهدة . ولعلّها صورة المرأة الّتى كان يُحِبُّها  
بحمص وخنصرة وحلب . وهى الموصوفة فى الأبيات الهائية :

« شَامِيَّةٌ طَالَمَا خَلَتْ بِهَا تُبْصِرُ فِى نَظَرِي مَحِيَّاهَا  
مَا أَسَارَتْ فِى يَدِي غَدَائِرَهَا جَعَلَتْهُ فِى الْمُدَامِ أَفْوَاهَا  
أى ما أبقت غدائرها فى يدى من الطيب فأنا أطيّبُ به المدام — والإشارة  
بعدُ فى سائر الجملة لانتفى إن شاء الله .

١٠ — أى كأنه كانت نحوه مشابه من صفات عهدها أبو الطيب فى أمّه --  
من نحوه أى نحوه . قال ابن أبى ربيعة :

« عوجا نحىّ الطلل المنحولاً والرّسم من أسماء والمنزلاً »  
أى رسم أسماء وآثار منزلها . واستشهدنا بهذا البيت لبيان معنى « مِنْ » الّتى  
للاضافة كاللام .

١١ — لرأسك والصدر اللذّى — أى اللذين . والعرب تقول : اللذان واللذان  
بدون نون ، واللذين واللذّى كما ههنا .

١٢ — الغراب الأعصم الذى فى رجليه بياض وهو مما يتشأم به . وفى  
البيت تضمينٌ رمزٍ وتشبيهٌ حسن . ذلك بأن الحبر أسود كالغراب وهذا  
الغراب أعصم بلون الورق . ثم كلُّ ما كتبه الى جدّته شاهد بالبين .  
والغراب والبين أخوان .

١٣ — فما ذكروا أنّه دعى — أراد أن يتّهمه بهذا الدكتورطه فى أوائل كتابه  
« مع المتنبي » حدسا بلاسابقة من دليل مرّوى وهذا قد لا يستقيم .

- ١٤ — وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متألها أي مؤمنا بالله .
- ١٥ — إذ يهيب نفسه للخروج في مثل سنّ مسلم بن عقيل — هو ابن عقيل بن أبي طالب ، قتله عبيد الله بن زياد وكان قد أوفده سيّدنا الحسين ليروز له أمر الكوفة . فاتبعه جماعات من الناس ثم تفرقوا عنه وخادعه محمد بن الأشعث حتى استأسر ، فما كان من ابن زياد إلا أن أمر به فضربت عنقه من أعلى القصر ، يظهر أمر ذلك للناس جبروتا وعتوّاً فتعالى الله الملك القادر . وكان مسلم بن عقيل لم يبلغ العشرين ولعلّه لم يبلغ الثامنة عشرة .
- ١٦ — عهد البيضاء : أي عهد المحبوبة .
- ١٧ — النّبع شجر قوى والغرب ضعيف ، والصقر شجاع والحرب جبان .
- ١٨ — أول سنّتيه مع سيف الدولة — هذا مجرد فرض وترجيح منّا ، لأن الفارابي مات بعد سنتين من اتصال أبي الطيّب بسيف الدولة .
- ١٩ — وكانت سخينة وابنتها من حولها . . الخ — هذا كله من الخدس لقرب أحوال هؤلاء بعضهم من بعض .
- ٢٠ — وكل نجاة بجاوية — أي ناقة شديدة النجاة من أرض البجاة . والبجاة جيل من السودان يسكنون من حيث جبال البحر الأحمر غربى حلايب إلى شمالى أرتريا من أرض الحبشة .
- ٢١ — وهو الذى قيل رواه . إن يكن أبو منصور روى هذا الخبر فعدم إثباته له فى خبر أبى الطيّب يدل على إنكار منه له . ويجوز أن تكون الرواية كلها قد ادعت على أبى منصور كذبا والله أعلم .
- ٢٢ — سدكوا بأبى فراس — لازموه ولصقوا به . .
- ٢٣ — بقوله « الغطارقة الغرا » فهذا هو العي والحصر . ثم يضاف إلى هذا ما يداخل المعنى من تفضيل عبدى الروم على كافور ، كأنّهم لبياضهم

أكرم وأنفس من أن يقتنيهم أسود مثله . ومثل هذا المعنى قد يخطر  
لأبي فراس ومن على شاكلته ، ولكنَّ أبا الطيّب كُـلُّ العبيد لديه  
صنف واحد من شواهد ذلك مثلاً قوله :

« يَسْتَخْشِنُ الْخَزَّ حِينَ يَلْمَسُهُ وَكَانَ يُبْرَى بِظُمْرِهِ الْقَدَمُ »

٢٤ - الصَّحْلُ بالصَّاد المهملة والحاء المهملة بفتح الصاد وكسر الحاء من  
صَحْلَ صوته يَصْحَلُ إذ اعترته خشونه وصار أبحَّ .

٢٥ - ولعلَّه كان طرفاً في هذا الكيد أمر الجارية - هذا مجرد حدس لإكمال  
صورة حال ما كان عليه بلاط سيف الدولة ولم تكن المؤامرة بحاجة إلى  
مشاركة سالبة أو موجبة من هذه الجارية الرومية على الأرجح والله  
أعلم .

٢٦ - بيتا سيف الدولة : « راقبتني العيون فيك . . » كان سيف الدولة  
ينظم الشعر ، وذكر شيئاً من ذلك أبو منصور في أخباره في الجزء الأوّل  
من يتيمة الدهر فليرجع إليه .

وقولنا ولعلَّ العذول كانت أخت أبي فراس لأنَّ هذه كانت زوجة  
لسيف الدولة ، وينبغي أن تكون تتعصب وتتحزب لأخيها . وإذا كانت  
فتاة آل أبي العشائر تحب أبا الطيّب وهذه الجارية تحبها ، فمكان العذل من  
أخت أبي فراس لسيف الدولة لا يخفى .

٢٧ - أبو القاسم الوزير من رجال القرن الرابع . كان داهية سياسياً  
أديباً شاعراً داعياً وله أخبار ، ورثاه أبو العلاء في الزوميات بكلمته التي  
يقول فيها :

« لَيْسَ يَبْقَى الضَّرْبُ الطَّوِيلَ عَلَى الدَّهْرِ رِوَالاً ذُو الْعَبَالَةِ الدَّرْحَايَةَ »  
الدرحاية القصير . أى لا يبقى النوع الطويل من الناس ولا الغليظ القصير منهم  
يا أبا القاسم الوزير تَسْرَحَلْ - تَ وَخَلَفْتَنِي ثِفَالُ رَحَايَةِ »

أى تركتني لزيم أحداث رحي الدهر .

« وَتَرَكْتَ الْكُتُبَ الثَّمِينَةَ لِلنَّاسِ وَمَا رُحِتَ عَنْهُمْ لِسْحَايَةٍ  
إِنْ نَحْتَكِ الْمُنُونُ قَبْلِي فَإِنِّي مُنْتَحَاهَا وَإِنَّهَا مُنْتَحَايَةٌ »

٢٨ - قوله : « وكم طرب المسامع ... » يوحى بالتفكير فى حبيب يسمع شعره فيعجب من عبقريته هو ومن عبقرية الممدوح الذى ألهمه . وقوله : « إذا اشتهيت دموع ... » كان ينعى به نفسه ، فعندما يتسامع الناس بموته فمنهم مظهر للحزن ومنهم حزين حقا .

٢٩ - قوله : « سوى ضرب المثلث والمثاني » يشير إلى حال أقوام بأعيانهم عهد منهم الإقبال على الملاحى والغناء - وقد تكرر هذا المعنى فى شعره كثيرا مثلا :

« أَلْهَى الْمَمَالِكَ عَنْ فَخْرِ قَمَلَتَ بِهِ شُرْبُ الْمُدَامَةِ وَالْأُوتَارُ وَالنَّغْمُ »  
وقوله :

« مَا الَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الْمَنَائِيَا كَالَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الشَّمُولُ »

٣٠ - قوله :

« أَتَى الطَّعْنَ حَتَّى مَا تَطِيرُ رِشَاشَةٌ مِنْ الدَّمِ إِلَّا فِي نَحْوِ الْعَوَاتِقِ »  
يوشك أن يشعرنا أن بنى كلاب ومن إليهم داهموا سرادق سيف الدولة حتى ريعت النساء معه ، وتناثرت الدماء قريبا منهن . مما ينبىء ببعض هذا قوله فى هذه القافية :

« تَوَهَّمَهَا الْأَعْرَابُ سُورَةَ مُتَرَفٍ تَذَكَّرُهُ الْبَيْدَاءُ ظِلَّ السَّرَادِقِ »  
والله أعلم .

٣١ - إلى حلب من طريق ديار العاقول - هذه رحلة أبى الطيب . فارق فارس وجنانها وكان أربئه أن يبلغ الشام حيث أعداؤه وأحببائه فانعرج به طريقه إلى دير العاقول حيث لقي حمامه - وإلى الله تصير الأمور .

٣٢ - قوله :

« لا أَقْبَلُوا سِرًّا وَلَا ظَفِيرًا      غَدْرًا وَلَا نَصْرَتَهُمْ الْغَيْلُ »

فيه تعريض بما صنع بنو حمدان به إذ أرسلوا من يروم رمية في الظلام .

٣٣ - إلى الذّي رَخَّصَ في دمه فيخلص . . . الخ - أى إلى سيف الدولة إذ هو قد كان رَخَّصَ في دمه كما مر بك في خبر السامرائي .

٣٤ - إذ كان ابن خالويه ضِلْعُهُ مع أبي فراس - كما لا يخفى - وهو الذّي شَجَّ أبا الطيّب بالفتح . ضلعه مع أبي فراس : أى ميله وانحيازه بفتح الضّادِ وسُكُونِ اللام .

٣٥ - اللائي يضعن النّفسَ أمكنة الغوالى ، إشارة إلى قوله :

« وَأَبْرَزَتِ الْخُدُورُ مُخَبَّاتٍ      يَضَعْنَ النّفسَ أمكنة الغوالى

والغوالى جمع الغالية وهى ضرب من طيب النساء .

٣٦ - « تمتع من سهاد . . . » - مثل هذا عند أبي الطيّب من التأمل كثير . وقد كان واسع الاطلاع . ومن أجل هذا وأمثاله ماظنّ الحاتميّ أنّه كان يأخذ من أرسططاليس . وما يُضَيِّرُهُ إن يك قد نظر في كتبه وأخذ عنه . قُوتِلَ الظلمُ وَلُعِنَتِ قُلُوبُ الحَسَدِ والبغضاء .

قال ابن جنى أرجو ألا يكون أراد بذلك أنّ ضجعة الموت لا انتباه لها . . . الخ - هذا قاله ابن جنى من شدّة إشفاقه على مصير أبي الطيّب ولما كان يطعن به عليه بعض أعدائه من ادعاء رقة في الدين عليه . وقد كان أبو الطيّب متأها كما قال أبو العلاء - هذا وقد كان رحمه الله من أفطن الخلق إلى التأله عند من يكون متأها .

رحمهم الله جميعا - والحمد لله أولاً وأخيراً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا .



# الغيث المنهمر

مهداة إلى أبي الطيب





## الغيث المنهمر

هَمَى عَلَيْكَ بِشَطَى دِجْلَةَ الْمَطَرُ  
وَفِي الْمَدَائِنِ رَاحَ الْغَيْثُ يَنْهَمِرُ  
إِنَّ التِّي وَدَعْتَنَا بَابْتِسَامَتِهَا  
لَا زَالَ فِي خَدَّهَا مِنْ لَمْسِنَا أَثَرُ  
حَتَّى كَانَ سُوءُ دَاءِ الْفؤَادِ بِهِ  
نُورًا نَجْتَلِيهَا رَوْضُهَا الْعُمُرُ  
لَمَّا لَمَسْنَا بِرِفْقِ الْكَفِّ نُونَتَهَا  
وَلَمْ نَحَازِرْ رَقِيبًا رَاعَهَا الْخَطَرُ  
وَعُضَّ عَنَّا مِنَ الْأَبْصَارِ خَائِنُهَا  
لَمَّا تَغَشَّى الْهَوَى فِي وَجْهِهَا الْحَذَرُ  
يَا حَبْدًا حِينَ نَاجَتْنَا بِأَنْمُلَةٍ  
تُشِيرُ حَيْثُ حَدِيثُ الْحُبِّ مُسْتَطَرُ  
إِنَّ الَّذِي زَوَّدَنَا مِنْ بَشَاشَتِهَا  
زَادَ لِعَمْرُكَ لِلْأَيَّامِ مُدَّخَرُ  
وَالْحُبُّ يَفْضَحُ أَقْوَامًا كَأَنَّهُمْ  
مِنْ الْحَيَاءِ الْعَذَارَى طَالَمَا صَبَرُوا  
وَالْغَانِيَاتُ تَرَائِيهَا مُغَالَبَةً  
لِلْمَوْتِ إِنَّ الْهَوَى فَوْقَ الرَّدَى ظَفَرُ (١)  
وَالْجِنْسُ مُخْتَلِطٌ بِالْحُبِّ شَهْوَتُهُ  
تَغَشَّى النَّفْسَ فَلَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ

(١) الترائي هو اظهار المحاسن .

والجِسمُ تَحْظَى بَنُو الدُّنْيَا بِمَنْظَرِهِ  
عَصَرَ الشَّبَابِ وَمَاءُ الْحُسْنِ يَنْحَسِرُ  
وَقَدْ يَلِدُكَ قُرْبُ الْمُسْتَرِيحِ لَهَا  
مِنْكَ الْفُؤَادُ وَمِنْ لَدَاتِكَ النَّظَرُ (١)  
وَالشَّبِيَّةُ فِي جَنْبَيْكَ أَرْوَاقُ قَسَّةٍ  
فَسِيحَةً وَمَدَى كَالْبَحْرِ مُنْتَشِرُ  
وَقَدْ تَصَرَّمَتْ الْأَعْوَامُ واقْتَرَبَتْ  
مِنَ الْمَيَّةِ بَعْدَ الْقُوَّةِ الْمِسْرَرُ  
وَمَا جَنِينَا جَنَازَةً مِنْ سَفَرِ جَلَّةٍ  
بِهَا نَتِيهِ عَلَى الدُّنْيَا وَنَنْتَصِرُ (٢)  
هَلْ تَذْكُرْنَ أَخِي حِينَ الشَّرَاعِ سَمَا  
عَلَيْكَ بِالْمَوْجِ فِي تَيَّارِهِ النَّهَرُ  
وَالْبَابِلِيَّةُ أَجْفَانَا لِصَاحِبِهَا  
سُوءُ الْخَلِيقَةِ بِئْسَ اللَّؤْمُ وَالضَّجَرُ (٣)  
يُجَادِبُ الْحَبْلَ مَمْقُوتًا وَيَغْلِبُ بِهِ  
ضَيْقُ الْمِزَاجِ فَكَادَ الْعِلْجُ يَنْتَحِرُ  
صَابِرَتَهُ تَبْتَغِي مَرْضَاتَهَا شَغَفًا  
بِهَا وَأَنْتَ لَهُ بِالصَّبْرِ مُحْتَقِرُ  
تَبَسَّمَتْ بِشَفَا مِنْ ثَغْرِهَا وَأَسَى  
وَفِي مَحَاجِرِهَا مِنْ جَفْنِهَا سُكْرُ (٤)

- (١) الفؤاد فاعل المستريح أى التى يستريح فؤادك لقرنها .  
(٢) اشارة الى قوله امرئ القيس : « وهاتى اذيقينا جناة السفرجل . » والسفرجل من الفواكه شبيه بالنفاح الا أنه اصغر منه وأخضر اللون .  
(٣) أجفانا تميز أى التى جنونها كالبابلية أى الحمر .  
(٤) بشفة : يطرف .

تَمُدُّ مِنْ سَاعِدَيْهَا غَيْرَ نَاشِطَةٍ  
 وَفَعْمَةٌ حَيْثُ يَغْشَى سَاقَهَا الْأُزُرُ (١)  
 طَوِيلَةٌ هُدْبُ عَيْنَيْهَا بَرَهْرَهَةٌ  
 أَسِيلَةُ الْخَدِّ مِنْهَا الْإِسْنُ وَالصَّعَرُ (٢)  
 بَانَتْ فِي الْقَلْبِ طَيْفٌ مَنْ تَذَكَّرَهَا  
 وَحَسْرَةً لَدَعُهَا قَدْ كَادَ يَنْدَثِرُ  
 وَالْعَيْشُ أَطْلَالَهُ تَعْفُو وَخُلَّتُنَا  
 كَأَنَّمَا وَصَلَهَا الْأَعْمَاقُ تَنْتَظِرُ (٣)  
 أَمَا تَرَانِي فِي بَغْدَادَ مُغْتَرِبًا  
 وَتَهْرُ دَجَلَةَ سَاجٍ مَأْوُهُ كَدِرُ  
 أُرْنُو إِلَى الْمُنْحَى مِنْهُ ، وَشَاطِئُهُ  
 لِلنَّخْلِ بِالْكَرْخِ عَنْ زُؤَارِهِ زُورُ (٤)  
 وَبَائِعُو الْحُوتِ طَافَ الْمُشْتَرُوهُ بِهِمْ  
 وَأَنْتَ وَحَدَّكَ إِذْ تُمَسِّي وَتَبْتَكَرُ  
 نَاءً عَنِ الْمَنْزِلِ الْخَصْبِ الْجَنَابِ بِهِ  
 رَيْفُ الْخَمِيلَةِ فِيهَا الْقَطْفُ وَالزَّهْرُ  
 حَتَّى الْمَدَائِنَ حَيَاهَا الْوَلِيدُ وَقَدْ  
 أَوْحَتْ إِلَيْهِ بِهَا السَّيْنِيَّةَ الذِّكْرُ (٥)  
 لَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى الْآجُرِّ قَدْ دَرَسَتْ  
 أَطْلَالُهَا وَانْمَحَتْ مِنْ نَقْشِهَا الصُّورُ

- (١) فعمة مثلثة والازر جمع ازار أى ساقها خدلة .  
 (٢) برهرة : ناعمة بضة .  
 (٣) تعفو : تذهب .  
 (٤) الكرخ هو شاطئ دجلة الشرقى من بغداد . زور بفتحين ميل وابتعاد .  
 (٥) سينية البحرى مشهورة وفيها يقول :  
 حضرت رحلى الهموم فوجهت الى أبيض المدائن عنسى . والوليد هو البحرى .

إِذِ الْمَقَاصِيرُ لَا تُوحِي الْقِيَانَ وَلَا  
 مِنْ رَسْمِ صُورَةِ أَنْطَاكِيَّةٍ خَبَرُ (١)  
 وَلَا الدَّرَفْسُ أَنْوَ شُرَوَانَ يُحْفِزُهُ  
 وَلَا أَبُو الْغَوْثِ فِي كَأْسَاتِهِ وَطَرُ (٢)  
 لَكِنَّ كَأْسَاتِ سَامِرًا يُشَعِّشُهَا  
 عِنْدَ الْخِلَاءِ لَدَى الْمَلُوءَةِ السَّمَرُ (٣)  
 وَالْجَعْفَرِيُّ خَرَابٌ حَوْلَهُ حِلَلٌ  
 مِنْ الرُّكَّامِ خَرَابٌ وَسُطَّهَا الْجُدُرُ  
 وَالْمَسْجِدُ الْجَامِعُ الْعَافِي مَنَارَتُهُ  
 تَخَالُهَا جَبَلًا طَابُوقُهُ حَجَرُ (٤)  
 وَقَدْ قَرَّتْكَ التِّي صِيغَ الْقَرِيضُ لَهَا  
 قَرِيٍّ مِنَ السُّودِّ وَالْإِحْسَانُ يُخْتَبَرُ  
 وَالنَّهْرَوَانُ فَقِيْدُ النَّهْرِ خَاوِيَّةُ  
 أَرْجَاؤُهُ مَأْوُهُ الْأَذْحَالُ وَالْحُفَرُ (٥)

- (١) إشارة الى قول البحري :  
 وكان القيان بين المقاصير يرجعن بين حو ولمس .  
 وقال : واذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وقرس  
 (٢) الدرفس العلم وهنا إشارة لقول البحري « وأنو شروان يزجي الصفوف تحت الدرفس »  
 وأبو الغوث ولد البحري وقال :  
 قد سقاني ولم يصرد أبو الغوث على العسكريين شربة خلس  
 (٣) سامرا هي المدينة التي بناها المعتصم للجند وبنى فيها مسجدا عظيم الابعاد ليس في العالم  
 مسجد اوسع منه وجعل منارة ملوية الدرج . وبنى المتوكل قريبا منها جامعا دونه في  
 السعة الا أنه أوسع المساجد كلها بعده وجعل له منارة ملوية والجعفرى المذكور بعد هو  
 قصر المتوكل والملوية المذكورة هنا هي منارة مسجده .  
 (٤) هو مسجد المعتصم والطابوق هو الآجر بلهجة العراق  
 (٥) النهروان احتفروه الأكايرة وأهمل أمره بعد سقوط بغداد بزمان فصار مستنقعات  
 وحفرا والأدحال جمع دحل وهو هنا حفرة المستنقع .

والدُّورُ فِيهِ قُبُورٌ لَا أَنِيسَ بِهَـا  
وَشَطَطُهُ مُشْرِفٌ مِّنْ تَحْتِهِ الْجُزُرُ (١)  
وَالرَّيْفُ شَابَ جَمَالَ الْبَاسِقَاتِ بِهِ  
مِنَ الدُّخَانِ سَوَادٌ فِيهِ مُعْتَكِرُ  
إِذَا دَجَا اللَّيْلُ أَبْدَى لِلْهَيْبِ سَنًا  
مِّنْ فَوْقِ أَسْنِمَةِ التَّنُورِ يَسْتَعِرُ (٢)  
وَالْبَصُّ مُنْخَرِطٌ سِيرَ الظَّلَامُ بِهِ  
لِتَطْمِئِنَّ عَلَى أَطْفَالِهَا الْأُسْرُ  
وَالْجِسْمُ نَاءً بِعِيبِ الْيَوْمِ يَحْمِلُهُ  
وَقَدْ يَكُونُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ سَهَرُ  
وَقَدْ حَنَنْتُ إِلَى الْخُرْطُومِ إِنَّ بِهَـا  
تِلْكَ الْفَتَاةُ الَّتِي فِي ثَغْرِهَا أَشْرُ (٣)  
وَالنَّيْلُ مِنْ جَوْ مِصْرَ قَدْ نَظَرْتُ إِلَى  
أَصِيلِهِ وَأَثِثْتُ نَبْثَهُ الْخَضِرُ  
فَرَعَاهُ لَاحَا مَعَ الْأَنْهَارِ بَيْنَهُمَا  
تَحْتِ الْجِنَانِ يَرَى لَأَلَاءَهَا الْبَصَرُ  
وَالضُّوْءُ فِي الْجَدْوَلِ الْمُسْتَنِّ تَبْصِرُهُ  
بِهِ أَتَمَّ عَطَاءَ الْحَالِقِ الْبَشَرُ  
إِنَّ الْعِرَاقِيَّةَ الْحَسَنَاءَ قَدْ عَلِمْتُ  
أَنْتَى مُبِينٌ بِلَحْنِ الْقَوْلِ مُقْتَدِرُ

(١) الدور : موضع .

(٢) التنور هو تنور معمل الآجر .

(٣) الأشر : تحزيز في الأسنان من الضوء والجمال .

تَبَسَّمتُ فِي سَوَادٍ مِنْ عِبَاءِ تِيهَا  
كَأَنَّ حَاجِبَهَا فِي وَجْهِهَا قَمَرٌ  
مِثْلَ الْهَيْلَالِ تَبَدَّى مِنْ غَمَامَتِهَا  
تَحْتَ الْجَبِينِ الَّذِي مِنْ فَوْقِهِ الشَّعَرُ  
كَأَنَّ عَارِضَهَا تَجَاوَبَ بِهِ أُمَمًا  
خَلَّتْ فَأَنْتَ عَلَى الْآثَارِ تَعْتَبِرُ  
كَأَنَّ حَاجِبَهَا لَيْلٌ بِرَابِيَةٍ  
فِيهَا الْقِيْلَاعُ الَّتِي قَدْ حَفَّتْهَا الشَّجَرُ  
أَهْدَتْ إِلَيْنَا كِتَابًا مِنْ رِسَالَتِهَا  
عَنِ الْكِتَابِ وَنَعْمَ الْآيُ وَالسُّورُ  
كَأَنَّ دَهْرَكَ هَذَا لَا يَكِينُ إِذَا  
لَا نَتَّ صَفَاتُكَ فَاصْبِرْ فَالْعِدَا دُحِرُوا (١)  
إِنَّ الَّتِي وَدَّعْنَا بِابْتِسَامَتِهَا  
تَذَكَّرْتُنَا وَعَهْدُ الْخَيْلِ يُدَكَّرُ  
أَمْ أَنْتَ شَاقَكَ مِنْ لُبْنَانٍ رَوْنَقُهَا  
لَمَّا اسْتَحْثَكَ عَنْ تَفَاحِهَا السَّفَرُ

عبد الله الطيّب

(١) صفاتك : صخرتك .

رقم الإيداع: ٢٧٣ / ٢٠٠٤





## بروفيسور عبد الله الطيب

• ولد غرب الدامر سنة ٢٥ رمضان ١٣٣٩ هـ  
الموافق ٢ يونيو ١٩٢١ م

• والداه الطيب عبد الله الطيب وعائشة جلال الدين  
الطيب وهو ابن محمد بن أحمد بن محمد المجذوب.

• تعلم بمدارس كسلا والدامر وبربر وكلية غردون بالخرطوم  
والمدارس العليا ومعهد التربية ببخت الرضا وجامعة لندن كلية  
التربية ومعهد الدراسات الشرقية والإفريقية.

• نال الدكتوراة من جامعة لندن SOAS سنة ١٩٥٠ م.

• عمل بالتدريس بأمدرمان الأهلية وكلية غردون وبخت  
الرضا وكلية الخرطوم الجامعية وجامعة الخرطوم وغيرها.

• تولى عمادة كلية الآداب ١٩٦١ - ١٩٧٤ م.

• عين عضواً عاملاً بالمجمع اللغوي بالقاهرة ١٩٦١ م.

• تولى تأسيس كلية عبد الله بابيرو بكانو نيجيريا ١٩٦٦ م.

• عين مديراً لجامعة الخرطوم سنة ١٩٧٤ - ١٩٧٥ م.

• تولى إدارة تأسيس جامعة جوبا ١٩٧٥ - ١٩٧٦ م.

• عمل أستاذاً ممتازاً مدى الحياة (PROFESSOR EMARITEF)  
بجامعة الخرطوم ١٩٧٩ م

• له عدة مؤلفات ودواوين شعر.

• منح الدكتوراة الفخرية من جامعة الخرطوم سنة ١٩٨١ م  
وجامعة بابيرو سنة ١٩٨٠ م وجامعة الجزيرة سنة ١٩٨٩ م.

• شارك في عدة مؤتمرات في السودان وخارجه.

• أول رئيس لمجمع اللغة العربية بالسودان منذ تأسيسه سنة  
١٩٩٠ م وحتى وفاته.

• له مساهمات في الإذاعة والتلفزيون، فسر القرآن الكريم  
كله في إذاعة أمدرمان سنة ١٩٥٨ - ١٩٦٩ م مع قراءة الشيخ  
صديق أحمد حمدون.

• له تفسير جزء عم ١٩٧٠ م وجزء تبارك ١٩٩٠ م وأعد جزء قد  
سمع.

• عمل أستاذاً للغة العربية في جامعة سيدي محمد بن عبد  
الله بفاس المغرب ١٩٧٧ - ١٩٨٦ م.

• توفي ٢٢ يونيو ٢٠٠٣ م